سلسلة التراث الحضاري
٣٦

الفاشوش في حكم قراقوش



للأسعد بن مماتي
ت (٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م)

وما جمعه جلال الدين السيوطي
ت (٩١١ هـ - ١٥٠٥ م)

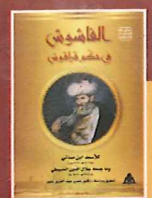
تحقيق ودراسة: دكتور عمرو عبد العزيز منير



الفاشوش في حكم قراقوش

للأسعد بن مماتي

اللوحة: الفنان الإيطالي Giacomo Ceruti
الغلاف: الفنان أحمد الجنايني







كتاب الفاشوش في حكم قراقوش
للأسعد بن مماتي ت (٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م)
وما جمعه جلال الدين السيوطي ت (٩١١ هـ - ١٥٠٥ م)

حكَايَةُ رسالةُ اليهودي

قَالَ: وأَتَوْهُ بمَحْضَر في شَهَادَة المُسْلمينَ بإثْبَات دَار في خُطّ قَصْر الشَّمْع. قَالَ: فَنَظَرَ عنْدَ ذَلكَ الأَميرُ بَهاءُ الدِّين قَرَاقُوشُ في المَحْضَر، وقَالَ: يَا هَؤُلَاء، كَمَّلْتُم المَحْضَرَ بخَطّ رَئيس اليَهُود؟ فَقَالُوا: لا. فقَالَ: هَذَا كُلُّهُ زُورٌ وبُهْتَانٌ ومُحَالٌ، ورَمَى المَحْضَرَ منْ يَده!

حكَايَةُ دارُ يا دارُ

قَالَ: وأَتَاهُ شَيْخٌ وصَبيٌّ أَمْرَدُ، كُلٌّ منْهُمَا يَقُولُ: يَا مَوْلَايَ، داري! فقَالَ عنْدَ ذَلك قَرَاقُوشُ للصَّبيّ: مَعَكَ كتَابٌ يَشْهَدُ لَكَ؟ فالدَّارُ مَا تَكُونُ إلَّا للشَّيْخ الكَبير. يَا صَبيُّ، ادْفَعْ لَهُ دَارَهُ، وإذَا صرْتَ في عُمْر هَذَا الشَّيخ الكَبير يَا صَبيُّ دَفَعَ لَكَ الدَّارَ، والسَّلام.

حكَايَةُ ديك الغُلام

قَالَ: وأَتَوْهُ بغُلَام، وفي يَده ديكٌ. فَقَالَ: يَا هَذَا، إنَّ هَذَا الدِّيكَ لَوْ نَقَرَ عَيْنَكَ لَكَانَ يَقْلَعُهَا. يَا غلْمَانُ، خُذُوا منْهُ ديَةَ عَيْنه.

قَالَ: فَحَلَفَ أَنَّهُ لا يَقْعُدُ في مَدينَة يَكُونُ حَاكمَهَا قَرَاقُوشُ أَبَدًا.

الفاشوش في حكم قراقوش

ISBN# 9789779135045
6 221149 069985



٢٥
جنيهًا

الفاشُوشُ في حُكْمِ قَراقُوشَ

للأسعد بن مَمَّاتي (ت ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م)

وما جمعه جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م)



الفاشوش في حُكْمِ قَراقُوش

للأسعد بن مَمَّاتي (ت ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م)

وما جمعه

جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م)

تحقيق ودراسة

د. عمرو عبد العزيز منير

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2021

ص. ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276
website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة التراث الحضاري

رقم الإيداع ٢٠٢١/٢٩٤٧٥
ISBN: 978 -977 -91 -3504 -5

تصميم الغلاف	تصحيح لغوي	الإشراف الفني
أحمد الجنايني	محمد حسين السيد	محمد محمود سيد

الفاشُوشُ في حُكْمِ قَراقُوشَ

للأسعد بن مَمَّاتي (ت ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م)

وما جمعه

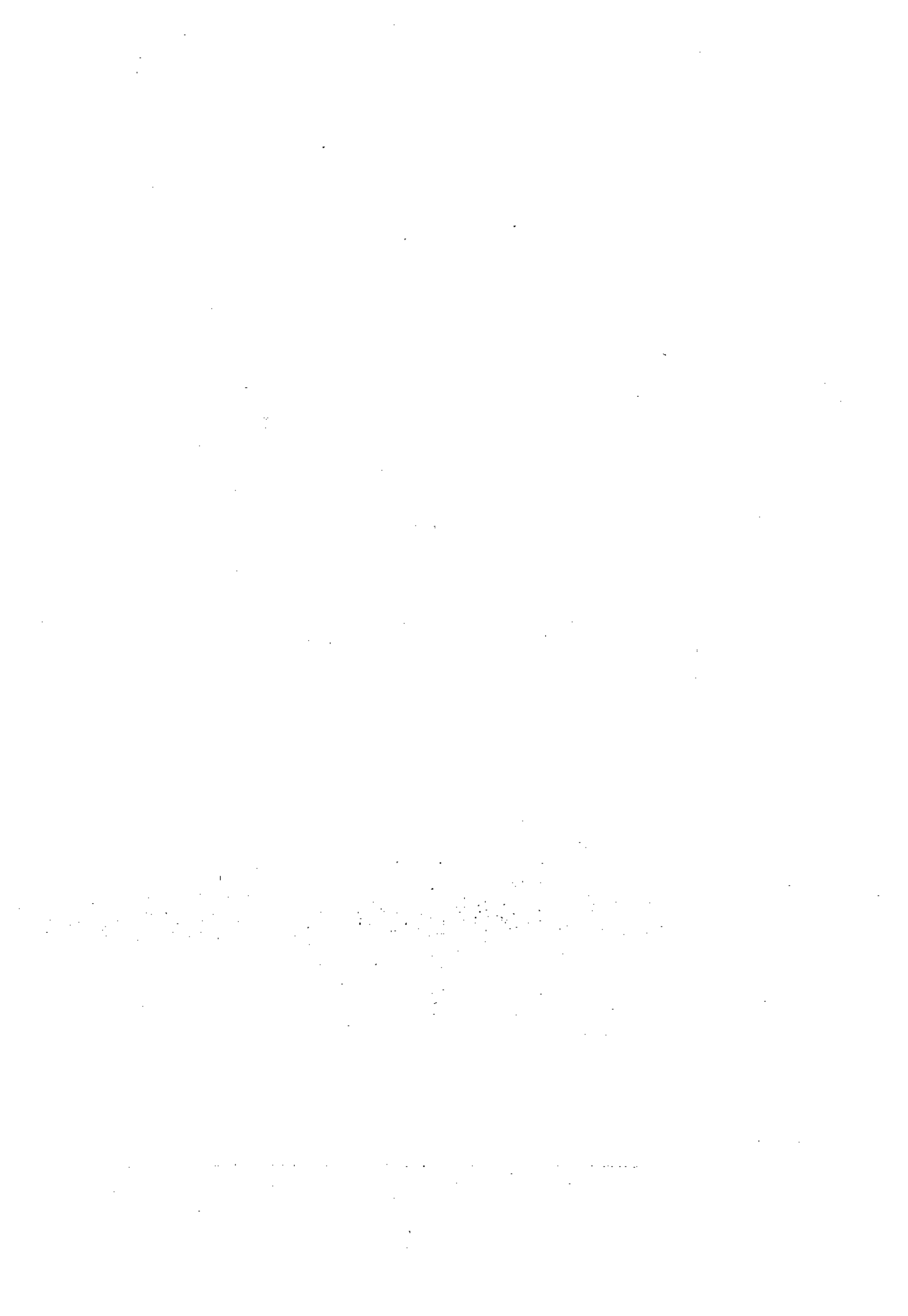
جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م)

تحقيق و دراسة

د. عمرو عبد العزيز منير



٢٠٢١



هذا الكتاب

يروي الأستاذ عبد المنعم شميس في كتابه المعنون "قهاوي الأدب والفن في القاهرة"، جملة من الحكايات عن تلك المقاهي ومرتاديها خلال أواسط القرن الماضي، فيقول عن قراقوش الخصي، ورجل صلاح الدين الأيوبي: "أما حكايات قراقوش فقد كان يرويها بعض أبناء البلد الظرفاء، وكنا نسمعها منهم في القهاوي البلدية التي كنا نرتادها، على حذر، لنسمع شعراء الملاحم الشعبية المشهورة مثل السيرة الهلالية وعنترة والأميرة ذات الهمة". ويواصل شميس كلامه عن حكايات قراقوش؛ فيشير إلى أن هذه الشخصية ظلت موجودة وحيَّة في وجدان الناس؛ حتى أربعينيات القرن الماضي، بل ودخلت المسرح؛ حتى إن فنان المسرح الشهير نجيب الريحاني قدم عرضًا مسرحيًّا تحت عنوان "حكم قراقوش"، ثم يسرد الأستاذ شميس في كتابه المشار إليه آنفًا عددًا من الحكايات التي سمعها من رواد المقاهي عن قراقوش ليست مدونة في أية طبعة من تلك الطبعات الشعبية المتداولة لكتاب ابن مماتي الشائع والمعروف والمسمى "الفاشوش في حكم قراقوش".

ومؤلف الكتاب هو شخصية تاريخية ملتبسة لا تقل التباسًا عن شخصية قراقوش ذاته، فكلاهما عاش العصر الأيوبي منذ مبتدئه، وخدم في دولة صلاح الدين الأيوبي، وقد نسبت للأول ابن مماتي جملة من الكتب المهمة، منها كتاب "قوانين الدواوين"، أما الثاني قراقوش، فقد أشرف على أعمال إنشائية عظيمة ما زالت موجودة حتى الآن، منها قلعة صلاح الدين وسور مجرى العيون الممتد، والذي كان يرفع مياه النيل إلى القلعة، ولقد صمم هذا السور وعمل على بنائه مهندسان قبطيان هما أبو مشكور وأبو منصور.

ويذكر العلامة علي باشا مبارك في "خططه التوفيقية" أن قراقوش استخدم في أعماله الإنشائية خمسين ألف أسير وآلافًا من العمال المصريين، وقد هدم الأهرامات الصغيرة التي كانت بالجيزة إلى جانب الأهرامات المعروفة الآن لاستخدام حجارتها في بناء السور والقلعة، ويبدو أنه كان حازمًا صارمًا غشومًا، مما جعل عامة الناس يضجَرون ويعانون من قسوته وأفعاله، فلم يجدوا وسيلة للهجوم عليه إلا بتأليف الحكايات الساخرة التي لا تخلو من مبالغة، ومن رسم كل صورة كاريكاتورية لقراقوش تنعته بالحمق والغباء، مثلما ورد في كتاب ابن مماتي عنه.

وقد تناول الأستاذ نسيم مجلي شخصية ابن مماتي، وعالمه التاريخي عبر دراسة مطولة مستفيضة، قدم بها لكتاب ابن مماتي "لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة المستخرَج من كتاب ابن بسام الأندلسي، والذي قام الأستاذ مجلي بتحقيقه، وقد تتبع في دراسته هذه ما كتب عن مؤلف كتاب قراقوش في الأدبيات التاريخية بدءًا من ياقوت الرومي (ت ١٢٢٩م)، وابن خلكان والمقريزي والأصبهاني والعيني، وحتى الأب لويس شيخو، الذي خصص فصلًا كاملًا للحديث عن ابن مماتي وشعره في كتابه "شعراء النصرانية بعد الإسلام"، وكذا الأستاذ عزيز سوريال، الذي حقق كتاب "قوانين الدواوين"، وذلك في العصر الحديث.

ولابن مماتي جملة من الكتب منها: "قرقرة الدجاج في لغة ابن الحجاج"، كما أنه ألف "سيرة صلاح الدين" شعرًا ونظم كتاب "كليلة ودمنة"، مثلما يشير ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان".

أما الباحث الدكتور عمرو عبد العزيز منير فهو يتناول كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش" من منظور علم الدراسات الشعبية، منقبًا عن دوافع الجماعة الشعبية في رسم شخصية قراقوش عبر المخيلة الجمعية، وحضورها الدائم على هذا النحو، سواء في الأدب الشفاهي أو المكتوب، ويتناول بالبحث تلك الحكايات التي جمعها جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م) بناء على رغبة العوام، عندما سألوه في زمانه عن حقيقة وتاريخية شخصية قراقوش،

وربما لا تجد سلسلة التراث الحضاري ما هو أفضل تعلًلا لإعادة نشر كتاب "الفاشوش"، وتلك الدراسة القيمة للدكتور عمرو منير، إلا بما كتبه ابن مماتي عن قراقوش، وأفعاله مما جعله مادة خصبة للخيال والبحث حتى وقتنا هذا؛ إذ قال: "إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظيم منزلته أن يرد كلمته، وتشتط اشتياط الشيطان، ويحكم أحكامًا ما أنزل اللهُ بها من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين عسى أن يريح منه المسلمين".

وربما لزم التنويه بأن العنوان الذي اختاره الباحث وواضع الدراسة لهذا العمل؛ الدكتور عمرو عبد العزيز منير، قد اختار عنوانًا علميًّا قمنا بتبسيطه لقارئ هذه السلسلة الكريم؛ حتى يسهل تذكره واستيعابه.

سلوى بكر



القسم الأول

الدِّراسَةُ

كتاب الفاشُوش
بين التاريخ والحَكْيِ الشعبي



تمهيد

حكايات التاريخ... شواطئ لم ينزل بها أحد، وآفاق مستحيلة، والحكايات هي الحكايات، تصنع الغدر والخيانة، والوشاية والتضليل وخداع النفس، هي الحب والنَّبالة، وعليك أن تعرف الحكايات وتعاشرها، وتراها من كل الأوجه، ولن تعطيك أبدًا سرَّها. ستظل ساحرة، لُغْزًا مبْهَمًا باعثًا علىٰ التساؤلات تساؤلات تنتظر التفسير لا الإجابة؛ لأن التاريخ لا يعرف الإجابات الحاسمة.

وهذه الدراسة لكتاب الحكايات «**الفاشُوش في حكم قَراقُوش**»، هي محاولة لتجديد التساؤلات حوله، سمحنا لأنفسنا بالبحث عن إجابات بديلة وتفسيرات غير متوقَّعة؛ علَّنا نتبين موقعَه من المواجهة بين التاريخ والحكْي الشعبي؛ وما أصعبها من مواجَهة.. تلك الأسئلة الماكرة التي تقفز من الذهن وتستعصي علىٰ أن نجد لها إجابة في كتاب واجه الإهمال والازدراء بشجاعة، مع قناعتي بأن الكتاب يقول ضمن ما يقول: إننا لا نسمع بعضنا، وإننا لا نقرأ ما يكتب خارج دوائرنا الإقليمية الضيقة.

ويبقىٰ "الفاشوش" بعد ذلك، عملًا فنيًّا بالغ الأهمية، وموقفًا سياسيًّا عظيم الدلالة وُلِد من رَحِم إبداعات التراث الشعبي المصري في العصر الأيوبي[1] (٥٦٩هـ - ٦٤٨هـ / ١١٧١ - ١٢٥١م)؛ وتربَّىٰ في حجر مصر المملوكية، فأضحىٰ وثيقة تاريخية مهمة. صحيح أنها لم تخرج من بلاط السلاطين وأروقة الدولة ودواوينها، ولا شملتها صفة الرسمية ومُهرت بخاتم السلطة؛ إلا أنها تعد

---

[1] الدولة الأيوبية يبتدئ عصرها من عهد السلطان المؤسس صلاح الدين وينتهي بنهاية حكم آخر ملوكهم (تورانشاه) سنة (٦٤٨هـ/١٢٥١م).

وثيقة إثنوغرافية[1] علىٰ درجة عالية من الأهمية، وتنبع تلك الأهمية من حافِظها، وهم الطَّبقات الشعبية الذين وإن غيَّروا فيها، فأضافوا إليها أو حذفوا منها، فهو مما يعد عامل صدق، ويعبر عن جانب مهدَر من الحقيقة، حقيقة واقعهم المتقلِّب. والباحث المتجرِّد لا يمكنه أن يتجاهلها أو يتجاهل هتاف أولئك العامة، بل إنه سيبحث فيها ويفتش بها عن مواضع آمالهم وآلامهم عساه يدركها، أو يدرك ما أشار إليه الكتاب أكثر من مرَّة، مما عاناه المصري من إهمال وما كان يَرْزح تحته هذا البطل من ضغوط وأثقال.

وما بين ابن مَمَّاتي (ت٦٠٦هـ) والسيوطي (ت٩١١هـ) حكايات ماتت وحكايات وُلِدت، ورسَمت بين موتها وميلادها قيمًا جديدة وصنعت تاريخًا، تعود بنا أكثر من مرة إلىٰ فكرة الحقيقة في تسجيل التاريخ، وتعترف أنه في بعض ما رواه الرواةُ **«كذب»**.. ولكنه كذب لكي ينقل لنا **«الحقيقة»**، ولكي يجعل الواقع الذي كان بالأمس يُبعث من جديد.

إن مقدار الأمانة والصدق اللذَيْن يحتويهما هذا الكتاب المغبون لا يدانيهما إلا مقدار الضَّيْم الذي يَشيع في أرجائه؛ إذ يروي «الفاشوش» وجهة نظر مشروعة في السلطة، وبغضِّ النظر عن صحة هذه الوجهة أو خطئها، فإنه لا يمكن إنكار وجودها، خاصة علىٰ مستوىٰ الدالِّ والمدلول، فكتاب «الفاشوش» دالٌّ علىٰ عمل ذهني لشريحة اجتماعية كان لها موقف من السلطة وآليات عملها، وهو أيضًا يقدم مدلولات ثقافية تاريخية تتجاوز الأحداث والشخصيات الواقعية، لتشتغل علىٰ وظائف السلطة بشخصياتها الرمزية، وآليات عملها داخل سياق اجتماعي تاريخي، ومن خلال سرد يختلط فيه الواقعي بالمتخيَّل.

---

[1] الإثنوغرافيا، هي وصف عادات الشعوب وتقاليدهم ووقائعهم الاجتماعية، فالدراسة الإثنوغرافية هي تحليل ووصف لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدىٰ جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة. (انظر: مارك أوجيه - جان بول كولاين، الأنثروبولوجيا، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحد، ط١، بيروت، ٢٠٠٨، ص١٣، ١٤؛ وحسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا - فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، عدد فبراير ١٩٨٥، ص١٨-١٩؛ وأدب الرحلات، عالم المعرفة، العدد (١٣٨)، الكويت ١٩٨٩م، ص٤٩).

لذا فإن إستراتيجية البحث في نصٍّ علىٰ هذه الشاكلة تستلزم التحرك نحو رصد الدلالات الثقافية وتحليلها في إطارها التاريخي، وهذا ما يستلزم اللجوء إلىٰ مقاربة تنطلق من إشكالية النص، وما يقدمه من دلالات في سياقه التاريخي. ولاختيار المقاربة المنهجية التي يمكنها أن تشتبك مع تلك الإشكالية، كان لا بد الرجوع إلىٰ حكايات كتاب «الفَاشُوش في حكْمِ قَرَاقُوش» ذاته؛ لنجد أن المحور الأساسي له هو الأحكام والحكايات التي قدمها علىٰ الشخصية الفاعلة لها «قراقوش»، والتي يمكنها في الحقيقة أن تتجرد من واقعيتها فتخرج من إطار الشخصية الواقعية إلىٰ الشخصية الرمزية المعبرة عن السلطة، لكنها كذلك ليست أية سلطة، بل هي سلطة مؤطَّرة بسياق تاريخي وواقع اجتماعي محدد؛ لذا فإن وظائفها وتقييم تلك الوظائف، من الممكن أن تكون المقاربة الأكثر علمية لمعالَجة إشكالية الدراسة.

وقد اعتمدنا بدرجة كبيرة علىٰ المنهج العلمي في البحث التاريخي، مع استخدام الأسلوب التحليلي لحكايات «**الفاشوش**» وشخصياته[1]، اعتمادًا علىٰ بنائها الداخلي، والاهتمام بالعناصر الثابتة دون غيرها من العناصر المتغيرة؛ الأمر الذي يدفعنا لتحليل دور الشخصيات ورمزيَّتها من خلال وظائفها في المقام الأول، الأمر الذي يجعل دلالة الوظيفة الواحدة متغيرة؛ تبعًا لتغير السياقات الاجتماعية والتاريخية، في ظل توفُّر دراسات عديدة معظمها تتحدث عن الشخصية المحورية لحكايات الكتاب «بهاء الدين قراقوش» وتاريخه السياسي، ودوره في الحروب الصليبية، مع التركيز علىٰ مؤسس الدولة الأيوبية صلاح الدين الأيوبي، في حين بقيت الدراسات نادرة حول كتاب «الفاشوش» ذاته وتحليل ما ورد فيه من حكايات في سياقَيْها التاريخي والاجتماعي، وأسباب تلك الحكايات بما تضمنه من رؤية شعبية للشخصية، وتاريخها وعصرها. ومن هنا جاء اختيارنا لموضوع هذه الدراسة.

وقد قُسِّم الكتاب قسمين؛ قسم للدراسة وآخر للنَّصيْن المحقَّقيْن.

---

(1) الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنيوية (دراسة تحليلية إبستيمولوجية)، دار القصبة، الجزائر، ٢٠٠١، ص١٠٠.

القسم الأول (الدراسة) في أربعة أجزاء، تسبقها مقدمة؛ تناول أولها حكاية «الحكايات»، أو بمعنىً أدق تناولت كتاب «الفاشوش» بين التاريخ والحَكْي الشَّعْبي، وقدمت خلالها وصفًا وتحليلًا لكلا الخلفيتين لهذا الكتاب الثَّري.

والثاني كان من نصيب الشخصية الأكثر فعلًا وتأثيرًا في هذا النص، والتي نعدها البطل الحقيقي، وهو ابن مَمَّاتي المؤلِّف الأول لهذه الحكايات.

والثالث خُصِّص للحديث عن الشخصية الأشهر «قراقوش»، أو كما تظهره حكايات الكتاب البطل الزائف.

أما الرابع فكان من نصيبنا «نحن» الشخصية التي مهما تغيرت ذواتها، فهي مدارٌ لِفِعْل الآخرين، اللهم إلا في لحظات التجلِّي الرُّوحي، أعني الثورات، وأعني بـ«نحن» «المحكُومين».

والقسم الثاني (النَّصان المحقَّقان)؛ الأول (المختار مما نُقل من كتاب الفَاشُوش في حُكْمِ قَرَاقُوش) للأسعد بن مَمَّاتي (ت٦٠٦هـ - ١٢٠٩م)؛ والثاني (كتاب الفَاشُوش في أَحْكَامِ قَرَاقُوش) مما جمعه جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ - ١٥٠٥م).

ويَعْقُبَ النَّصَّيْن المحقَّقَيْن كشافاتٌ للأعلام، والفِرق والجماعات والطوائف، والبلدان والمواضع، والمصطلحات النوعية، والأمثال والحِكَم والقواعد، والكتب الواردة في المتن.

والله سبحانه من وراء القصد

مقدِّمة

كتبٌ قليلةٌ هي التي تقف في الحلْق في مكان ما بين العقل والمشاعر.. لا تستطيع أن تنساها كما لا تستطيع أن تفهم كلَّ أبعادها وتضاعيف مقاصدها، ومن هذه الكتب «**الفَاشُوش في حُكْمِ قَرَاقُوش**»، الذي ألَّفه الأسعد بن مَمَّاتي[1]، - الذي كان يتولىٰ منصبًا مهمًّا في ديوان[2] الجيش[3] والمال[4] في عهد صلاح الدين الأيوبي - وأصبح من بعده مثل «ألف ليلة وليلة»، يجمع بين الأدب

---

(1) ستأتي ترجمته لاحقًا.

(2) الديوان، هو موضع الكتَّاب ودارهم، وهو موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال. ينظر: الماوردي، أبو الحسن علي ابن محمد بن حبيب (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (مطبعة مصطفىٰ البابي، ط١، القاهرة ١٩٦٦م)، ص١٩١؛ والسبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت٧٧١هـ/١٣٧٢م)، معيد النعم ومبيد النقم، (تحقيق محمد علي النجار وآخرون، ط١، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٤٨م)، ص٢٩.

(3) اكتسب هذا الديوان أهمية كبيرة عند الأيوبيين كونه كان ينظم شئون المؤسسة العسكرية الأيوبية المتعلقة بالجند، من حيث إعدادهم وأعطياتهم أو إقطاعاتهم، فضلًا عن حفظ السجلات المتعلقة بهم. وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين: «وأشرف هذا الديوان علىٰ كل ما يتعلق بالجند بمختلف طوائفهم، فكانت تحفظ فيه الأوراق الخاصة بهم، وكذلك صار من اختصاصات ديوان الجيش المسائل المتعلقة بالإقطاعات؛ ولذلك سمي أحيانًا «ديوان الإقطاع». وأطلقوا علىٰ الشخص الذي كان يتولىٰ مهمة هذا الديوان اسم (ناظر الجيش)». انظر: سعداوي، نظير حسان، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، (مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٧م)، ص١٤٧.

(4) بيت المال، أطلق علىٰ الخزانة، وهي التسمية التي نجدها في جميع المصادر، كما سميت أيضًا (بيت مال المسلمين). ينظر: الدجيلي، خولة شاكر، بيت المال نشأته وتطوره، (مطبعة وزارة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٦)، ص٨.

الشعبي والأدب الرسمي؛ لأنه من الكتب القليلة التي عُرف مؤلِّفها الأصلي، ثم جاء المؤلِّفون من بعده يضيفون إليه الجديد المبتكَر من الحكايات، فإذا بنا نجد السيوطي يؤلِّف كتابًا عنه، ثم نجد قصة قراقوش تستمر حتىٰ عصرنا الحاضر، فيصبح «قراقوش» علمًا ورمزًا، كما أصبح «أوديب»[1] رمزًا في أساطير الإغريق، أو كما أصبح عنترة وهاملت وغيرهما من رموز الأدب الإنساني الخالد. فإذا بكتاب «الفَاشُوش» يصبح مِلْكية عامة، يضيف إليه العامة والخاصَّة والنابهون في التأليف أو التلفيق، روايات وروايات[2]، تجعله واحدًا من تلك الدرر التي يصنعها أدب المقاومة أو الاحتجاج التي تنبت وكأنها «زهور الصبار»، تمتلك ثراءً غريبًا في الألوان والأشكال، تجعلك تتلفَّت حولك، تتساءل: من أين أشرقت، وكيف بزَغت في هذه الصحراء!

يرجع أول بزوغ لكتاب «الفاشوش»[3]، إلىٰ النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، في مرحلة «مسحورة» من تاريخ مصر، مرحلة مليئة بالثورة والثورة المضادة، مليئة بالشهداء والخونة، بالتقدم والتخلف، بإرهاصات مستقبل جديد ومجيد تتنفس فيه الآراء الجريئة، وتخرج بفضله بطولات طال انتظار مصر لها؛ إيذانًا بميلاد دولة جديدة سَحَقت في طريقها كل شيء؛ علىٰ يد قائد من أصل كردي يُدعىٰ صلاح الدين الأيوبي[4]، دخل مصر عسكريًّا لا يسمع عنه أحد، وخرج منها قائدًا يخشىٰ بأسَه العالَمُ!!.

---

[1] أوديب، هو ملك طيبة في الميثولوجيا الإغريقية، حقق النبوءة التي قالت إنه سوف يقتل أباه ويتزوج أمه، وبالتالي يجلب الكارثة لمدينته وعائلته. للمزيد انظر: جان بيار فرنان، وآخر، أوديب وأساطيره (ترجمة، سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٩)، ص١٥٧.

[2] كامل زهيري، الفاشوش في حكم قراقوش (مجلة الهلال، القاهرة ١٩٦٦م)، ص٦٩، ٧٠.

[3] الفَشْفَشةُ ضعف الرأي.. والفَشُّ الأحمق.. وفي بعض الأمثال، لأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الوطبِ، أي لأزيلن نفخك.. أي لأذهبن بكبرك وتيهك. (ابن منظور، لسان العرب، مادة (ف.ش.أ)، دار المعارف، القاهرة، د.ت، المجلد الخامس، ص٣٤١٦).

[4] انظر: الببليوجرافيا التي ضمت الدراسات والأبحاث التي دارت حول صلاح الدين في الشرق والغرب، إعداد: محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ٢٠٠٨م).

أما الرجل الذي يحكىٰ عنه الكتاب يظهر في الأفق قادمًا من عمق الزمان، فهو الأتابَك[1] قراقوش بن عبد الله الأَسَدِي، أبو سعيد، بهاء الدين[2]، وهو أمير رومي[3] الأصل نشأ في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وناب عنه في الديار المصرية، وهو من الشخصيات التي ظِلُّها عليها، وكان أثرها أكبر من تأثيرها، وكذبتها أقوىٰ من حقيقتها، ووهمها أوسع من واقعها، وقد أسهم كل ذلك في تحصينها من الإهمال والسقوط من الذاكرة مدَّة أحقاب عدة، وبدلًا من السطور القليلة التي ملأتها في كتب التاريخ، سُطِّرت فيها مجازًا العديد من الصفحات، وحكيت حولها قصص وحكايات لا حصر لها في تراثنا الشعبي، ونسجت حولها الأمثال[4]؛ حتىٰ أصبحت من أحد معالم ثقافتنا الشعبية حتىٰ وقتنا الحالي.

ولهذا عاش كتاب «الفاشوش» وشخصية قراقوش في المخيال الشعبي عصورًا، ولا نبالغ إذا قلنا: إلىٰ الآن[5]؛ إذ يظهر أن الرواج الذي لاقَتْه هذه

---

[1] أتابك، لفظ تركي مركَّب من، «أتا»، بمعنىٰ: أب، أو الشيخ المحترم، و«بك»، بمعنىٰ: الأمير. ويعود استخدامه إلىٰ نهاية العصر العباسي، حيث كان لقبًا لمربي أبناء ملوك السلاجقة، وقد أطلق علىٰ مقدَّم العساكر أو القائد؛ لأنه يعد أبا العساكر والأمراء جميعًا، ويلي الأتابك في المرتبة نائب السلطان، غير أن الأتابك لم تكن له وظيفة، وكثيرًا ما اغتصب الأتابكة عروش أبناء سادتهم. انظر: مصطفىٰ عبد الكريم الخطيب، معجم الألقاب التاريخية، (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٦م)، ص١٧؛ وعلي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطىٰ من الفتح العربي إلىٰ الفتح العثماني، (مكتبة النهضة العربية، ط٤، القاهرة)، ١٩٥٤، ص٣٩٨.

[2] ستأتي ترجمته لاحقًا، ويجب ألا يخلط بينه وبين شرف الدين قراقوش التقوي المظفري، الذي قام بمغامرات كثيرة في طرابلس الغرب وأفريقية.

[3] ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع الأَسَدِي (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، (تحقيق: جمال الدين الشيال، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة - ١٩٦٤م)، ص٣٥٠؛ والمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية، مكتبة الثقافة العربية، القاهرة د.ت) ٢٦٩/٣.

[4] كارين صادر، الأمير قراقوش في ميزان الحقيقة (مجلة المعرفة، العدد (٥٢٢)، ٢٠٠٧م)، ص٧٩.

[5] من أمثال العامة إذا أرادوا المبالغة في وصف ظلامةٍ أو عتوٍّ قولهم: «إن ذلك مثل حكم قراقوش». خاصة أنه لما أراد بناء سور القاهرة اضطر أن يهدم بيوتًا وجوامع وقبورًا

الحكايات علىٰ مرّ العصور يحمل حماسًا اجتماعيًّا أكثر منه حماسًا دراميًّا، فحَبْكة الحكايات كلُّها علىٰ المنوال نفسه؛ فنحن نجد أنفسنا أمام حاكم/ قاضٍ تُعرض عليه قضايا عديدة يعرضها أشخاص مختلفون، فيصدر حكمه عليهم، وعادة ما يدخل القاضي وحكمه، لإثارة قضايا كليَّة، كالحكم والسياسة، والسلطة والناس، والعدل والظلم، والشرع والعرف، والحق والباطل، والمعقول واللامعقول، والنافع والضار، وذلك في شكل هَزْلي، يجمع بين النقد والسخرية.

تتغيَّر الأيام وتتعدد الألوان وتَنْزوي الدولة الأيوبية وتبقىٰ القاهرة بنت المعز المحروسة شامخة عريقة تتلألأ كسبائك الذهب تحت قرص الشمس، شاهدة علىٰ إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك التي حكمت مصر في الفترة (٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م)[(١)]، لتدخل مصر حقبة جديدة من تاريخها تحت حكم هؤلاء الرقيق الأبيض الذين أسسوا دولة بدأت بلعبة سياسية تولت خلالها «شَجَر الدر» السلطنة، واستمرت حتىٰ وصلت إلىٰ طومان باي؛ ماتت أول سلطانة لهم مضروبة بالقباقيب، وظلت ملقاة في خندق القلعة حتىٰ سرق اللصوص ملابسها الداخلية[(٢)]. ومات آخرهم حين اهتز جسده في مشنقةٍ علىٰ باب زَوِيلةَ؛ وما بين البداية والنهاية نزفت مصر في صمت أزكىٰ ما في دماء أهلها من أصالة ونخوة وشهامة... فاستدعىٰ العامة حكايات «الفاشوش» وتداولوها، واستمر هذا التداول والحماس لحكايات قراقوش والشغف بها إلىٰ عصر الإمام جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ - ١٥٠٥م)[(٣)]، الذي كان يخشىٰ أن «يضبط متلبسًا» بحقيقة مشاعره والمصريون في درسه المعتاد بالجامع

كانت قائمة في مكان السور. للمزيد راجع: أحمد تيمور، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، مادة (قرقش) (تحقيق، حسين نصار، مركز تحقيق التراث دار الكتب والوثائق، القاهرة ٢٠٠١م)، ٥/١١٦.

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١١١.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/٤٠٤.

(٣) الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، من أعلام أخريات العصر التركي الذين امتازوا بكثرة مناحيهم العلمية والأدبية، وبكثرة ما أبرزوه من المؤلَّفات، ولد بأسيوط سنة ٨٤٩هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٩١١هـ - ١٥٠٥م.

الطُّولـوني يُثْخنـوه بنظـراتهم، وقد وُجِّـه إليـه سؤال «فـي أثنـاء دَرْسِـه بِالجَـامِعِ الطُّولُونِيِّ، في أَواخِرِ المُحَرَّمِ سَنَةِ تِسْعٍ وتِسْعِينَ وثَمَـانِ مِائَـةٍ، عَنِ الأَمِيرِ بَهَـاءِ الدِّينِ قَرَاقُوشَ، وهَلْ لَهُ أَصْلٌ في التَّارِيخِ أَمْ لاَ؟ وكَذَا عَنْ أَصْلِ وُجُودِهِ، وهَلْ مَا يُعْزَىٰ إِلَيْهِ مِنَ الحِكَايَاتِ المُضْحِكَةِ لَه أَصْلٌ أَمْ لاَ؟»، مما يؤكد أن هذه الحكايات الشعبية كانت متداوَلة إلىٰ عهده، ولم تكن مجرد حكايات تحمل مذاقَ الأزمنة الغابرة، بل كانت تنبش خبايا العصر المملوكي لتضيء حاضر السيوطي فيستدعيها من التاريخ بروح قلقة تخوض تجربة عسيرة وتضرب في جَنَبات مأساة حية ثقيلة علىٰ القلب والعقل معًا؛ ليعرض بالرمز لقضايا وتجارب اجتماعية وفكرية حية بمدلولها السياسي، ويتخذ من الإسقاط التاريخي وسيلة لفضْح الواقع وتعريته والسخرية منه والتعريض بالحاكم الظالم؛ فيبعث علىٰ تشفِّي القارئ وتبصيره بحقوقه في مواجهة المستبدِّ، متبعًا المعارضةَ الخفيةَ والنقدَ بالحيلة والمداراة، والإشارة والتلميح، والهجوم غير المباشر لحاشية الحاكم وبطانته وجنده، فتخرج الحكايات والكلمات وكأنها تعاني ضِيقًا في التنفس والاحتضار. يكتب السيوطي في قلب «المِرْجل» يحيطه مجتمعُ نخبةٍ صامتٌ يُحْدِقُ بعيون يخنقها الندم والعجز.

فيعمد «السيوطي» إلىٰ تخدير وعي المتلقي، وإيهامه بأنه يقرأ معلومات موثقة، لا سبيل إلىٰ الشك فيها، وخاصة حينما يذكر «أنه جَمَعْ فيه - الكتاب - هَذِهِ الأَوْرَاقَ، مَا رَقَّ ورَاقَ، فـي لَيْلَـةٍ واحِدَةٍ، وحَرَّرْهَا في سَاعَاتٍ قَلِيلَـةٍ، نَقَلًا عن المؤرخ النَّاصِرِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ تَغْرِي بَرْدِي في كِتَابِ «النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ في وُلاةِ القَاهِرَةِ»؛ للإيهام بتمسكه بالأمانة العلمية، ورغبة في كسب ثقة القارئ وإضفاء المصداقية علىٰ روايته، والجدية التي تتميز بها المؤلفات التاريخية التقليدية. فيجد المتلقي نفسه منبهرًا بما يقرأ أو يسمع من جهة، ومذهولًا به من جهة ثانية، ويصبح بين أحد أمرين: إما التسليم بما قرأ، وإما السكوت علىٰ مَضَض[1]، وبطبيعة الحال **ثمة خيار ثالث**، وهو عدم التسليم، والإصرار علىٰ

---

[1] أحمد محمود الخليل، صورة الكرد في مصادر التراث الإسلامي (دار آراس للطباعة، أربيل ٢٠١٢م)، ١٧٩، بتصرف.

سماع صَيْحات العامة وهم يحترقون من الظلم وعدم الإنصاف، فيترسَّخ لديهم ضرورة المطالَبة بالعدل ورفض القهر والاستبداد، لكن لهذا الخيار ضريبة باهظة العَناء، وهو ما نرجح به حقيقة نسبة السيوطي الحكايات لابن تغري بردي، أي الخوف من السلطة؛ وهذا حال طبقة النخبة المثقفة وأهل العمامة في ذلك العصر؛ عقل الأمة ووجدانها، وهو ما أدىٰ إلىٰ عدم حدوث مواجهة عنيفة بينهم وبين النظام أو مراكز السلطة، رغم المحاذير والمصادرات الأدبية والفنية والمادية، إلىٰ أن تغير الزمان وسقطت العمائم من فوق الرءوس ومضىٰ الزمان الجميل بأناسه ومفرداته.

لذا استطاع «الفاشوش» أن يسجل كل ما خطر للمصريين من عناصر نقد حول الأوضاع المستجَدَّة اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا، بشكل حكائي، حيث لجأ صاحب/أصحاب الحكايات إلىٰ بعض الآليات كالتناصِّ، والتوظيف الرمزي، والإسقاط الحِكائي علىٰ الأوضاع والأحداث السياسية والاجتماعية، بحيث ترتفع أحيانًا إلىٰ مستوىٰ الرمز التاريخي والاجتماعي، لتمتزج دراما الواقع والذاكرة في اللغة الطبيعية للحكاية، فشكّل لوحة إسقاطية غنية برموزها وتعابيرها التي تعكس مختلف أبعاد المجتمع الشعبي النفسية، بعيدًا عن إطار السلطة وخطابها الرسمي[1]، وتقترب إلىٰ الصدق الفني المعتمد علىٰ الإسناد إلىٰ ضمير الغائب، من خلال استخدام إحدىٰ تيمات الحكي المعروفة، وهي «**يُحكىٰ أن**» أو «**حُكي أن**»[2]، وتوظيف الفعل المبني للمجهول لإقناع المتلقي بأن تلك الحكايات ليست من نسج خيال الراوي / ابن مماتي، أو أنها كُتبت بدافع الخصومة الشخصية مع (الحاكم) «قراقوش»، بل إنها معروفة ومنتشرة، وكأنها صارت طبعًا لازمًا من طباعه. ومن هنا يسقط راوي الحكايات عن نفسه تهمة التشنيع أو التلسين وإلصاق الحكايات بـ (الحاكم) «قراقوش» ليتجاوز دور المؤلف إلىٰ دور الناقل الذي يضطلع بمسئولية سرد الحكايات

---

(١) ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي (ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠١٠م)، ص١٠٣، بتصرف.

(٢) تكررت أربع عشرة مرة من إجمالي ست وعشرين حكاية.

المعروفة مسبقًا في إطار قصصي، مستخدمًا تيمة أخرىٰ من تيمات الحكي المسنَدة إلىٰ المجهول أيضًا وهي صيغة «قيل»[1]، حاملة المضمون نفسه[2]. لينطلق صوب الرمز المعنوي أو «المثال». مبتكِرًا شخوصًا وأحداثًا فرعية في الإطار التاريخي العام لتحقيق هدفه الفني؛ ليقدم لنا هيكلًا من الحقيقة التاريخية كساها بخياله الفني لحمًا، ونفخ فيها من روحه الإبداعية، فإذا الحدث التاريخي قد استوىٰ كائنًا حيًّا جاءنا عبر العصور، ليس علىٰ صورته التاريخية الدقيقة، ولكن في الإطار العام للحقيقة التاريخية، وإذا التاريخ بشخوصه وأحداثه، قد أصبح يعايشنا في حاضرنا، بل ويعبر عن هذا الحاضر بفضل المبدع الذي بنىٰ بحكاياته جسرًا جعل الماضي والحاضر يتداخلان بشكل يصعب تحديد مداه[3].

لذا لا نستطيع أن ننظر إلىٰ «الفاشوش» علىٰ أنه كتاب تسلية أو سخرية، أو كتاب تاريخي فقط، بل هو محصِّلة للإنسان الذي عاش عصرًا مضطربًا - العصرين الأيوبي والمملوكي - فعايشنا تجارِبه وأحلامه وخَيْباته وآماله وآلامه. واستطاع ابن مماتي أن يوظف تلك الحكايات التي تبدو في ظاهرها حكايات فكاهية تتغيَّا السخرية من قراقوش؛ لاتخاذها تكأة يوجه من خلالها سهام نقده إلىٰ الحكم الأيوبي، مبرزًا ما كان فيه من مفاسد باستخدام الرمز[4].

ويمكن القول: إن حكايات «الفاشوش» تمثل نوعًا من القصص المشهدي يقع في منطقة وسطىٰ بين التاريخ والأدب الشعبي، استرفد تقنيات النادرة والنُّكْتة من وحدة البطل والقصر والتركيز، وتعدد الحكايات التي نسجت حول بطل واحد ليخلق شكلًا قصصيًّا جديدًا، الأمر الذي يجعله قريبًا من الفكرة المسيطرة

---

(1) تكررت أربع مرات.

(2) محمد عبد الرزاق أحمد المكي: السرد المشهدي في كتاب الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش لابن مماتي (المؤتمر الدولي الثامن للدراسات السردية: السرد العربي حاضره ومستقبله، منشورات الجمعية المصرية للدراسات السردية، الإسكندرية، ٢٠١٦م)، ص٣٤٠.

(3) قاسم عبده قاسم: بين الأدب والتاريخ (عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٧م)، ص ٣٣.

(4) محمد عبد الرزاق أحمد المكي: السرد المشهدي في كتاب الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش لابن مماتي، مرجع سابق، ص٣٦٢.

علىٰ الفنون النثرية بوجه عامٍ، وهي فكرة البنوة والابتداع، وتعني أن النص الأدبي في رحلته التي يقطعها للانضواء تحت شكل بعينه ينطلق من البنوة، أي استرفاد العناصر الموروثة من أشكال سبقته إلىٰ الابتداع الذي يوظف فيه تلك العناصر الموروثة لخلْق شكل فني جديد ينماز به عن تلك الأشكال الموروثة[1].

---

(1) المرجع السابق، ص٣٣٥.

ما كتب حول شخصية "قراقوش" وحول "الفاشوش" ومؤلِّفه

هناك شخصيات يجب أن يتوقف عندها التاريخ يبعث فيها الحياة ويكشف نقاء سرائرها، حتىٰ تظل نابضة في ذاكرة الزمان، وهناك شخصيات يجب أن يقف لها التاريخ بالمرصاد؛ ليكشف مساوئها وزَيْف بواطنها حتىٰ يهوي نجمُها ويخبو ذكْرُها، وبطل الكتاب شخصية متوارية بين صفحات التاريخ أعاد إحياء سيرته عدد لا بأس به من المؤلَّفات والبحوث التي تحلقت حول شخصية الأمير بهاء الدين قراقوش، وحول كتاب (الفاشوش) ومؤلِّفه الوزير الأسعد بن مَمَّاتي، نسرد أبرزها فيما يلي مرتبة علىٰ حروف المعجم.

- الأمير بهاء الدين قراقوش ودوره في تثبيت أركان صلاح الدين، غسان محمود وشاح، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، جامعة بغداد (٥٢١-٥٥٥).
- الأمير قراقوش في ميزان الحقيقة، كارين صادر، مجلة المعرفة، العدد (٥٢٢)، ٢٠٠٧.
- بهاء الدين قراقوش الوزير المفترىٰ عليه، عفاف سيد صبرة، مجلة الدارة، المجلد ١٣، العدد (٢)، الرياض ١٩٨٧.
- حكم قراقوش، أحمد خليل الشال، الدار الذهبية، القاهرة ٢٠٠٠.
- قراقوش، بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت ١٩٩٠.
- قراقوش عبقرية ظلمها التاريخ، محسن خضر، مجلة الخفجي، السعودية، العدد (٥)، ١٩٨٩.

- قراقوش المفترئ عليه، محمد مصطفئ الهلالي، مجلة الدوحة، العدد (٤٢).
- اللوذعي الألمعي بهاء الدين قراقوش، أشرف صالح محمد سيد، دار ناشرون للنشر الإلكتروني، ٢٠٠٩.
- الفاشوش في حكم قراقوش، كامل زهيري، مجلة الهلال، القاهرة ١٩٦٦.
- الفاشوش في حكم قراقوش، الدوافع والأغراض، رياض حسن، مجلة كلية الآداب - جامعة واسط، ٢٠٠١.
- الفاشوش في حكم قراقوش، لابن مَمَّاتي، عبد اللطيف حمزة، كتاب اليوم، أخبار اليوم، القاهرة، (د.ت).
- ابن مَمَّاتي المصري: سيرته وكتابه الفاشوش في حكم قراقوش، إيناس عماد عبد المنعم، الجامعة المستنصرية - بغداد، كلية الآداب، قسم التاريخ.
- ابن مَمَّاتي وكتابه قوانين الدواوين، عبد الحسين رياض، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة بغداد، ١٩٩٧.
- رجل النوادر بين الحقيقة والأسطورة: لطفي عثمان ملحس (وزارة التربية والتعليم، إدارة التخطيط والبحث التربوي، مج ١١، ع ٣، الأردن، ١٩٦٨م).
- السرد المشهدي في كتاب الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش لابن مماتي: محمد عبد الرازق أحمد المكي (أعمال المؤتمر الدولي الثامن للدراسات السردية: السرد العربي حاضره ومستقبله، الجمعية المصرية للدراسات السردية، مكتبة الإسكندرية ٢٠١٦م).
- عبقرية ظلمها التاريخ: قراقوش النمر الأسود والمهندس الإسلامي الكبير: محسن محمود خضر (الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاوف والشئون الإسلامية س٢٥، ع٢٩٦، الكويت ١٩٨٩م).
- قراقوش أمير ظلمه التاريخ: عبد اللطيف الأرناؤوط (مجلة دوائر الإبداع، جامعة دمشق، ع٩، دمشق ٢٠١٧م).
- قراقوش الأمير المظلوم: صالح محمد الجاسر (رسالة المعاهد العلمية، معهد الرياض العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود، ع ١٩، الرياض ١٩٩٦م).

- قراقوش والفكاهة في حياة المصريين: محمد أمين فرشوخ (تاريخ العرب والعالم، دار النشر العربية للدراسات والتوثيق، مج٥، ع ٥٦، بيروت ١٩٨٣م).
- المظلومون في التاريخ: شاكر مصطفى (وزارة التربية والتعليم والشباب، إدارة العلاقات العامة والإعلام التربوي، ع٢٢، الإمارات ١٩٨٢م).



البطل الحقيقي "ابن مَمَّاتي"

لم يكن الرمز عنده معنىً أو قيمة مستقلة، ولكنه طريقة فنية لإكساب الحكايات معنًى لا ينتهي، وقيمة تعلو عن الشك والإنكار. كان الرمز عنده طريقة للرؤية ووَمْضة تَبصُّر وفهْمٍ، إنه «ابن مَمَّاتي»[1] الذي يُنسب إليه تأليف كتاب «الفاشوش في حكم قراقوش»[2]؛ لكن العديد ممن دافعوا عن قراقوشَ وجَّهوا لابن مَمَّاتي تهمة المؤامرة عليه، وعدُّوه مغرضًا وموتورًا وجاهلًا، بل وأجهل الجاهلين!

طاردوا حكاياتِه وكأنها شيطان لا يطيق قرآن المؤمنين، تحيّزوا لقراقوش ووصفوه بأنه من الذين جار عليهم التاريخ وظلمهم، وقد حان الوقت لبراءة ساحته؛ وتصدىٰ «أحمد الشال» متطوعًا، و«لملم أوراقه وأجمع أقلامه ليظهر حق مظلوم ظلمه قومه وأنكروا فضله!»؛ معللًا ذلك - علىٰ حد قوله - بأنه: «عاون سلطانه صلاح الدين في إسقاط الدولة الشيعية [...][3] الفاطمية... وهو

---

[1] القاضي أبو المكارم أسعد بن الخطير أبو سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح مَمَّاتي: كاتب وشاعر مصري من مدينة أسيوط، كان مسيحيًّا وأسلم عند ابتداء الدولة الناصرية الصالحية هو وجماعته علىٰ يد السلطان صلاح الدين، وتنقل في المناصب فتولىٰ نظر الدواوين بالديار المصرية؛ حتىٰ صار ناظر ديوان الجيش، ثم ناظرًا للدواوين.
ترجمته في: الخريدة (قسم مصر) ١/١٠٠، ومعجم الأدباء ٢/٦٣٥-٦٤٥؛ وإنباه الرواة ١/٢٣١؛ والذيل علىٰ الروضتين ١٤٨؛ وبغية الطلب ٣/٢٨؛ ووَفَيات الأعيان ١/٢١٠؛ والوافي بالوَفَيات ٩/١٩؛ والبداية والنهاية ١٣/٥٣؛ والجواهر المضية للقرشي ١/٤٤٤؛ والمقفىٰ الكبير ٢/٨٣؛ والنجوم الزاهرة ٦/١٧٨، والضوء اللامع ٩/١٤، وحسن المحاضرة ١/٣٢٥، وشذرات الذهب ٥/٢٠؛ وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤/٣٠٣؛ ومعجم التراث التاريخ ١/٦٤٢.

[2] ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٢/٦٤٢؛ المقريزي، الخطط ٣/٢٦٩.

[3] مكان النقاط كلمة بذيئة جانب كاتبها الصواب كباحث متجرد منصف ينأىٰ بنفسه عن القراءة الثأرية للتاريخ، كما لم يميز بين العُبيديين والفاطميين كما فعل المؤرخ لسان الدين ابن الخطيب

الذي دافع عن هذا البلد ضد الأعداء في الداخل والخارج؛ العبيديين الشيعة والصليبيين»[1].

إن ما يلفت النظر هو أن الكُتَّاب قديمًا وحديثًا أنكروا علىٰ الأسعد بن مَمَّاتي ما جاء في كتاب «الفاشوش» عن قراقوش، معلِّلين ذلك بأنه «ذكر فيه أشياء يبعد وقوعها من مثله؛ لأن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، مع حسن تدبيره وسداد رأيه، كان يعتمد عليه في المهمات الجليلة والمناصب العالية، وثوقًا بمعرفته وكفايته»[2]. وكذلك قال ابن خَلِّكان[3] في وفَيات أعيانه.

وحديثًا في القرن العشرين نجد عبد اللطيف حمزة، وجمال بدوي[4]، ومحمد مصطفىٰ الهلالي، وصالح محمد الجاسر، وعفاف صبرة[5]، وغيرهم، قد وصفوه بأنه «قراقوش المظلوم حيًّا وميتًا» أو «قراقوش المفتري عليه»، ورأوا أنه تعرض لتشويه تعمَّد نقله من قائمة المحاربين والمهتمِّين بالعمارة إلىٰ قائمة الحمقىٰ والمغفَّلين والطُّغاة، وراح العديد منهم يدافع بحماسة زائدة عن قراقوش[6]، ويشكِّك بعضهم في وجود الشاعر ابن مَمَّاتي من الأساس.

حين حرص علىٰ التمييز بين الخلفاء الذين حكموا في بلاد المغرب والخلفاء الذين حكموا بمصر، فسمىٰ الأوائل بـ«العبيديين»؛ نسبة إلىٰ مؤسس الدولة «عبيد الله المهدي»، وسمىٰ الآخرين بـ «الفاطميين». انظر: علىٰ سبيل المثال، ابن الخطيب الغرناطي، لسان الدين (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء - ١٩٦٤م، ق٣ (القسم الخاص بتاريخ صقلية والمغرب)، ص٤٦؛ وأحمد خليل الشال، حكم قراقوش (الدار الذهبية، القاهرة ٢٠٠٠م)؛ ومحمد مصطفىٰ الهلالي، قراقوش المفترىٰ عليه (مجلة الدوحة، عدد ٤٢).

[1] أحمد خليل الشال، حكم قراقوش، ص٦.

[2] نهاية الأرب ٢٩/٣٠، ٣١.

[3] ابن خلكان، وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٩٢/٤.

[4] عبد اللطيف حمزة، الفاشوش في حكم قراقوش لابن مَمَّاتي (كتاب اليوم، مطابع أخبار اليوم، القاهرة د.ت)؛ ومحمد الفيل، الثقافة المصرية بين الرسمية والشعبية ٢٠٦/١.

[5] عفاف سيد صبرة، بهاء الدين قراقوش الوزير المفترىٰ عليه (مجلة الدارة، مج ١٣، عدد (٢)، الرياض ١٩٨٧م).

[6] تنبه لهذا د. شوقي ضيف وذم ما نحاه الذين تناولوا الكتاب بتبرئة قراقوش من كل عيب، والهجوم علىٰ ابن مَمَّاتي (انظر: شوقي ضيف، في الشعر والفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص٩٦.

ومَمَّـاتي، بفـتح الميمـيْن، والثانيـة منهمـا مشـدَّدة وبعـد الألِـف مثنـاة فوقيـة مكسورة، وبعدها مثناة تحتية: لقب أبي مَليح المذكور، وكان نصرانيًّا. وإنما قيل له: «مَمَّاتي»؛ لأنه لما وقع بمصر غلاء عظيم كان كثير الصدقة والإطعام، ولا سيما للصغار من المسلمين، فكانوا إذا رأوه نادوه: «مَمَّاتي»، فاشتهر بذلك[1].

لكـن الحقيقـة هـي أن ابـن مَمَّـاتي كـان نموذجًـا لأحـد المثقفين الـذين طوعـوا وعـيهم وثقـافتهم الموجـودة بالأسـاس فـي خدمـة الجماعـة المصـرية الشـعبية وتوجهاتها، وجاء قراقوش رمزًا لهذه الحكايات، وسواء شارك في صنعها أم لا؛ فلقد أنطقه الوجدان الشعبي المصري حينئذ بما يدور في خَلَده وضميره حين عزَّ القول نحو حكامه، وأغلبهم قراقوش. لذا فمن الضروري معرفة من هو ابن مَمَّاتي الذي بدأ في سرد حكايات قراقوش ورواياتها التي لم تنتهِ ولن تنتهي.

ابـن مَمَّـاتي هـو أحد أبنـاء مصـر الحقيقيـين، الـذين كـان لهـم البـاع فـي العلـم والثقافة، ناهيك عن الجرأة والشجاعة؛ فهو ابن أسرة ميسورة مرهفة، يسَّرت له تربيـة اجتماعيـة وثقافيـة واسـعة الآفـاق، أكسبته مرونـة فـي الطبـع، وعمقًـا فـي التعاطي مع الأمور، مع اعتداد شديد بالنفس.

ويبـدو أن أول مـا يلفـت النظـر فـي شخصـية ابـن مَمَّـاتي، هـو انحيـازه إلـىٰ الطبقـات الشـعبية، فقد اقتـرب مـن العامـة وتحصـن بهـم؛ إذ تعمد أن يقدم كتابـه «الفاشـوش» إلـىٰ العامـة، بمـا يحتويـه مـن نقد لاذع، وربمـا أراد ابـن مَمَّـاتي أن يكون النقد الذي في كتاب «الفاشوش» علىٰ غرار كتاب «كليلة ودمنة»، والذي يُعد واحدًا من مقروءات ابن مَمَّاتي، بل وواحدًا من الكتب التي كان لها وقع فـي نفسه، وهذا الأمر يعكسه نظمـه لكتـاب «كليلـة ودمنـة» شـعرًا، كمـا أشـارت إلـىٰ ذلـك المصـادر التاريخيـة[2]، ولمـا كـان إصـلاح مثـل ذلـك لا يـتم بمعـزل عـن الرعيـة، كتـب ابـن مَمَّـاتي كتابـه باللهجـة العاميـة الدارجـة بأسلوب يثير رغبـة القارئ من أجل أن تصل رسالته لجميع أفراد الدولة؛ إداريين ورعيـة[3]، وهـو ما نلمحه في بعض الألفاظ مثل: «وَدُّوا هذه الجارية الحبْس»، و«هاتي حلاوتنـا ونعرفك إيش تقولـي لـه»، و«روحي للأمير»، و«الحـارة بتاعِتْكـم لهـا بـاب»،

---

[1] انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢١٣/١؛ النويري: نهاية الأرب ٥٢/٢٩.

[2] رياض حسين، أسعد بن مَمَّاتي، ص٥٨.

[3] ريـاض حسين، الفاشـوش فـي حكـم قراقـوش - الـدوافع والأغـراض (مجلـة كليـة التربيـة، جامعة واسط، د.ت)، ص١٦٩.

و«روح اندفن بلا شفاعة»، مستخدمًا لغة الحياة اليومية المصرية ليسبغ علىٰ حكاياته ومشاهده قدْرًا كبيرًا من الواقعية؛ الأمر الذي منحها قدرة أكبر علىٰ التأثير في المتلقي، وجَعْله مشاركًا في صنع الأحداث التي تتم أمامه وكأنه يشاهد مشهدًا حقيقيًّا دون أن تقف اللغة عائقًا أمامه[(١)].

جدير بالذكر أن ابن مَمَّاتي «لم يصنعه بالشعر - وكان شاعرًا ممتازًا - وإنما بَلَّغهُ وصنعهُ بهذه النوادر الشعبية التي اختار لها لغة المصريين الدارجة، وكأنه يريد أن يطابق بين ما يرويه، وبين اللغة الحقيقية التي كانت تدور بين قراقوش، ومن حكم بينهم من الناس»[(٢)].

وهذا الانحياز الشعبي قد تجلىٰ أيضًا في أسلوبه وسلوكه اليومي الذي تعلمه منذ طفولته في بيت آبائه، فسبب تسمية جدِّه «أبي المليح» بلقب «**مَمَّاتي**»، أن الأطفال الصغار كانوا يلتفون حوله في تجواله كالباقة، يحيطون به وينادونه كما ينادون أمهاتهم، هاتفين به: «مَمَّاتي، مَمَّاتي»، خاصة بعد وقوع غلاء مصر في أيام المستنصر[(٣)]، ولم يجد الناس ما يأكلونه، بينما كان الرجل غنيًّا عنده أقوات يجود بها علىٰ الفقراء واليتامىٰ، وكان كثير العطف علىٰ أبناء الدروب والحارات والذين يسميهم الجبرتي «العامة»، وخصوصًا الأطفال منهم، فأحبَّه الأهالي، وتناقلوا أخباره، وحفظوا أشعاره، وكان كريمًا قد مدحه الشعراء، اتصل بالعماد الأصبهاني (ت ٥٩٨هـ)، وقرَّبه القاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ)، وأطلق عليه اسم «بلبل المجلس»؛ لما رأىٰ من حسن خطابه[(٤)]، وكذلك مدحه ابن خلكان[(٥)]، وأفضل من ترجم له كان ياقوت الحموي في «إرشاد الأريب»[(٦)].

---

(١) محمد المكي: السرد المشهدي، ص ٣٦٧.
(٢) محمد رجب النجار، جحا، ص٥٧.
(٣) المقريزي، الخطط ٢٨٤/٣.
(٤) المقريزي، الخطط ٢٨٣/٣.
(٥) ابن خلكان، وَفَيات الأعيان ٢١٣/١.
(٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٦٣٦/٢.

أما أبوه الذي كان من كبار الموظفين في نهاية الدولة الفاطمية وأوائل الدولة الأيوبية، فقد تحول من المسيحية إلىٰ الإسلام؛ ليترقىٰ في وظيفته، ونال حظوته في ظل حكم الأيوبيين[1]، ومن الوظائف التي أسندت إليه مباشرة «ديوان الجيش الصالحي»[2]، وسواء كانت حالات اعتناق الإسلام في هذه الفترة ظاهرية تمامًا أم لا - وهو أمر يصعب القَطْع به - يجب أن نلحظ أن ابن مَمَّاتي الابن صاحب «الفاشوش»، والذي عمل في وظائف الدولة العليا أيضًا، قد درس علىٰ يدي السِّلَفي[3]. ومرة أخرىٰ يمكن أن يكون هذا لأسباب عملية خالصة، فقد كانت معرفة الشريعة من الأمور الضرورية للعمل في الدواوين[4].

علىٰ أية حال فإن «ابن مَمَّاتي» الكاتب والمثقف صاحب كتاب «الفاشوش»، له تصانيف كثيرة أخرىٰ، فمن ذلك كتاب «تلقين اليقين» في الفقه، وكتاب سرّ الشعر، وكتاب علم النثر، وكتاب «الشيء بالشيء يذكر»، الذي عرضه علىٰ القاضي الفاضل فسمَّاه «سلاسل الذهب» لأخذ بعضه بشعب بعض. وكتاب تهذيب الأفعال لابن طريف. وكتاب قرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج[5]،

---

[1] عبد الرحمٰن عزام، صلاح الدين، ص١٥٦.

[2] المقريزي، الخطط ٢٨٤/٣.

[3] الحافظ أبو طاهر أحمد ابن محمد السلفي، رحل في طلب العلم، ولقي أعيان المشايخ، وكان شافعي المذهب، ورد بغداد واشتغل بها، وجاب البلاد، وطاف الآفاق، ودخل الإسكندرية سنة إحدىٰ عشرة وخمسمائة، واستوطن بها إلىٰ أن مات، ينشر العلم ويحصل الكتب التي قل ما اجتمع لعالم مثلها في الدنيا، فلم يكن في آخر عمره في عصره مثله، وقد بني له العادل أبو الحسن بن السَّلَّار وزير الظافر العبيدي صاحب مصر في سنة ست وأربعين وخمسمائة مدرسه بالثغر المذكور وفوضها إليه، وهي معروفة به إلىٰ الآن. قصده الناس من الأماكن البعيدة، ولا سيما لما زالت الدولة الفاطمية عن إقليم مصر وتملكها عسكر الشام، فارتحل إليه السلطان صلاح الدين وإخوته وأمراؤه، فسمعوا منه. انظر: جلال الدين السيوطي، قطوف الأدب من مسامرات العرب، تحقيق محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، ط١، ١٩٨٨، ص٣٥٠؛ وانظر أيضًا: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، (مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١م)، ٢٤/٢١-١٧.

[4] عبد الرحمٰن عزام، صلاح الدين، ص١٥٧.

[5] كان علم الدين ابن الحجاج شريكه في ديوان الجيش، وكان بينهما ما يكون بين المتماثلين في العمل، فعمل فيه الكتاب المتقدم ذكره، وهو الأمر الذي يقوي نسبة «الفاشوش» إلىٰ ابن مَمَّاتي، حيث تظهر الطبيعة الساخرة له. انظر: ياقوت الحلبي، معجم الأدباء، (ط٣، دار الفكر، بيروت - ١٣٠٠هـ/١٩٨٠م) ٦٤٢/٢.

وغيرها من الكتب[1] وعرف عنه أن له نوادر حسنة حادّة وأيضًا له نقد ساخر ولاذع لموظفي الدولة والمقربين من السلطان[2]، ومنهم قراقوش.

ومن هنا تتضح علاقة ابن مَمَّاتي بـ«الفاشوش»؛ فالمرجح أنه قد هاله ما يقوم به «قراقوش» الذي «اتسم حكمه بالصرامة والشدة إلىٰ حد غير إنساني»[3] والقساوة في تعاطيه معه ومع سواه؛ إذ عرفه ابن مَمَّاتي بحكم وظائفه وعمله اليومي في الديوان، والواضح أنه التقي به مرات عدة، ولعله اصطدم معه بسبب خلاف سياسي حاد[4]، فجاهر بعدائه، وبموقفه من حكمه، وبما يقوم به، فلما طورد وحاولوا القبض عليه، فر هاربًا من مصر إلىٰ مدينة حلب[5]، والتحق بالملك الظاهر[6]، وتوفي في حلب عام ٦٠٦هـ وعمره اثنتان وستون سنة[7].

---

(1) أشار إليها ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٦٤١/٢ مثل، كتاب «ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار»؛ وسيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ وأخاير الذخائر؛ وكرم النجار في حفظ الجار، عمله للملك الظاهر لما قدم عليه؛ وترجمان الجمان؛ ومذاهب المواهب؛ وباعث الجَلَد عند حادث الولد؛ والحضّ علىٰ الرضا بالحظ؛ وزواهر السدف وجواهر الصدف؛ وقرص العتاب؛ ودرّة التاج؛ وميسور النقد؛ والمنحل؛ وأعلام النصر؛ وخصائص المعرفة في المعمّيات، ويسمىٰ (روائع الوقائع).

(2) مثل السديد بن المنذر وهو رجل فقيه اتصل بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعض الاتصال، وصفه ابن مَمَّاتي بقوله: «هو أقرع أصلع أعور يسمع بلا أذن، يدخل المداخل الرديئة بحدّة واجتهاد ويرجع منكسرًا». ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٦٤٢/٢.

(3) محمد رجب النجار، جحا العربي (سلسلة عالم المعرفة عدد أكتوبر، الكويت ١٩٧٨م)، ص٥٦.

(4) عندما مات الملك العزيز وأوصىٰ بالمُلْك لابنه المنصور، وكان في التاسعة من عمره، فأوصىٰ أبوه بأن يكون الأتابك قراقوش وصيًّا علىٰ الملك إلىٰ أن يبلغ ولي العهد سنّ الرشد لثقته الشديدة بحكمته وإخلاصه، غير أن هذا لم يُرض كل الأمراء، ووقع خلاف بين كبار رجال الدولة، وطعن بعضهم به، ومنهم ابن مَمَّاتي صاحب كتاب «الفاشوش في أحكام قراقوش»؛ إذ ادَّعوا أنه قد أسنّ وأصبح مضطرب الرأي، ضيق العطن ولا يصلح لهذا الأمر، ودعوا الملك الأفضل إلىٰ الاستيلاء علىٰ مصر، وتعصب بعضهم معه، واتسع الخلاف الذي انتهىٰ باستيلاء الأفضل علىٰ أمر مصر كله، ولم يبق للمنصور غير الاسم فقط (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٥٨/١ - الخطط ١٦١/٣؛ وابن خلكان، وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٩٢/٤؛ وأبو المحاسن ابن تغري بردي، مورد اللطافة في مَن ولي السلطنة والخلافة ٤٩/٢؛ والعصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت١٠٤٩هـ/١٦٣٩م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، مصر، ١٣٨٠هـ، ٧٨/٩؛ وانظر: كارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٤).

(5) ابن خلكان، وَفَيات الأعيان ٢١٢/١.

(6) النويري، نهاية الأرب ٥١/٢٩.

(7) النويري، المصدر السابق ٥٢/٢٩.

وفي ظل هذا الجو من الصراع علىٰ السلطة، سواء بانتقال الحكم من الفاطميين إلىٰ الأيوبيين، أو بما كان بين أبناء البيت الأيوبي ذاته، وبما صاحَب ذلك من معاناة لطبقات الشعب المختلفة، ومآسٍ قاسية في هذه الفترات المضطربه؛ نمت شخصية قراقوش في المخيال الشعبي وفي خلفيتها بطلها الحقيقي، شخصية ابن مَمَّاتي الراوي لحكايات قراقوش، صوت ضميرها الحي، الناقم الساخر.

لقد عاشت حكايات ابن مَمَّاتي لعصور طويلة، ليس بسبب نقده للسلطة الغشوم وتحليله لسخفها وبطشها بالناس فقط؛ ولكن لسببين: الأول أنه نقد مجتمعًا كاملًا بكل أطيافه حاكمين ومحكومين. والثاني؛ لأن هذا النقد اللاذع والساخر كان له بالحقيقة صِلات وثيقة، استمرت علىٰ مدي قرون، وهذا ما جعل منه نموذجًا بكل معنىٰ الكلمة للبطل الشعبي الأسطوري الذي لا يموت بل يظهر في كل عصر، في وجه قراقوش في «الفاشوش» قائلًا له: «لأذهبن بكبرك وتِيهك»[1].

وهو من جهة أخرىٰ يربِت علىٰ كتف الناس، باعثًا فيهم الابتسامة والسخرية، علَّهم ينسون عسف هذه السلطة الظالمة وجورها، أو يصرخ فيهم ويهجوهم تارة أخرىٰ، عسىٰ يكسرون من أيديهم تلك الأغلال التي لا تكبِّلهم إلا برضاهم.

هل نبالغ في هذا؟ بالقطع لا؛ فالوجدان الشعبي المصري استخدم نوادر الحمقىٰ «لتصبح ذات وظيفة سياسية، غايتها النقد السياسي، والنيل - معنويًّا - من الحكام والولاة الذين تبدلوا علىٰ مصر، واتسم حكمهم بقدر كبير من الجور الاجتماعي أو البطش السياسي، وذلك عندما خلع عليهم المصريون خُلَّة الحماقة التي يتسم بها البُلهاء والحمقىٰ من خلال ما نسب إليهم من نوادر تستثير السخرية من حماقة هؤلاء الحكام والرثاء لعقولهم، بهدف النيل من أنظمتهم وقوانينهم وأحكامهم الجائرة[2]، التي لم يستطيعوا السكوت عنها.

لذا سوف نرىٰ كيف يقدم لنا ابن مَمَّاتي الراوي لحكايات «الفاشوش» عصرًا كاملًا سيطرت فيه القوة علىٰ العقل في مناصب الحكم، والولاء علىٰ الكفاءة، والتقليد علىٰ الاجتهاد، والمصلحة علىٰ العدالة، والمذهبية المقيتة علىٰ السماحة؛ وقد قال عن الرمز القراقوشي: «إِنَّنِي لَمَّا رَأَيْتُ عَقْلَ بَهَاءِ الدِّينِ قَرَاقُوشَ مِحْزَمَةَ فَاشُوش، قَدْ أَتْلَفَ الأُمَّةَ، فَاللهُ يَمْحُ عَنْهُمْ كُلَّ غُمَّةٍ، لَا يَقْتَدِي بِعَالِمٍ، ولَا يَعْرِفُ

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ف.ش.أ)، المجلد الخامس، ص٣٤١٦.

(2) محمد رجب النجار، جحا، ص٥٥.

المظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ، وكَمْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الجُنَّةِ، والشَّكِيَّةُ عِنْدَهُ لِمَنْ سَبَق، ولَا يَهْتَدِي لِمَنْ صَدَق، ولَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْ عِظَمِ مَنْزِلَتِهِ عَلَىٰ أَنْ يَرُدَّ كَلِمَتَه، ويَشْتَطُّ اشْتِيَاطَ الشَّيْطَان، ويَحْكُمُ حُكْمًا مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِ مِنْ سُلْطَان؛ فَصَنَّفْتُ هَذَا الكِتَابَ لِصَلَاحِ الدِّين؛ عَسَىٰ أَنْ يُرِيحَ مِنْهُ المُسْلِمِين»[١].

وعلىٰ الرغم من أن ابن مماتي في النص السابق يصرح بأنه أهدىٰ هذا الكتاب إلىٰ صلاح الدين؛ فإن الحقيقة خلاف ذلك، فما كان صلاح الدين ليقبل الطعن في وزيره محلِّ الثقة عنده، والاستهزاء به والسخرية منه علىٰ هذا النحو، وإنما كتب ابن مماتي كتابه ووجّهه إلىٰ عامة المصريين؛ بغية التشنيع علىٰ قراقوش والحطِّ منه، واتخاذ تكأة للهجوم علىٰ الدولة الأيوبية، بل علىٰ صلاح الدين ذاته، ولو أنه وجهه لصلاح الدين لكتبه بلغة فصيحة جَزْلة كتلك التي كتب بها كتابه «قوانين الدواوين»، لكنه تعمد أن يكتبه بالعامية المصرية التي يفهمها أولئك العامة من المصريين الذين وجّه إليهم الكتاب؛ حتىٰ يبلغ الكتاب محلَّه وغايته بالتأثير فيهم والتشنيع علىٰ قراقوش؛ لاتخاذه تكأة لتأليبهم علىٰ الحكم الأيوبي الذي ترنَّح وضلَّ الطريق في اختيار رجاله[٢].

فقد فزع ابن مَمَّاتي فزعًا شديدًا من سلوك هؤلاء الجنود الجُدد وما يفعلوه بحرية مطلقة، ومعهم هؤلاء المماليك من الخصيان، فقد عاش وحضر أيضًا، وشاهد مع الجماعة الشعبية ما يقوم به آل أيوب لإزالة أي أثر للفاطميين في بَرِّ مصر، كمصادرة أملاكهم وقصورهم وأراضيهم، ومحو آثارهم، ومآثرهم علىٰ وجه الخصوص، وكان هو في الديوان يسجل في أوراق هذا الديوان المسمىٰ بـ«ديوان الإنشاء»[٣] المطاردة القاسية لأهل الأسرة الفاطمية، وما حدث معهم عند أرض قوص[٤]، وما سطو عليه من ثرواتهم.

---

[١] انظر: حكايات الفاشوش في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٥.

[٢] محمد المكي: السرد المشهدي، ص ٣٦٥.

[٣] ديوان الإنشاء، هو ديوان الرسائل وعرف في مصر أيام الفاطميين باسم «ديوان الإنشاء»، ومتولي أمر هذا الديوان يسمىٰ بـ«كاتب الدست»، ومهمة هذا الديوان كتابة كل ما تحتاج إليه أمور الدولة من عهود ومراسيم وتولية وعزل. للمزيد ينظر: قدامة بن جعفر، أبو الفرج بن قدامة بن زياد الكاتب البغدادي (ت٣٣٧هـ/٩٤٨م)، الخراج وصناعة الكتابة، (تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١)، ص٣٧؛ والخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الكاتب (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م)، مفاتيح العلوم، ط١، (المطبعة المنيرية، القاهرة ١٩٧٢م)، ص٧٨.

[٤] النويري، نهاية الأرب، ١٠٩/٢٦؛ وأبو شامة، الروضتين، ١٨٤/١.

هذا التضييق الذي تعرض له الفاطميون علىٰ يد السلطة الأيوبية، ونال مختلفَ طبقات الشعب المصري نصيبٌ منه؛ دافعًا لابن مَمَّاتي أن يردد بعضًا منه في حكاياته، لنلمس صداه في الحِكَايَة (التَّاسِعَة عَشْرَة) التي نلمح فيها كيف كان أكل الحقوق ومصادرة البيوت قد شاع حين يقول:

«فَقَالَ لِلصَّبِيِّ: هَلْ مَعَكَ كِتَابٌ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّ الدَّارَ حَقُّكَ دُونَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقَالَ: لَا؛ لأَنَّهَا دَارُ أَبِي، وأَنَا مَوْلُودٌ فيهَا، ومَاتَ أَبِي وتَرَكَهَا لَنَا. فَقَالَ: إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَكَ كِتَابٌ يَشْهَدُ لَكَ بِهَا، فَهِيَ لِلشَّيْخِ الكَبِيرِ، فَإِذَا صَارَ عُمْرُكَ مِثْلَ عُمْرِ هَذَا الرَّجُلِ الكَبيرِ؛ نَدْفَعُ لَكَ الدَّارَ»[1].

وفي الحكاية إسقاط واضح علىٰ نشاط أجهزة الحكم في المصادرات للقصور والبيوت دون سند شرعي[2]، وقد أشار إليه المقريزي في خططه بقوله: «وأخلىٰ القصور من سكانها، وأغلق أبوابها، ثم ملَّكها أمراءه، وضرب الألواح علىٰ ما كان للخلفاء وأتباعهم من الدُّور والرِّباع، وأقطع خواصه منها، وباع بعضها. ثم قسم القصور، فأعطىٰ القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه، وأسكن أباه نجم الدين أيوب[3] بن شاذي في قصر اللؤلؤة علىٰ

---

[1] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٤، ١٦٥.

[2] المصادرات في الدولة الأيوبية هي واحدة من الموارد الاستثنائية فيها، وتعد من الموارد غير الشرعية؛ إذ شملت المصادرات في عهد صلاح الدين مجموعة القصور الفاطمية التي كانت تضم الدنانير والدراهم والجواهر والقماش والسلاح وغيره. كما شملت مكتبة القصر الفاطمي. مضافًا إليها ممتلكات الأمراء والأعيان الفاطميين. وفي زمن السلطان العزيز عثمان صودرت ممتلكات جماعة من الأغنياء، وبلغت قيمة ما صودر منهم ١٠٠٠ دينار، وذلك سنة (٥٩٤هـ/١١٩٧م). ولم تكن المصادرة شيئًا أُدخل علىٰ نظام الإدارة المالية إبان العصر الأيوبي فقد وجدت منذ (القرن الأول الهجري/السابع الميلادي)، وقد شكلت موردًا من موارد بيت المال. انظر: ربيع، حسنين محمد، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، (مطبعة جامعة القاهرة، مصر، ١٩٦٤)، ص٥٣؛ وصالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري (بغداد، ١٩٥٣)، ص١٢٤.

[3] نجم الدين أيوب الكردي الأصل من قبيلة الهذبانية، أسندت له حراسة قلعة تكريت عدة سنين، كانت له علاقة طيبة مع عماد الدين زنكي، رحل نجم الدين عن تكريت سنة (٥٣٢هـ/١١٢٧م) إلىٰ الموصل، حيث أسند إليه حكم بعلبك باسم الزنكيين، وهو والد صلاح الدين. ينظر: أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مطبعة لجنة

الخليج[1]، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب إلىٰ الدولة الفاطمية، فكان الرجل إذا استحسن دارًا أخرج منها سكانها، ونزل بها»[2].

أما في الحكاية (السادسة عشرة)[3] «اللص والقماش»، نرىٰ ابن مَمَّاتي الرَّاوي يفضح قراقوش، ويظهره ليس لصًّا فحسب، بل متعاطفًا مع كل اللصوص الغرباء أمثاله، الذين جاءوا إلىٰ البلد ونهبوا من خيراتها، ولا قضاء أو حكم يستطيع أن يضبطهم، بل يعيثون فسادًا تحت حمايته ورعايته؛ إذ يقول: «مَا لَكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَىٰ هَذَا الغَرِيبِ، انْفُوهُ بِمَا مَعَهُ مِنَ البِلَادِ، ولَا تَأْخُذُوا القُمَاشَ الَّذِي مَعَهُ»[4]، ثم يؤكد علىٰ ضرورة الرضا بهؤلاء اللصوص ووصفهم

التأليف والترجمة والنشر (١٩٦٥)، ٢٣٠/١؛ وابن خلكان، أبو العباس أحمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وَفَيات الأعيان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، (مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٤)، ٨٥/١؛ والمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٥٤هـ/١٣٤٣م)، السلوك في معرفة دول الملوك، تصحيح الدكتور محمد مصطفىٰ زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة، ١٩٣٤)، ٤٢/٦.

[1] في سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) بدأ صلاح الدين توزيع مصر علىٰ هيئة إقطاعات فمنح بعضها لأهل بيته والبعض الآخر وزعها بين أمرائه وقادة جيشه. فأقطع والده نجم الدين الإسكندرية ودمياط والبحيرة. وأقطع أخاه شمس الدولة تورانشاه قوص وأسوان وعيذاب. وفي السنة التالية، أي في سنة (٥٦٦هـ/١١٧١م) أضاف صلاح الدين إلىٰ إقطاع أخيه تورانشاه مدينة بوش وأعمال الجيزة وسمنود؛ إذ كان صلاح الدين بحاجة إلىٰ الأراضي الزراعية ليمنحها لرجاله؛ لسببين: مكافأة مقابل الخدمة والولاء، ومحاولة لربط الأمراء الشاميين بالبلاد وبناء رابطة بينهم وبين مصر. وبدأ صلاح الدين في تسريح الجيش الفاطمي رويدًا رويدًا بسحب الأراضي الزراعية من قادتهم، ولاقىٰ في سبيل ذلك مساندة إدارية من القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (الذي كان قد عمل في الدواوين الفاطمية أيام رزيك بن طلائع وشاور، ولما جاء شيركوه عينه رئيسًا لديوان الإنشاء بدلًا من رئيسها السابق يوسف بن الخلال، وأصبح ذراع صلاح الدين الأيمن ووزيره فيما بعد) الذي فصل ديوان الإقطاع، «حيث يتم تحديد منح الأراضي»، وجعله مستقلًا عن ديوان الجيش، ووضعه تحت إدارة صديقه الأسعد بن مماتي، صاحب كتاب «الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش»، وأيقن صلاح الدين أنه لو لم يكسر الجيش الفاطمي ويستعض عنه برجاله، فإن بقاءه سيكون محل شك. النويري، نهاية الأرب، ١٠٩/٢٦؛ وأبو شامة، الروضتين، ١٨٤/١؛ وأحمد خزعل ثامر، الإدارة في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) في مصر وبلاد الشام واليمن والجزيرة الفراتية (رسالة ماجستير - غير منشورة - كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد ٢٠٠٤م)، ص١٣٠.

[2] الخطط ٤٤٨/٢.

[3] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦١، ١٦٢.

[4] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٩، ١٦١، ١٦٢.

كأصحاب البلاد، أو هكذا يجب أن يعاملوا، «وإنْ تَابَ، يَغْفِرِ اللهُ لِمَنْ تَابَ، وأَكْرِمُوا الغَرِيب؛ يَصِير لَكُمْ ومِنْكُم قَرِيبًا»[١].

وقد صرح ابن مَمَّاتي بهذه السلبيات وغيرها من المظالم التي عانىٰ منها المصريون، في بعض أشعاره في سياق وصفه لعمليات السرقة التي يقوم بها الجهابذة[٢] عند تنظيمهم المخازيم[٣]؛ إذ يقول:

[بحر الوافر]

مخـازيمٌ تضـمنتِ المخـازي ... يجـوِّز فعلُهـا مـا لا يجـوزُ

لصوص يرفعون إلىٰ لصوص ... حسـابهم وبيـنهمُ رمـوزُ

وقد أعلن عن هذه الظواهر صراحة في كتابه «قوانين الدواوين» الذي ألفه في زمن العزيز عثمان[٤]، وكان يهدف من ورائه إلىٰ معالجة تلك الظواهر،

---

(١) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٩، ١٦١.

(٢) الجهبذ، موظف فاطمي الأصل كان يسجل في سجل يومي يسمىٰ «الروزنامج» ما يتحصله الديوان من غلات، أي هو المسئول عن حفظ ما يرد إليه من أموال ومعرفة الجهات المختلفة التي أرسلت مبالغها وكتابة وصولات تثبت ذلك، ومن مسئوليته أيضًا عمل السجلات التي تعرف باسم المخازيم، وأخرىٰ يشار لها بالختمات. وقد ظل الجهبذ زمن الأيوبيين يدون حصيلة الأموال، ويحرر الإيصالات حسب أوامر الرؤساء والمتقدمين. ينظر: الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت٣٦٦هـ/٩٧٦م)، مفاتيح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت، ص١٧؛ والمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر محمد مصطفىٰ زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (القاهرة، ١٩٤٠)، ص٢١؛ وإبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطىٰ، دار الكتاب العربي (القاهرة، ١٩٦٨)، ص٢٥٠؛ ورياض عبد الحسين، أسعد بن مَمَّاتي وكتابه قوانين الدواوين (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٩٧م)، ص١٤٩.

(٣) المخازيم: سجلات تحوي جملة من المعلومات التي تتعلق بالفلاحين وطريقة استغلال الأرض مقاسمة أو مناصفة أو مثالثة والرسوم المترتبة عليها وما صرف من بذور. ينظر: طرخان، النظم الإقطاعية، ص٢٥٠.

(٤) العزيز عثمان، هو عماد الدين أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين، حكم مصر في حياة أبيه ثم استقل بها بعد وفاته عام ٥٨٩هـ حتىٰ توفي عام ٥٩٥هـ. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/١٢٠-١٣٠.

لا سيما المتعلقة بموظفي الدولة، فقد ذكر فيه الرشوة، وقلة الكفاءة لدىٰ موظفي الإدارة، والظلم الذي كانوا يمارسونه ضد الرعية، كما فعل مسَّاح الأراضي مع الفلاحين عند استخدامهم طرقًا حسابية غير منطقية، قوامها سرقة الفلاح، فضلًا عن ابتزاز مؤجِّري مراكب الدولة من الرعية من قبل الموظفين المسئولين عن تأجير تلك المراكب، والإجراءات غير القانونية التي كان يمارسها موظفون آخرون عند تحريرهم لمعاملات الناس المتعلقة بتأجير الأراضي الزراعية بالشكل الذي يخالف ما هو متَّبَع رسميًّا، فضلًا عن سوء تصرف بعض الموظفين بأموال الدولة، وإهمالهم لمواردها وسوء إدارة مؤسساتها، وغير ذلك، متوخيًا من تشخيصه لتلك الظواهر أن تكون نصيحة للدولة من أجل تجاوزها[1]، وإحساس الوجدان الشعبي في صدق بواقعه، وإدراكه لبعض عيوبه، يجعله نَزَّاعًا إلىٰ الإصلاح، راغبًا في التطور، متمثلًا لكمال الممكن، والتهكم الاجتماعي، بوصفه ضربًا من السخرية حين يراد به نسبة عيب إلىٰ شخص أو تضخيم عيب في شخص، هو سبيله إلىٰ تهذيبه، وإصلاحه[2]، وذلك عن طريق تجريسه[3]، وهو نوع من العقاب الاجتماعي للمفسدين.

وهو ما نراه رد فعل طبيعي للصدمة التي منيت بها الجماعة الشعبية في طبيعة وهوية هؤلاء الحكام الجُدد، والتي كانت حافزًا لابن مَمَّاتي في أن يصرخ في وجه الناس، ويحفزهم علىٰ رفض الظلم، وعدم الرضا بهذه التجاوزات التي لا يقرها شرع ولا عرف؛ وهو ما نجده في الحكاية (الرابعة)[4]: «اجلدوا

---

(1) رياض حسين، أسعد بن مَمَّاتي، ص١١٢، ١١٣.

(2) محمد رجب النجار، جحا، ص١٢٤.

(3) التجريس، هو اشتهار الرجل في البلد علىٰ غير صورة لائقة ويسمىٰ أيضًا، التشهير والتنديد. وأصله أن يركب المذنب دابة ووجهه إلىٰ ذنبها وفي عنقه جرس، وفي العصر المملوكي كان التجريس أحد أنواع العقوبات، فكان يطاف بالشخص علىٰ حمار أو ثور ويضرب الجرس علىٰ رأسه والمشاعلية تنادي عليه ليجتمع الناس حوله، وأحيانًا تَزُفّه المغاني «يوضع في عنقه ماشة وهون». وفي نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقابًا له علىٰ ذنبه. (انظر: ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ص١٩٨؛ والقول المقتضب، ص٦٢؛ وسعد الخادم، الفن الشعبي والمعتقدات الشعبية، سلسلة الألف كتاب، العدد (٤٨٨)، ص٢٠؛ وعبود الشالجي، موسوعة العذاب، مج ٣، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ص٢١٣، ٢١٤؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١١٠).

(4) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٥.

الحمارة» حين يروي كيف يتم توقيع العقوبة علىٰ حمارة واقعها رجل «كردي»، وعندما يُسأل «وما ذنبها وهي دابة لا تتكلم ولا عقل لها، ولم يوجد في الشرع حد الحَمير» يصرخ فيهم قائلًا: «وهل وجدتم في الشرع أحدًا يجامع الحمير، خذوها لأنها لوْ لَمْ يكنْ لَها غَرضٌ لَرفَصَتْه»، وهو بذلك يعلي قيمة الرفض، رفض الشعب لظالمه الذي ينجيه من مصير الدواب، ويرفعه إلىٰ كرامة البشر، وهو خياره الوحيد، أو كما قال: «لئلا يكثر الفساد في العباد وتقل ذرية الآدميين، وتكثر ذرية الحَمير»[1]، بل يصعد ابن مَمَّاتي بالنقد إلىٰ منتهاه كما في الحكاية (السادسة): «مخلوق بلا لحية»[2]، وفي الحكاية (الثامنة عشرة): «حكم اللئام»[3] حين يقول: «إنما الحكم للغالب» أو «الكف لمن سبق»؛ ليعارض بذلك فتاوىٰ دينية[4] شرعت مبدأ «الحكم لمن غلب»[5].

هذا هو ابن مَمَّاتي الذي هاجمه بعض المؤرخين، وكأن ما قام به سُبَّة وعار ارتكبه مثقف في حق المقدَّس قراقوش، ودأب هؤلاء الذين يعملون دائمًا في خدمة أفكار ومنطق أبناء الهرم الملكي، علىٰ إثبات براءة قراقوش، وهي رؤية قاصرة ومحدودة للنموذج القراقوشي لم يستطع خلالها هؤلاء الباحثين أن يكشفوا عن القيم الأخرىٰ التي تنطوي عليها حكايات ونوادر الرمز القراقوشي

---

(1) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٥.

(2) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٧، ١٤٩.

(3) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٤.

(4) بدر الدين ابن جماعة، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، (تحقيق ودراسة فؤاد عبد المنعم أحمد، قطر، ١٩٨٥)، ص٥٥.

(5) عبارة اتخذها قراقوش مبررًا ومسوغا لحكمه وهي «إنما الحكم للغالب»؛ إذ كانت هذه القاعدة هي أساس الحكم منذ عهد بني أمية، وكأني بابن مماتي يريد أن يسخر من تلك القاعدة، ويرفض ما أسبغه عليها الحكام من فتاوىٰ دينية وظلت مسلطة علىٰ رقاب العباد والبلاد طوال حكم الأيوبيين ومن بعدهم المماليك إذ قام الحكم في دولة سلاطين المماليك علىٰ مبدأ «الحكم لمن غلب»؛ وكان أمراء المماليك العسكريون يعتقدون أن كرسي الحكم حق لهم جميعًا يفوز به أقواهم وأقدرهم علىٰ الإيقاع بالآخرين. وتسابقوا من أجل الفوز بالكرسي الذي كان الطريق إليه مفروشًا بالدم. لقد انتهت حياة معظم الذين جلسوا علىٰ كرسي الحكم في عصر سلاطين المماليك في السنوات الأخيرة من ذلك العصر بالقتل أو بالسجن، أو بالاثنين معًا. للمزيد انظر: قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، (دار عين، القاهرة ٢٠٠٩م)، ص١١٠.

بعامـة؛ ففـي الحقيقـة إن ابـن مَمَّـاتي هـو البطـل الحقيقـي لهذه الحكايـة الشـعبية، فسواء كان حقًّا نسبة الكتاب إليه أم لا، فالاختيار هو أسـاس الدلالـة، ولقد اختير هذا الرجل الذي يتمتع بكل صفات البطل الشعبي ليحمل هذه الحكاية على كتفه، فهو الراوي، وكل راوٍ يحمل من الدلالة أكثر مما يحمل من الخبر، وحتى هجوم المؤرخين عليه إرضاء لقراقوش، هو مـن قبيل تعزيز بطولتـه، فهـي تراجيديا الرجل وأسطورته الذي تتم ملاحقته حيًّا وميتًا من قِبَل قراقوش، وليبقى تـاريخ الحكاية الشعبية أصدقَ من التاريخ!.

البطل الزائف "قراقوش"[1]

هل يستطيع الإنسان أن يَسْبَح عكس التيار دون أن ينجرف إلىٰ قاع النهر؟ بطل الحكايات ترك سيرة ذاتية تمتلئ بالمفارَقات المذهِلة والمشاعر الإنسانية المتداخلة والآلام التي تنصهر وتتوحَّد في لحظة واحدة عند نهاية الطريق، فمن هو قراقوش؟.

ضن المؤرخون علىٰ قراقوش بترجمة مستقلة خاصة به، وألحقوه بترجمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، لما كان أحد مستشاريه ومساعديه المفضلين، وكُتبَ عليه أن يكون ملحقًا به وتابعًا له حيًّا وميتًا[2]، ومما قاله بعض المترجمين والمؤرخين في أصول قراقوش ونشأته أنه رومي[3]، وربما كان أصله من أرمينيا، حملته محطات حياته المتعددة ألقابًا عدة؛ فكان يدعى «ابن عبد الله»[4] بحسب العادة المتبَعة مع الأطفال الذين يولدون لأبوين غير مسلمين، وكان يدعىٰ «الصقلبي» Esclavon، وهي نسبة كانت تطلق علىٰ

---

[1] ترجمته في: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (ط. بشار) ١٨٠/٤؛ ووَفَيات الأعيان ٩١/٤-٩٢؛ والروضتين ٤٤٨/٤-٤٨٥؛ والذيل علىٰ الروضتين ٩٦؛ والدر الثمين في أسماء المصنفين ٣٠٣؛ وكنز الدرر ٥١/٧؛ وتاريخ الإسلام ١١١٨/١٢ (ط. بشار)؛ والعبر ٢٩٨/٤؛ والبداية والنهاية ٧١٢/١٦-٧١٣؛ والعسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ٢٧٠؛ والنجوم الزاهرة ١٧٦/٦-١٧٧؛ والتاريخ المعتبر في أنباء مَن غبر للعليمي ١٢١/٣؛ وكشف الظنون ١٩١٥/٢؛ وشذرات الذهب ٣٣١/٤؛ ومعجم المطبوعات العربية والمعربة ١٠٨٢/٢؛ وهدية العارفين ٢٠٥/١؛ ومعجم تيمور الكبير للألفاظ العامية ١١٦/٥؛ وتاريخ الأدب العربي ٨٧/٦؛ والأعلام ٣٠٢/١؛ وتاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ٤٣٤/٧، ٤٨٠، ٤٨١؛ ومعجم التراث التاريخ ١٦٠٣/٣.

[2] كارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٥.

[3] المقريزي، الخطط ٢٦٩/٣.

[4] المقريزي، الخطط ٦/٣.

العبيد غالبًا نسبة إلى الصقالبة، وأحيانًا كانت هذه النسبة تختلط بنسبة «الصقلي» Sicil؛ نسبة إلى صقلية[١]. وكان أيضًا يلقّب بـ«الأَسَدِي»؛ نسبة إلى أسد الدين شيركوه[٢]، فاتح مصر الذي كان يملِكه، كما أعطى نسبتي: «المَلَكي الناصري» عندما التحق بخدمة الملك الناصر صلاح الدين، وأخيرًا لقب بـ «بهاء الدين» تبعًا لعادة كبار الشخصيات في ذلك العصر[٣].

ويمكن القول: إنه وُلِد في بداية القرن السادس الهجري؛ لأنه عندما أسندت إليه ولاية عكّا عام ٥٨٥هـ، بدا للناس كبيرًا جدًّا في السنّ، وكان أحد أولئك الأطفال المسيحيين الذين كان المسلمون يسبونهم في غزواتهم عند الثغور ويلحقونهم بالخدمة في قصور أحد الأمراء[٤]، وقد أجاد المملوك الصغير أصول الفروسية وفنون الطعن بالرمح ورمي النُّشاب والمبارزة، حتى صارت له مكانة كبيرة وحظوة عند أسياده، فخلعوا عليه لقب «قراقوش»؛ لفظ تركي يعني «العُقاب»؛ ذلك الطائر المعروف - وهو أسود، أي الغراب- سمي به الإنسان[٥].

لقد نشأ قراقوش نشأة غامضة، ثم اتصل بأسد الدين شيركوه[٦]؛ وكان هو وأخوه نجم الدين أيوب يعملان في خدمة عماد الدين زنكي[٧]، ثم نور الدين

---

(١) كارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٠.

(٢) ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق سهيل زكار، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م)، ١٠٣/٤؛ وابن خلكان، وَفَيات الأعيان ٩١/٤.

(٣) عبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات (مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص٣٤٩؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٠.

(٤) بسام الجابي، قراقوش (دار ابن حزم، بيروت ١٩٩٩م)، ٢٠؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٠.

(٥) وَفَيات الأعيان ٩٢/٤؛ والمعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، حسن خلاق وعباس صباغ، دار العلم للملايين ١٩٩٩، ص٧٠.

(٦) أسد الدين شيركوه، ومعناه أسد الغابة أو أسد الجبل، وهو بن شاذي الملك المنصور أسد الدين أبو البركات، عم صلاح الدين الأيوبي، توفي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م. للمزيد ينظر: ابن خلكان، وَفَيات الأعيان ١٧٣/٢-١٧٦؛ والحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ/١٤٧١م)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، (تحقيق ناظم رشيد، سلسل كتب التراث، ٦٥، العراق، ١٩٨٧م)، ص٢٥؛ وابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة - ١٩٢٩، ١٩٧٢م)، ٣٨٦/٥.

(٧) عماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م)، هو أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله، الملقب بالملك المنصور، ويعرف بـ«أتابك زنكي»، وُلِد بحلب سنة

محمـود بن زنكي[١]، وقد لاحظ شيركوه صفات أعجبته بقراقوش فأعتقه[٢]. وفي دمشق، كان اسمه الفتىٰ الخصيُّ بهاء الدين بن عبد الله الأَسَدِي، وبعد وفاة هذا الأخير، اتصل الفتىٰ بابن أخيه صلاح الدين وصار يدعىٰ بهاء الدين بن عبد الله الناصري[٣].

وكان فيه من الصرامة والجدّ والقدرة علىٰ العمل المتواصل ما أهَّله لإحراز الرتب العسكرية الواحدة تلو الأخرىٰ، حتىٰ غدا أميرًا من أمراء الجيش الذي دخل مصر تحت إمرة أسد الدين شيركوه لتهدئه الأحوال بها، وظل في خدمته حتىٰ مات شيركوه، فتبناه القاضي الفقيه عيسىٰ الهكَّاريّ (ت٥٨٥هـ)[٤]، «ويقال له: الهكاري، الملقب ضياء الدين»[٥] (الرجل الغامض العميق)[٦]،

٤٨٠هـ/١٠٨٧م. ترقىٰ به الحال إلىٰ أن ملك الموصل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، حمل راية الجهاد ضد الصليبيين، اغتيل وهو محاصر لقلعة جعبر سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م. للمزيد ينظر: ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، (تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة - ١٩٦٣م)، ص٧٦-٧٨؛ وابن خلكان، وَفَيات الأعيان ٤٢٧/٢-٤٢٩؛ والجميلي، رشيد عبد الله، دراسات في تاريخ الخلافة العباسية، (ط١، مطبعة المعارف، الرباط - ١٩٨٤م)، ص٣١٦.

(١) نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م)، هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب الملقب الملك العادل والشهيد، وُلِد سنة ٥١١هـ/١١١٧م، كان ملكًا عادلًا زاهدًا عابدًا، توفي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م. للمزيد ينظر: سبط ابن الجوزي، أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي التركي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، (ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن - ١٩٥١م)، ج٨ - ق١، ص٣٠٥؛ وابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، (تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة - ١٩٦٣م)، ص١٦١؛ والكامل في التاريخ، ١٢٤/٩-١٢٥.

(٢) ابن خلكان، وَفَيات الأعيان ٩١/٤.

(٣) عبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات، ص٣٤٩.

(٤) الهكاري، ضياء الدين أبو محمد عيسىٰ بن محمد بن عيسىٰ بن محمد بن أحمد بن يوسف بن القاسم ابن عيسىٰ بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ١٢٣/١، أبا شامة، عيون الروضتين، ٢٨٠، الروضتين في أخبار الدولتين، ١١٠/٤، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٨٠٥/١٢، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٢٥٥/٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ٦١١/١٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١١٠/٦، تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ق١/١٣٠.

(٥) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ٤٩٧/٣، وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٧٠/٢٣.

(٦) عبد الرحمٰن عزام، صلاح الدين الأيوبي وإعادة إحياء المذهب السني، ص١٤٠.

فصعَّده ورقَّاه، إلىٰ أن صار واحدًا من أقرب مستشاري صلاح الدين، فشهد انهيار الدولة الفاطمية[1]، وكان له يد في قيام الدولة الأيوبية في مصر[2]. ففي عام ٥٦٤هـ، تولىٰ صلاح الدين الوزارة خلفًا لأسد الدين شيركوه[3] الذي توفي بعد شهرين من تسلُّمه هذا المنصب، فاضطرب رجال القصر الفاطمي من وزارة صلاح الدين الجديدة وخافوا علىٰ الحكم الفاطمي من الزوال، فدبرت المؤامرات داخل القصر الفاطمي وخارجه، فتنبه لها صلاح الدين وتصدَّىٰ لها

---

(1) الدولة الفاطمية التي قامت في بلاد المغرب علىٰ أكتاف المغاربة من بربر كتامة وصنهاجة في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ثم انتقلت إلىٰ مصر بعد منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، واستطاعت أن تمد نفوذها من مصر إلىٰ بلاد الشام وتنازع الخلافة العباسية، إلىٰ أن سقطت هذه الدولة علىٰ يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، ولم تستمر الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب (٢٩٧-٣٥٨هـ/٩٠٩-٩٦٨م) أكثر من خمسة وستين سنة، بينما عاشت في مصر أكثر من مئتي سنة (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٨-١١٧١م)، أي إن الجزء الأكبر من عمرها كان في مصر؛ لذا اقترن اسمها دائمًا بأرض الكنانة علىٰ الرغم من قيامها في بلاد المغرب، حتىٰ إن بعض المؤرخين كأبي شامة أطلق علىٰ خلفاء الدولة الفاطمية تسمية الخلفاء المصريين. انظر: شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي (ت٦٦٥هـ/١٢٢٧م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، (تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، (مطبعة دار الجيل، بيروت ١٩٥٦م)، ج١، ٢، ص٢١١، ٢١٣؛ وعبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة - ١٩٥٣م)، ١/ ١٠.

(2) الفقيه عيسىٰ الهكاري لم يكن وحده في جيش صلاح الدين، بل كان له أقرباء وإخوة، وكانت فرقة الهكارية الكردية فرقة كبيرة في الجيش الصلاحي، وشاركته في أغلب حروبه، وذكرتها المصادر، وذكرت أسماء عدد من أولئك القادة. كل ذلك يدل علىٰ أن الفقيه عيسىٰ كان أحد الهكاريين الذين ساندوا الأيوبيين في حكمهم، وانضموا إليهم؛ لاشتراكهم معهم في العرق الكردي، ومن هؤلاء القادة والرجال الأمير شرف الدين الهكاري، والأمير خليل الهكاري، والظهير الهكاري، ومجد الدين، وهما إخوة الفقيه عيسىٰ الهكاري. انظر بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٧٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٧٣/١٦؛ أبا شامة الروضتين، ٩٠/٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٣٧١/٢١، الدواداري، كنز الدرر، ١٠٠/٧، الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٧١/٢٣.

(3) تولىٰ الوزارة في مصر مدة قصيرة لم تتجاوز الشهرين ولم تكن كافية ليشعر المصريون بوجوده، ولم ينجز في مصر إنجازًا يشعر به العامة. انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٢٦٤/٣-٣٠٣؛ وابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار ٤٣/٣-٥٠.

بمساعدة الأمين قراقوش[1] ليسهم في توطيد أركان حكم سيده الأيوبي في مصر، وتولىٰ مهمة مراقبة القصور والعمائر فيها[2]، وقام بعزل النساء عن الرجال في القصر[3]، وحفظ الكنوز، كما أذن له ببيع بعض كنوز القصر

---

(1) المقريزي، الخطط ٢٠٠/٢؛ وعبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات في التاريخ (مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص٣٥١؛ وعبد الرحمٰن زكي، بناة القاهرة في ألف عام (مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م)، ص٣٦-٤٠؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٠.

(2) المقريزي، الخطط ٣٨٢/٣.

(3) حتمت دواعي السياسة وطبائع الملك علىٰ الأيوبيين طوال حكمهم بمصر أن يتحفظوا علىٰ جميع أفراد البيت الفاطمي؛ خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين والمنتفعين من إعادة دولتهم، وفي هذا ما قد يزلزل مُلك الأيوبيين، خاصة أن الفاطميين أقاموا ركائز حكمهم بالانتساب إلىٰ آل بيت النبوة، الذي يكنُّ له المصريون الحب والإجلال، في حين أن الأيوبيين تبوأ آباؤهم المناصب الحربية والإدارية بالكدح والسعي والطموح الدءوب، فلا ريب أن أي مقارنة بين الأسرتين الفاطمية والأيوبية، المتصارعتين علىٰ حكم مصر، كان من شأنها أن ترجح كفة الفاطميين؛ لانتسابهم إلىٰ آل البيت النبوي الشريف. لذلك اشتد صلاح الدين في مراقبة مَن بقي من سلالة الفاطميين من آل العاضد وأبنائه وأقاربه، وأخرجهم من القصر وأودعهم دارًا فسيحة، تُعرف بـ«دار الضيافة» تحت إشراف بهاء الدين قراقوش، وحال بينهم وبين اختلاط بعضهم بالبعض؛ لأنَّ حبس الرِّجال مع النساء لم يكن مِن الأمور المعروفة آنذاك، ويبدو أنهم ظلوا بهذه الدار، حتىٰ انتقل الملك الكامل في سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م بمقر سلطانة من دار الوزارة بمدينة القاهرة، إلىٰ قلعة الجبل بعد الفراغ من بنائها، واصطحب معه بقايا البيت الفاطمي، وتم التحفظ عليهم بالقلعة حتىٰ نهاية العصر الأيوبي، فقد رآهم المؤرخ ابن واصل في القلعة، وتحدث إلىٰ بعضهم، وأشار ابنُ أبي طي الحلبي الشيعي إلىٰ حُسن مُعاملة صلاح الدين وكرمه معهم، وأكَّد أبو شامة ذلك بقوله: «اجتمعتُ بأبي الفتوح بن العاضد وهو مسجون مُقيَّد، فحكىٰ لي أنَّ أباه في مرضه طلب صلاح الدين، فجاء وأحضرنا ونحن صغار، فأوصاه بنا؛ فالتزم إكرامنا واحترامنا». ولما كان المماليك هم ورثة سلطنة الأيوبيين، وكانوا في الأصل أرقاء عارين من أي نسب، فطبيعي أن يبقي المماليك علىٰ بقايا البيت الفاطمي في مكان إقامتهم بالقلعة، حتىٰ جُولوا منه في ٦٧١هـ/١٢٧٢م. وأغلب الظن أن بقاء نسل الفاطميين قيد الإقامة الجبرية نحو قرن ونصف، يؤيد احترام الأيوبيين والمماليك للنسل النبوي الشريف، وسيبدو لنا أنَّ صلاح الدين كان يأنف إراقة دمائهم بلا جَريرة، ولنا في مواقفه مع الصليبيين في بيت المقدس بعد استردادها عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ما يؤيد ذلك، وإلا فما الداعي للإبقاء علىٰ حياتهم، وتحديد إقامتهم هذه المدة المديدة، وما الخطورة التي عساها تنشأ من بعض المدعين بعد زوال دولتهم بقرن من الزمن. المقريزي، الخطط ٤٤٨/٢.

وذخائره[1] بما فيها خزانة الكتب الهائلة[2]، فاستمر البيع فيما وجد بالقصر، عشر سنين[3]، وكان أمينًا في صونها مثلما كان أمينًا في بيعها[4]! هذه الأمانة جعلت سيده صلاح الدين يطلق يده في العبيد والجواري، فأعتق البعض ووهب البعض، وأخلىٰ القصر من سكانه وأهله، وأتاح له الاستيلاء عليه[5] وعلىٰ أمواله وذخائره، ليختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه[6]!

---

(1) المقريزي، الخطط ٢٩٩/٢؛ والجبرتي، عبد الرحمٰن بن حسن (ت١٢٢٧هـ/١٨٢١م)، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (دار الجيل، بيروت د.ت)، ٢٧/١.

(2) في غمرة حماسة صلاح الدين لمحاربة الفكر الشيعي والحماس للفكر السُّني في مصر، باع بعض ما بقي من كنوز مكتبة القاهرة، ونفائسها، وقد بيعت بعض كتبها في أثناء الشدة المستنصرية عندما طغىٰ ناصر الدولة والجنود الأتراك الذين أجبروا الخليفة المستنصر علىٰ بيع كل شيء، وعلىٰ الرغم من هذا الدمار المؤسف نرىٰ حماسة الفاطميين الأدبية حين بدأوا في جمع الكتب بنشاط شديد، فقد عثر صلاح الدين الأيوبي علىٰ نحو «مائة وعشرين ألف مجلد» علىٰ الأقل في مكتبتهم بعد قرن لاحق من القضاء علىٰ دولتهم. فأوكل صلاح الدين إلىٰ وزيره «القاضي الفاضل» بمعاونة قراقوش في أمر فتح خزائن الكتب الفاطمية، وأطلق له حرية التصرف فيها، فاحتفظ القاضي الفاضل بالملائم منها وباع بعضها الآخر، وتحول إلىٰ كتب الدعوة الإسماعيلية - بما فيها من غلو واشتطاط أملاه عليهم رغبتهم في تأييد أحقيتهم في الخلافة، وحق أئمتهم في الولاية، أي الطاعة علىٰ جميع المسلمين - التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي، فأحرقها وألقاها علىٰ جبل المقطم، بحيث صارت تعرف بـ«كيمان الكتب». مما يؤكد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب (الدعوة الفاطمية فقط)؛ لترويجها للقضية السياسية التي ينادي بها خلفاء الفاطميين. وعلىٰ الرغم من أن البعض يمكنهم تبرير هذا التصرف في ضوء حماسة صلاح الدين للمذهب السني وترسيخه في مصر، كان تأثير هذا التصرف سلبيًّا علىٰ الحياة الفكرية والثقافية في مصر من ناحية أخرى.

(3) المقريزي، الخطط ٤٤٨/٢؛ والجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢٧/١.

(4) عبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات، ص٣٥٢؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٢.

(5) في الكامل لابن الأثير ٣٦٩/١١، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله، وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا: إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع الخطبة. ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولىٰ علىٰ قصر الخلافة وعلىٰ جميع ما فيه، فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتبه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلىٰ صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهمًا أو سبعة عشر مثقالًا، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير. ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد. وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد، فباع جميع ما فيه. ونقل أهل العاضد إلىٰ موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد، فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه.

(6) أبو المحاسن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢٠/٦.

وهذه كانت بداية عهد جديد للأمير بهاء الدين قراقوش أسهم خلاله في بناء الدولة الأيوبية الناشئة، وتثبيت أركانها، فواصل الطاعة والإخلاص في خدمة سادته، فقرَّبه صلاح الدين الأيوبي وأعلىٰ شأنه وجعله أميرًا علىٰ عكا وقائدًا لجيشها؛ لصد العدو[1]، وأثبت جدارة كبيرة، وأبلىٰ بلاءً حسنًا في التصدي للصليبيين[2]، وتعرض لحصار شديد منهم ضربوه علىٰ عكا، ونفدت خلاله المؤن في المدينة، وتمكن الصليبيون من دخول عكا منتصرين[3]، فوضعوا السيف فيها وقتلوا وأسَروا[4]، وكان من بين الأسرىٰ قراقوش الذي افتداه صلاح الدين الأيوبي بعشرة آلاف دينار[5]، وفرح به فرحًا عظيمًا[6]، وأصبح ذراعه اليمنى في مصر[7] حتىٰ وفاته.

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (نشرة محمد مصطفىٰ زيادة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة ١٩٧٩م)، ج١ - ق١، ٢١٣/١.

(2) لم تنجح جميع المحاولات العسكرية التي بذلها صلاح الدين لإنقاذ عكا، فاضطر قائدها قراقوش إلىٰ الاستسلام في يوليو سنة ١١٩١م، بعد مقاومة دامت سنتين تقريبًا. انظر: ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله محمد، ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (تحقيق، حسنين ربيع، القاهرة، ١٩٧٧م)، ٧/١-٧٨.

(3) عبد الرحمٰن عزام، صلاح الدين الأيوبي وإعادة إحياء المذهب السني (ترجمة، قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري، قطر ٢٠١٢م)، ص١٠٥.

(4) في يوم ٢٧ من رجب ٥٨٧هـ خرج ريتشارد قلب الأسد من عكا وأحضر الأسرىٰ المسلمين وأمر بقتلهم، ولم يبق في أسْره غير كبار الأمراء والقواد من أمثال ابن المشطوب وقراقوش وغيرهما؛ طمعًا في الحصول علىٰ فدية كبيرة نظير إطلاق سراحهم. (ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ت٦٣٠هـ/١٢٣٤)، الكامل في التاريخ، (بيروت، ١٩٧٩م)، ٢٠٧/١٠.

(5) فُك من الأسر في يوم الثلاثاء حادي عشر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ومثل في الخدمة الشريفة السلطانية لصلاح الدين. انظر: ابن خلكان، وَفَيات الأعيان ٩٢/٤.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية ٧١٣/١٦؛ والمقريزي، الخطط ١٦٩/٣؛ والنويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب، (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت) ١٢٤/٢٩.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥٣م)، ص٣٢٤؛ وعبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات، ص٣٦٠؛ وطارق حريب، شخصيات بين الأسطورة والخيال (دمشق ٢٠٠٥م)، ص٢٦٧؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٣.

لكن جاء خلفاء صلاح الدين علىٰ غير شاكلته، وتفسَّخت دولته بعد وفاته إلىٰ قِطع يتنازع عليها الورثة من أبناء البيت الأيوبي[1]، فكان لقراقوش دور المخلص في حماية عرش العزيز[2] حين دبَّت الوحشة بين الأبناء وحدث خلاف أكثر من مرة بين الأفضل[3] والعزيز، وكان الأفضل ملكًا طيبًا، وبه غفلة لا تليق بالملوك، قد فرغ إلىٰ اللذة واللهو تاركًا لوزيره «الجزري»[4] أمر الحكم، بينما كان العزيز ذكيًّا شجاعًا. وكثيرًا ما كان الجزري[5] يزيِّن للأفضل أمر الاستيلاء علىٰ مملكة أخيه ويحرّضه علىٰ محاربته، وفي كل معركة بينهما كان يتغلب جيش العزيز بقيادة الأمير قراقوش علىٰ جيش الأفضل ويتوسط عمهما العادل لحل الخلاف[6].

ذات مرة عاد الخلاف من جديد، فاغتنم العادل[7] الفرصة ليوسع الشِّقاق بينهما؛ طمعًا في الاستيلاء علىٰ مصر[8]، وتطور الأمر بين الأخوين حتىٰ

---

[1] النزاع الذي دب بين أبناء صلاح الدين بعد وفاته سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) لم يلبث أن امتد إلىٰ الطوائف والأحزاب الحربية المختلفة؛ إذ أظهر العزيز عثمان بن صلاح الدين ميلًا واضحًا إلىٰ الأمراء الصلاحية، من باب التكريم لذكرىٰ والده، فأغضب بذلك طائفة الأمراء الأَسَدِية. انظر: أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولىٰ في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت، ١٩٦٩)، ص٨٨؛ وقاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة ١٩٩٣م)، ص١٥٠.

[2] بعد موت السلطان صلاح الدين توزّع المُلك بين أولاده؛ فكانت مصر من نصيب العزيز، ودمشق وما حولها من نصيب الأفضل، وحلب وما يليها ملكًا للظاهر، والبلاد الشرقية من حصة عمّهم العادل. انظر: النويري، نهاية الأرب ٤٤٤/٢٨.

[3] الأفضل بن صلاح الدين، هو أبو الحسن علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد عام ٥٦٥هـ، وحكم دمشق بعد وفاة صلاح الدين حتىٰ صرْفه. توفي عام ٦٢٢هـ بسُمَيْساط. ابن خلكان، وَفَيات الأعيان، ٤١٩/٣.

[4] احتجب الملك الأفضل عن الرعية فسُمِّي «الملك النَّوام»، وفوض الأمر إلىٰ وزيره ضياء الدين الجَزَري وحاجبه الجمال محاسن بن العجميّ، فأفسدا عليه الأحوال، وكانا سببًا لزوال دولته. النجوم الزاهرة ١٢٢/٦.

[5] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ١٢٤/٣؛ وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٢٠/٦؛ وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٧٥.

[6] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٣٨/١، ٢٥٨/١.

[7] لم يكن قد مضىٰ علىٰ وفاة صلاح الدين سوىٰ سبع سنوات حتىٰ طوىٰ العادل معظم أولئك الأبناء وحل محلهم علىٰ رأس دولة موحدة وتظهر تأسيساته بوضوح من خلال تصريحه الخطير الذي ألقاه علىٰ من حوله من أمراء الدولة الأيوبية بمصر مسوّغًا خلعه الملك المنصور بن العزيز بن صلاح الدين، حيث قال: «إنه قبيح بي أن أكون أتابكًا لصبي مع الشيخوخة والتقدُّم، والمُلك ليس هو بالإرث وإنما هو لمن غلب». ينظر: المقريزي، السلوك، ١٥٥/١؛ والعبادي، قيام دولة المماليك الأولىٰ، ص٨٨.

[8] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٢٧/٦؛ وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٨١.

عـزم العـزيز علىٰ دخول دمشـق، وجهّـز جيشًا وانطـلق به تاركًا قراقوش نائبًا عنه في مصر، فاغتنم العــادل[1] غيـاب العزيـز عن مصـر، وأشـعل نـار الفتنـة داخل جيشه الباقي فيها؛ بين فرقة الصالحية[2] من جهة، وفرقـة الأَسَدِية[3] التـي اتفق أفرادها علىٰ خلع العزيز ومنعه من العودة لمصر، فتدخل الأمير قراقوش الأَسَدِي لرفـع هـذا الشِّقاق وإخمـاد جـذوة الثـورة الداخليـة، وأعـاد العزيـز إلـىٰ مُلكه[4]، وأخلص له طوال مدة حكمة كما كان مخلصًا لسلفه[5].

وأبلـىٰ قراقـوش بـلاءً حسـنًا فـي خدمـة الدولـة الأيوبيـة، بـدءًا بصـلاح الـدين، ومرورًا بابنه العزيز[6]، وانتهاء بحفيده المنصور[7]، واستمر مخلصًـا وفيًّـا لهـم

---

[1] حول توحيد العادل للدولة الأيوبية، انظر: المقريـزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص١٥٩؛ وابـن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٦٢/٦؛ وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٧٩-٨١.

[2] ناصـرت الصـلاحية العزيـز بـن صـلاح الـدين وابنـه الملـك المنصـور، وحاربـت العـادل وأطماعـه، وكـان مقدم الصـلاحية فخـر الـدين جهـاركس مملـوك صـلاح الـدين. ينظـر: المقريزي، السلوك، ٢١٤/١-٢١٥؛ وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٢٣/٦.

[3] هم أمراء شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي، وبلـغ عددهم، وفق روايـة أبـي شامة خمسمائة مملـوك، ومقدَّمهم سيف الـدين يـازكوج مملـوك شـيركوه، فقد اسـتغل العـادل مـا بينهم وبـين الصلاحية من تنافس واستطاع في مكر ودهاء ووعود خلابة أن يستميلهم إليه، مـا عدا الأمير بهاء الدين قراقوش الأَسَدِي الذي بقي نائبًا مخلصًا للملك العزيز في القـاهرة. ينظـر: أبـو شـامة، الروضتين، ٢٢٩/٢؛ والمقريزي، الخطط، ٣٦٨/٢؛ وعفاف سيد صبرة، بهاء الدين قراقوش الوزير المفترىٰ عليه (مجلة الدارة، مج ١٣، عدد (٢) الرياض ١٩٨٧م)، ص١٣٧.

[4] ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م)، مضمـار الحقائق وسر الخلائـق، تحقيـق، حسـن حبشـي، دار الكتـب، (القـاهرة، ١٩٦٥)، ص٢٠٤؛ وأبـو شـامة، الروضـتين، ١٩١/٢؛ والسبكي، طبقات الشافعية، ٤٣٢/٧.

[5] المقريزي، السلوك لمعرفـة دول الملوك ٢٦٧/١؛ وعبد اللطيف حمزة، ثـلاث شخصـيات، ص٣٦١.

[6] الملك العزيـز عثمـان (حكـم بين سـنتي ٥٨٩-٥٩٥هـ/١١٩٣-١١٩٨م)، وُلِـد سـنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) بمصر، وهو أصغر أبناء صلاح الدين الثلاثة، ولـي السلطنة بعد وفاة والده وهو لا يزال شـابًّا فـي الحـادي والعشرين من عمره، وكـان حاكمًا علىٰ مصـر منذ حيـاة أبيـه، جرىٰ نزاع بينه وبين أخيه الملك الأفضل حول مدينة القدس، وقد انحاز عمه الملك العادل إلىٰ شقيقه الأفضل في قتاله. ومرة أخرىٰ تقرب العادل إلىٰ جانب العزيز وتصالح هو وأخوه الأفضل. المقريـزي، السـلوك لمعرفـة دول الملـوك ٢٥٨/١. ابـن الأثيـر، الكامـل، ١٤٠/١٢؛ وابـن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، تتمة المختصر فـي تـاريخ البشـر، المطبعة الوهبية، (القاهرة ١٩٦٥)، ١٦٢/٢؛ وابن واصل، مفرج الكروب، ٨٢/٣.

[7] المنصـور ناصـر الـدين محمد بـن العزيـز عثمـان (حكـم بـين سـنتي ٥٩٥-٥٩٦هـ/١١٩٨-١٢٠٠م)، وُلِد سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م)، خلف أباه العزيز علىٰ حكم مصر وهـو طفـل فـي

وحريصًا علىٰ خدمتهم حتىٰ وفاته[1] في القاهرة سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وله من العمر ثمان وثمانون سنة[2].

وقد وصفته المصادر التاريخية بالهمة والولع بالعمران[3]، فبنىٰ السور المحيط بالقاهرة[4].

التاسعة من عمره، فقد كانت هذه المرحلة عبارة عن نزاع بين عمه الأفضل وعم أبيه العادل، وكانت السلطة الفعلية بيد بهاء الدين قراقوش حسب وصية العزيز والده. ومهما يكن اسم الوصي الذي أشار به أبوه فإن الأمراء اتفقوا علىٰ استدعاء عمه الأفضل للوصاية عليه حتىٰ يبلغ سن الرشد. ولما تأكد الأفضل من عدم رضاء عمه العادل عنه عزم علىٰ أن يقف موقف الهجوم بدلًا من الدفاع، إلا أنه فشل في محاربة عمه العادل. وانتهىٰ الأمر بسيطرة العادل علىٰ مصر سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م)، حيث أصبح وصيًّا علىٰ الملك المنصور، وأعلن خلع الملك الصغير، وضربت السكة باسمه وخطب له. ينظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ٨٧/٣؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ١٨/١٣؛ والمقريزي، السلوك، ١٤/٥؛ والسيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة ١٩٦٧)، ٥٢/٢.

(1) ابن خلكان، وَفَيات الأعيان، (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، وطبعة ثانية تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت) ٢٥٢/٣؛ وابن تغري بردي، مورد اللطافة في مَن ولي السلطنة والخلافة (تحقيق، نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٦م)، ٩/٢؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٣.

(2) دفن قراقوش بسفح الجبل المقطم من القرافة بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما علىٰ شفير الخندق. ابن خلكان، وَفَيات الأعيان ٩٢/٤؛ والمقريزي، الخطط ١٦٩/٣؛ والسلوك لمعرفة دول الملوك ٢٧٠/١.

(3) للمزيد عن الإنجازات المعمارية التي أقامها بهاء الدين قراقوش انظر: عفاف سيد صبرة، بهاء الدين قراقوش الوزير المفترىٰ عليه، ص١٣٦-١٨١.

(4) السور، سور حصين من الحجارة يحيط بالقاهرة والفسطاط ويصل كل القلاع ببعضها وبالقلعة التي علىٰ المقطم. وقد بنىٰ فيه قراقوش جامعًا، وفي ذلك يقول المقريزي، «إن السور ابتدأ بعمرانه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦هـ، وهو يومئذ علىٰ وزارة العاضد لدين الله، فلما غدا سلطان مصر سنة ٥٦٩هـ، انتدب لعمل السور الطواشي بهاء الدين قراقوش الأَسَدِي، فبناه بالحجارة، وقصد أن يجعل علىٰ القاهرة ومصر القديمة والقلعة سورًا واحدًا، فزاد في سور القاهرة القطعة التي من باب القنطرة إلىٰ باب الشعرية، وهو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلىٰ عهده، ويختلف عنهما في أنه مبني من الحجارة لا اللبِن كما درج. انظر: المقريزي، الخطط ٣٧٧/١، ١٧٩/٢، ٢٣٣/٢، ٢٣٧/٢، ١٦٩/٣، ٢٢٢/٣، ٣٥٥/٣، ٣٥٧/٣؛ والمقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٦٣/٦؛ وأبو المحاسن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣٩/٤، ٤٠/٤؛ وعبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات، ص٣٥٧؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٣.

وبنى قلعة الجبل[1]، وقلعة المَقْس[2]، والقناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام[3]، وخان السبيل[4]، والحارة المعروفة باسمه[5]، وربما كان آخر ما قام

---

(1) قلعة الجبل، بُنيت ليتم الإشراف منها على القاهرة، ولتكون مركز قيادة زمن الحرب؛ لأن السلطان صلاح الدين كان يقيم بها بعض أيامه ويدير منها حركة حروبه، ثم لما مات سكن القلعة من بعده ابنه العزيز، ثم في عهد الملك الكامل من ملوك بني أيوب تمّ بناء هذه القلعة بشكل يؤهلها لتكون مقرًّا للحكومة، واستمر الحال على ذلك إلى عهد محمد على باشا، ولم تنتقل دواوين الحكومة إلى دور أخرى وسط المدينة إلاّ في زمن الخديوي إسماعيل. ولا تزال موجودة إلى اليوم قائمة بأسوارها العالية على منطقة مرتفعة من جبل المقطّم شرقي القاهرة. وفي سيرة الظاهر بيبرس نلمح مدي الجهد والشقاء الذي تم في أثناء بناء القلعة، فتروي السيرة أن صلاح الدين قد قرر أن يبني لنفسه قصرًا شاهقًا يحمل اسمه في قلعة الجبل، فجمع المهندسين والبنائين الذين عملوا ليل نهار حتى فرغوا من القصر وكتبوا على بابه: «خليفة الله يوسف الكردي، أدام الله بقاءه»، فلما فرغ من بناء القصر عمل فيه الختمات وفرشه بأنواع الحرير وألوانه. انظر: المقريزي، الخطط ٣٥٢/٣؛ وعبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات، ص٣٥٦؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٢؛ وسيرة الظاهر بيبرس، (تقديم: جمال الغيطاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م)، ٣٧/١-٣٨.

(2) قلعة المقس: بناها قراقوش بعد أن فرغ من بناء قلعة الجبل، وهي برج كبير على النيل، بني بالقرب منه أبراج أخرى على النمط الإفرنجي الصليبي وليس البيزنطي الذي يتبناه الفاطميون في قلاعهم وحصونهم. المقريزي، الخطط ٢٢٢/٣؛ وعبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات، ص٣٥٦.

(3) القناطر: أخذ قراقوش حجارة الأهرام الصغار (أهرامات ممفيس الصغيرة) وبنى بها القناطر الموجودة اليوم في الجيزة. وكانت الغاية من بناء قناطر الجيزة أن تكون خط دفاع قوي وحصنًا لصدّ أي هجوم للعدو. انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، (تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٨٧م)، ٥٢٢/١٦؛ والمقريزي، الخطط ٢١٠/١، ٢٢٥/١، ١٦٩/٣، ١٩٩/٣، ٢٦٩/٣؛ وعبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات، ص٣٥٧؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٥.

(4) خان السبيل، بناه الأمير بهاء الدين قراقوش، وأرصده لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة، وبه بئر ساقية وحوض. انظر: المقريزي، الخطط ٦٨/٣؛ وأبو المحاسن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤٦/٤.

(5) الحارة: كانت تسمى «حارة بهاء الدين» وقبلًا «حارة الريحانية» في الزمن الفاطمي، ثم عرفت باسمه؛ إذ سميت بـ«سويقة الصاحب القديمة» عند الجامع الحاكمي. انظر: أبو المحاسن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة٣٨/٤؛ والخطط، المقريزي ٦/٣.

بـه هـو بنـاء سـور عكًّـا عـام ٥٨٥هـ[1]، عنـد تمـام الصـلح بـين صـلاح الـدين والإفرنج، وقد أباح لهم أن يستوطنوا مصر فجاء منهم بعض الباعة وأقام في الجهـة التـي عليهـا القنطـرة المسـماة بــ «قنطـرة الموسـكي»، التـي أصـلحها قراقوش[2] أيضًا؛ إذ كان السلطان كلما احتاج إلىٰ عمارة قلعة أو تجديد حصن أو تقوية جسر أو إقامة سور أو بناء برج، عهد إليه في هذا العمل.

هذه منجَزات الأمير بهاء الدين قراقوش، الذي ما كان يطمح يومًا إلىٰ أكثر مـن إرضـاء سـادته الأيـوبيين، وأثبـت أنـه مـن أكثـر مسـاعدي صـلاح الـدين إخلاصًا، به يضرب، وبه يبني، وبه يقبض علىٰ زمام الأمور في غَيبته أو حتىٰ بعد وفاتـه سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)[3]، ولـم يـتمنَّ شيئًا أكثـر مـن القيـام بواجبـه تجاههم والتَّفاني في خدمتهم علىٰ أتم وجه، ولـو علىٰ رقـاب العبـاد والـبلاد[4]، لكن هذا لم يسعفه في شَغْل أكثر من كلمات ضئيلة في ذاكرة التاريخ.

ذلـك أنـه بـالرغم مـن كـل هـذه الإنجـازات؛ سـخرت منـه الجماعـة الشـعبية المصـرية[5]؛ ولعل فـي شخصـية قراقوش الحقيقيـة صـفات أسـهمت فـي إشـاعة السخرية منه، وتجاهل العامة لـه فـي سيرة الظـاهر بيبـرس[6]؛ بدايـة مـن كونـه

---

[1] بهـاء الـدين بـن شـداد، النـوادر السـلطانية والمحاسـن اليوسـفية، ص١٥٣؛ وابـن خلكـان، وَفَيـات الأعيان ١٩٣/٧؛ وبسام الجابي، قراقوش، ص٢٤؛ وكارين صـادر، الأمير قراقوش، ص٨٣.

[2] محمد مختـار باشـا، التوفيقـات الإلهاميـة فـي مقارنـة التـواريخ الهجريـة بالسـنين الإفرنكيـة والقبطية، تحقيق: محمد عمارة، ط ١، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٦٢١.

[3] النويري، نهاية الأرب ٤٣٧/٢٨.

[4] كارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٠.

[5] المقريزي، الخطط ٢٦٩/٣؛ وأبو المحاسن ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠م)، ١٠٩/٦.

[6] علىٰ الرغم من إنجازاته التي عددتها المصادر التاريخية المعتمدة، لم تعره سيرة الظاهر بيبرس أدنىٰ اهتمام، وسبب ذلك يرجع إلىٰ حزمه وإجراءاته المتشددة لإنجاز المهمات التي عهد إليه بها، ومن ثَمَّ فقد أصاب الموظفين المصريين شدة من أفعاله، مثل الأسعد ابن مَمَّاتي الذي تأذىٰ كثيرًا منه، بالإضافة إلىٰ كثرة مشروعات قراقوش الإصلاحية مثل بناء القلعة وسور القاهرة، واستخدامه أعدادًا من العامة لمعاونته في هذه المشروعات، ومن ثم لم يترك ذكرىٰ سعيدة في المخيلة الشعبية، وبما أنهم رأوا أن ثوب صلاح الدين طاهر نقي، وأنه بطل صوفي، كما في سيرة الظاهر بيبرس، فقد تغاضوا عن ذكر موظفه الشديد؛ تحاشيًا لتلويث هذا الثوب. محمد فوزي، بين التاريخ والفولكلور صلاح الدين الأيوبي في السيرة الظاهرية (مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، العدد (٤٠)، كلية الآداب، جامعة المنوفية، ٢٠١٠م)، ص٢٩١.

رجلًا يُثير العداوات ويصنع الأعداء، وأحدهم ابن مَمَّاتي[1]، إلىٰ جهله واستهانته بالمعرفة والكتب، فمن الواضح أنه لم يكن رجلًا متعلمًا؛ فحين عُين زمام القصر[2] الفاطمي من قِبل صلاح الدين بدلًا من الخصي الحبشي (مؤتمن الخلافة)[3]، جرد مكتبة القصر، التي لا تُقدر بثمن، من محتوياتها، وكوّم الكتب علىٰ الأرض لتُباع لأول من يشتري، ويصوره ابن مَمَّاتي بصورة الحاكم الجاهل الذي لا يقدِّر الشعر ولا الشعراء، كما في حكاية «جزاء الشاعر»[4].

وهكذا غدت شخصية قراقوش الأمير العسكري الجاد الشديد؛ مثار التندُّر والكراهية في آنٍ واحد، بسبب ما عرف عنه من كبْرٍ وعنادٍ، وجِدٍّ وجمود وحَزْم، وبُعْد عن الرعونة وشدة الخصومة، وقسوة المعاملة، وانفراده برأيه ورفضه مناقشة أي قرار، وقد وصفه عماد الدين الأصفهاني بأنه تركي لا يعرف شيئًا عن الكتب، ونسب إلىٰ اللّجاج لشدة ثباته وفرط جموده[5]؛ لذا فإن ابن مَمَّاتي في الحكاية (السابعة عشرة)[6] «حكم فرعون» يقارن قراقوش بفرعون بكل ملامحه التي وردت في القرآن، فهو أيضًا يمنُّ علىٰ الناس بباطله كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وذلك حين يقول: «الويل لكم إذا عدمتموني، انظروا كيف رأيتم رأيي فيكم.. فهي نظير ما وقع من فرعون»»، وهو وصف سلبي طالما أعطاه ابن مَمَّاتي لهذه الشخصية بكل الطرق، وكأني بابن مماتي هنا يريد أن يضيف إلىٰ صفة البَلَاهة صفة أخرىٰ لازمة لها، وهي العُجْب برأيه، وعمَد ابن مماتي إلىٰ الكشف عن سذاجة قراقوش وسطحية تفكيره، حين ظن أن الجمال إذا أخذت من النهر فسوف ينفد، ولعلك تلحظ ما تَشي به عبارة: «ففكر طويلًا» من الإشارة إلىٰ غباء قراقوش، والثانية فرحه بما توصل إليه من حل ساذج للمشكلة وصياحه في الغلمان ليخبروا به الناس، والثالثة ما تحمله من

---

[1] عبد الرحمٰن عزام، صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السُّني، ص٩٦.
[2] النويري، نهاية الأرب ٣٤٤/٢٨.
[3] انظر: واقعة السودان عند ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٥٤/٩.
[4] انظر: حكايات الفاشوش في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٣٠.
[5] عماد الدين الأصبهاني، فتح سورية وفلسطين (ط. ليدن ١٨٨٨م)، ص١٤٣؛ وكارين صادر، الأمير قراقوش، ص٨٦، ٩٥.
[6] انظر: حكايات الفاشوش في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٢.

إسقاط سياسي أراد به ابن مماتي أن يسخر من حكم قراقوش وسياسته، وأن يثبت أنه لا يصلح لما أسنده إليه صلاح الدين من إدارة شئون الدولة، هذا من جانب، أما الجانب الآخر فهو التدليل على الطريقة التي تدير بها الدولة الأيوبية زمام الحكم والسخرية منها. ثم تأتي قفلة الحكاية لترسخ في أذهان القراء ما يتمتع به قراقوش من بلاهة مفرطة؛ إذ ظن أن ما حدث من زيادة النيل كان بسبب رأيه الحكيم، بحسب اعتقاده حين يقول: «إن هو إلا رأي مبارك»[1].

فها هو كذلك يعرِّض به في الحكاية (الأولى) «الجارية البيضاء»، عندما قال: «لَا خَيرَ في الأَسْوَدِ ولَوْ كَانَ في المِسْكِ والعَسَلِ»[2]؛ لأن اسم «قراقوش» يعني: «الطائر الأسود».

أيضًا نجد ابن مَمَّاتي الراوي يحاول أن يقدم خبايا شخصية هذا الحاكم المتسلط في حكاياته، ومن ذلك أنه في الحقيقة شخص مقهور، وهذا هو سبب تسلطه؛ إذ يلجأ إليه ليسد عجزًا نفسيًّا يلازمه، فقد كان - فيما يبدو - يحمل حقدًا دفينًا على الأكراد سادته، فقد رأينا كيف اهتم صلاح الدين الأيوبي بأسرته اهتمامًا كبيرًا[3]، وخصص لسُكْناهم قصور الفاطميين ومنازلهم، وحمل إليهم الهدايا والتحف النفيسة والأموال وغيرها مما حصل عليه من القصور الفاطمية

---

(1) محمد مكي: السرد المشهدي، ص ٣٥٠، ٣٥١.

(2) انظر: حكايات الفاشوش في القسم الثاني (التحقيق)، ص ١٢٦، ١٤٢.

(3) ترك الأكراد ظلًا قويًّا مرتبطًا بصلاح الدين الأيوبي في السيرة الشعبية للظاهر بيبرس؛ إذ تروي السيرة أنه عقب اجتياح المغول لبغداد بقيادة هولاكو - أو هلاوون كما أسمته السيرة - دخل عدد من الأكراد وهم في زي الصوفية، وكان قائدهم هو صلاح الدين يوسف الكردي، وقضوا على المغول بالسيوف الخشبية التي يحملونها وأطلقوا سراح الخليفة العباسي الذي لم يجد خيرًا من مصر والشام ليكونا مكافأة لصلاح الدين ومَن معه من الأكراد على جزيل فعالهم، وإنقاذهم لخلافة والخليفة من خطر المغول، فسعد صلاح الدين بذلك. وكتب الخليفة حججًا رسمية بمنحته لصلاح الدين، وودعه فترك صلاح الدين العراق ومعه سبعون ألفًا من الأكراد وتقدموا إلى حلب، فسلمها له نائبها، فولى عليها كرديًا من قِبَله وترك معه حامية، وتقدم إلى دمشق فسارع إليه واليها وسلمها إليه بعدما رأى الحجج، ثم ترك عليها واليًا من قِبَله، وسار حتى أتى مصر فرحب به أهلها، ودخلها في موكب عظيم وهو في مسوح الصوفية. انظر: سيرة الظاهر بيبرس، ١/ ٢٠-٤٤.

بعد زوال الحكم الفاطمي، ليزداد معه توافد الأُسَر الكردية الذين جذبتهم الرغبة في الدخول في خدمة بلاط السلطان صلاح الدين الأيوبي أو الالتحاق بالجيش الأيوبي القائم علىٰ حماية الحكم الأيوبي الجديد، ليحلَّهم السلطان محل العسكر القدامىٰ من العبيد السودانيين والأرمن وغيرهم، بيد أن الأكراد لم يتخلوا عن نَعْرتهم الكردية وظلوا متعصبين لبعضهم يميلون للبطش، وسفك الدماء، والانتقام، بحيث يقابلون جريمة تافهة بجرائم كبيرة، واعتادوا قبول الديَة واتصف بعض أمرائهم بالعسف والجور[1]، وظلوا يتخاطبون باللسان الكردي، كما حرصت الأسر الكردية علىٰ مصاهَرة بعضها البعض، والتعالي علىٰ باقي الطبقات والطوائف في المجتمع المصري، خاصة أنهم اعتبروا أنفسهم من الأحرار الذين لم يمسهم الرق[2].

وكانت هذه النعرة المتعالية سببًا في حقد قراقوش عليهم، وقد فضح ابن مَمَّاتي هذا الأمر، تلميحًا في الحكاية (السابعة)[3] «لا تخبر الفرس»، والتي يتسابق فيها قراقوش مع رجل كردي فيسبقه الكردي بفرسه، أو ربما قصد بامتيازاته التي منحها لهم صلاح الدين بأصوله الكردية؛ في إشارة واضحة إلىٰ تجاوزات الأكراد وسيطرتهم علىٰ ثروات البلاد وخيراتها، وعندما أراد قراقوش أن يعاقب فرسه علىٰ ذلك، تراجع حتىٰ لا يموت جوعًا، وهي دلالة واضحة علىٰ خدمته لهم مقهورًا؛ فهو لا يستطيع أن يواجه هذه الطبقة المميزة، التي لها دائمًا قصب السبق، فيضطر إلىٰ مداهنتهم ونفاقهم؛ ليكون الدرس والموعظة كذلك في تَلْسِينٍ مِنَ الرَّاوِي عَلَىٰ الحَاكِمِ (صَلاحِ الدِّين) نَفْسِه، مع التعريض بطائفة الأكراد التي استحوذت علىٰ المناصب المهمة كافة في الدولة، واستأثرت بالامتيازات التي منحها إياها صلاح الدين.

---

[1] من هؤلاء الأمراء قطب الدين خُسرو بن تليل وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري الملقب بالمشطوب، ملك الأكراد، ولقّب بملك الأكراد لأنه كان شجاعًا، صاحب مكانة في قبيلته، دخل غير مرة مع أسد الدين شيركوه مصر، وشهد فتحها، وخدم صلاح الدين، وأسر في معركة عكا، وتولىٰ نابلس فظلم وعسف في أهلها، توفي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٠/٢٢، إبراهيم محمد مرجونة، تاريخ الأكراد دراسة تاريخية حضارية في ظل الخلافة العباسية (مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ٢٠١٠م)، ص٤١٨.

[2] عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص٢٩، ٣٠.

[3] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٨، ١٥٠.

فالجندي قراقوش رجل بلا أهل، سُبي صغيرًا ونشأ نشأة عسكرية صارمة تعلم فيها أن تبدأ حياته وتنتهي عند طاعة أميره، وتحقيق أمانيه وأحلامه عند نجاحه في تنفيذ أوامره، ولهذا وصف قراقوش بالخشن الفظّ الصارم الشديد[١]، وعندما عرفت الجماعة الشعبية أن اسم قراقوش يعني «الغراب»[٢] أو «الرخ»، ولهذا الطائر القوي الأسطوري موقع في حكايات «ألف ليلة وليلة»، تناثرت أخبار هذه الحكايات عن هذا الطائر الأسطوري، ونُقل بعضها إلىٰ «الفواعلية، و«البنائين» وهم يشيدون القلعة الضخمة[٣]، فكانوا يرونه وهو يمتطي صهوة جواده ويرمح، معطيًا أوامره في حزم وشدة، ولما عرفوا تاريخه[٤] رددوه؛ لما له من ازدراء عند المجتمع؛ فنسجوا حوله الحكايات في سوء الإدارة وجور الحكام والحمق والغباء في التصرف وعدم استيعاب الأمور.

كما يصفه ابن مَمَّاتي في الحكاية (الثانية)[٥] «فداء القميص»، بالسُّخف، وضعف العقل، وهو ما يحمل في طياته طعنًا علىٰ سياسة قراقوش، وبالتبعية علىٰ سياسة صلاح الدين الذي سلم حكم البلاد وإدارة سياستها إلىٰ رجل أبْلَهَ لا يصلح حتىٰ لإدارة شئونه هو، وليس إدارة شئون دولة بحجم مصر، وقد لجأ ابن مماتي في التشنيع علىٰ قراقوش إلىٰ واحدة من أبلغ تقنيات السخرية تأثيرًا وهي تقنية المحاكاة التهكُّمية؛ إذ يجري الحديث علىٰ لسان قراقوش، ويترك للقارئ مهمة حل شفرة النص والوصول بنفسه إلىٰ النتيجة التي يريدها، وهي نعت الحاكم «قراقوش» بالبلاهة وضعف العقل؛ ليثبت عدم صلاحيته لإدارة شئون الدولة، ويلمح من طرف خفي إلىٰ فساد حكم الأيوبيين الذين تركوا زمام الحكم في يد قراقوش، ويؤكد المعنىٰ ذاته[٦] في الحكاية (الثالثة عشرة)[٧].

---

(١) عفاف سيد صبرة، بهاء الدين قراقوش، ص١٥٢.

(٢) قره: أسود وقوش، طائر وقره قوش، الطائر الأسود، الغراب. (حسن حلاق، عباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩)، ص٧٠.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، (تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص١٣٠؛ والمقريزي، الخطط، ٢٠١/٢

(٤) محمد الفيل، الثقافة المصرية بين الرسمية والشعبية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧م)، ١/٢٠٤.

(٥) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٣.

(٦) محمد مكي: السرد المشهدي، ص ٣٥٢.

(٧) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٧.

«ليس غاليًا» حين يُعرِّض به قائلًا: «لأنك صغير وعقلك قصير، والناس يضحكون عليك». وإمعانًا في التحقير من شأنه؛ وهو لم يُترك في الحكم سوي لحكمة السلطات المستبدة والتي أوردها في الحكاية (الثامنة)[1] «البيع للكسلان»: «نَذْل نعرفه خير من جيد لا نعرفه»، بالرغم من أنه لا يستحقّ هذا الحكم، فقد استجار من غبائه العباد وقالوا: «نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ والعَافيَةَ مِمَّا ابْتَلَىٰ بِهِ غَيْرَنَا مِنْ نَقْصِ العُقُولِ»[2]، ولا يملك الناس إلا أن يقولوا له في الحكاية (الثامنة عشرة)[3] «حكم اللئام»: «لا نقعد في البلد ما دمت حاكمًا فيها، فقال: أنتم لئام، ولا يناسبكم إلا هذا الحكم والسلام، فإن قعدتم أو رحلتم تستريح منكم الحكام، يا لئام، انصرفوا عني بلا كلام».

يكشف هذا التعليق عن فساد حكم قراقوش وظلمه، وأخذه الناس بالظنة، كما يسجل موقف الناس من هذا الظلم، وكيف أنهم قرروا عدم البقاء في تلك البلاد في ظل حكم قراقوش. ويصف حاله في الحكاية (العاشرة)[4]: «احبسوا صاحب الحق»... «خرب الله بك البلاد وأذل على يدك العباد»، لكن وما العمل والأمر كما ذُكر في الحكاية (السادسة)[5] «مخلوق بلا لحية»: «إنما الحكم للغالب»!

هكذا تمتزج الحكاية بالتاريخ؛ إذ إن قراقوش ليس حاكمًا بصبغة فرعونية فحسب، ولكنه قاضٍ بالفعل، فقد كان قراقوش قاضيًا للعسكر في عهد السلطان العزيز عثمان[6]، وكان يمارس عمله جنبًا إلىٰ جنب للقاضي في دار العدل بالقاهرة[7]، ثم «استقرت الْمَظَالِم للطواشي قراقوش يجلس فيهَا بِظَاهِر الدَّار السُّلْطَانِيَّة وحماية الدِّيوان»[8]؛ وكل حبكات الحكايات تقريبًا تدور حول الحكم

---

(1) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٠.
(2) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص ١٥٨، ١٥٩.
(3) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٤.
(4) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٢، ١٥٣.
(5) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٩.
(6) ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم - ت٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تحقيق، سعيد عاشور، وحسنين ربيع، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٢م) ٨٩/٥.
(7) عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة في العصر الأيوبي، ص١٧٤.
(8) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٤٨/١.

الذي يهزأ بميزان العدالة، خاصة إذا كان القاضي طرفًا في النزاع، وخصمًا في قضية هو الحكم فيها، فإن حكايات الرمز القراقوشي تحذرنا أنْ لا جَدْوَىٰ من نَيْل الحقوق حينئذ؛ وتؤكد لنا أن القاضي في عصر الاستبداد سوف يحكم لصالحه - ما دام هو الخصم والحكم الآن - لا لصالح العدالة[1]، كما في الحكاية (الخامسة والعشرين)[2] «زمن فرعون»، حين يحكي: «فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا حُكْمُ اللهِ ! فَقَالَ: لَوْ جَرَىٰ هَذَا فِي زَمَنِ فِرْعَوْنَ[3] فَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ»، وكما في حكاية «عقاب القاضي»، حيث يتبع حكمه هواه؛ «فحلف القاضي أنه لا يبقى يخدم قراقوش أبدًا»، وكما في حكاية «ثوب النصراني»[4]، حيث يعلق أحكامه بالمستحيل حين يقول: «ودوه إلىٰ الحبس حتىٰ تبيض بدلته».

ويلحظ أن أغلب القضايا التي عُرضت علىٰ قراقوش القاضي مثيرة للدهشة، تبدو بسيطة، بل إن ظاهرها غير ذي موضوع، لكن سرعان ما تتجلىٰ عن مشكلة بالفعل. بل تبدو القضية كاللغز، فقد توفرت عناصر القضية: شرط ومشروط، وقضية فيها خصمان، ولا بد للقاضي من أن ينصف المظلوم، وأن تأخذ العدالة مجراها بين طرفي النزاع، ويستطيع قراقوش القاضي أن يقوم بهذا الدور، محققًا بذلك توازنًا نفسيًّا للوجدان الذي أنشأه، بعد أن عجز عن تحقيقه الواقع عند السلطان والقضاء، فأبي إلا أن يقيمها في إبداعه الشعبي، لكن ذلك إن دل علىٰ شيء، فإنما يدل علىٰ إحساس الرمز الحكائي الشعبي بذلك العبث الذي يسود القضاء، وذلك نتيجة طبيعية لذلك الجور الذي عاني منه الشعب المصري طويلًا، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن أثر الجور في الشعب علىٰ المدىٰ

---

(1) محمد رجب النجار، جحا، ص١٠٧.

(2) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٨.

(3) «فرعون» لقب يوحي إلينا بشخصية ذات عظمة ومجد من غابر الأزمنة, ولم يستعمل هذا اللقب إلا نحو سنة ١٠٠٠ق.م، كلقب للملك، وعندما أنجزت مصر ما أراده لها القدر، وهو باللغة المصرية يعني «البيت العالي» أو «البيت العظيم»، وكانت عبارة أشار المصريون بها منذ عصور الدولة القديمة إلىٰ قصور فراعنتهم، ثم صار يطلق علىٰ الملوك أنفسهم، غير أن لقب «فرعون» لم يستعمل في أي وقت من التاريخ كلقب حقيقي رسمي للملك. انظر: چورچ بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، ص٢٥٤، ٢٥٥؛ وألن رونر، مصر الفراعنة (ترجمة: نجيب ميخائيل، الطبعة الأولىٰ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م)، ص٧١.

(4) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٣٤.

الطويل ينأىٰ بـه بل يفقده روح احترام القانون في نفس قوم دأب سلاطينهم وولاتهم وقضاتهم علىٰ العبث به[1].

والحق أن حكايات الرمز القراقوشي علىٰ امتداد الحكايات، قد صورت في وضوح مدىٰ الجور الذي لحق بالناس عند غياب القانون، إبَّان عصور القهر السياسي والعسكري، فأبرزت كثيرًا من مفاسد القضاء والقضاة، واضطراب العدالة[2] واختلال ميزانها.. كما أبرزت ضيق أصحاب الحقوق؛ بالوساطة والشفاعة واتباع الهوىٰ في الأحكام.. ولعل أهمها وأوْلاها بالتسجيل هو ظاهرة الرشوة في الحكاية (الثانية عشرة)[3]، المتمثلة في الأم التي «جَاءَتْ إِلىٰ السَّجَّانِ بَعْدَ مُضِيِّ سِتَّةِ أَيَّامٍ، ودَفَعَتْ لَهُ بَعْضَ الدَّرَاهِمِ لِيُطْلِقَهُ لَهَا مِنَ السِّجْنِ». ولم يكن هذا إلا انعكاسًا صادقًا وأمينًا لشيوع تلك الظاهرة بالفعل في العصر المملوكي[4] وطوال العهد العثماني[5]. وتكشف الحكاية عن عدة أنماط من الشخصيات أراد ابن مماتي أن يهتك سترها من خلال الحوار، وهي شخصية قراقوش الحاكم الأبْلَه الذي يتلاعب به حرَّاسه؛ لعلمهم ببلاهته، والجند

---

(1) محمد رجب النجار، جحا العربي، ص١٠٨.

(2) يعد هذا المنصب من توابع القضاء، ولأهميته الكبيرة في تحقيق العدالة ونشرها بين الناس، كان لا يتولاها إلا «ذو الأقدار الجليلة والأخطار الحفيلة»، وقال ابن خلدون: «وظيفة ممتزجة من سلطة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلىٰ علو يد وعظيم رهبة، وتقمع الظلم من الخصمين وتزجر المعتدي... وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم». ابن دريد، محمد بن الحسين، جمهرة اللغة، ط١، (حيدر آباد ١٣٤٥هـ)، ج٢، ص١٢٤؛ والجرجاني، الشريف علي بن محمد (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، التعريفات، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت ١٩٨٨)، ص١٨٥؛ والقلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا، (تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الفكر، دمشق ١٩٨٧)، ج٣، ص٢٧٣؛ وابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، المقدمة، (تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، دار الشعب، القاهرة د.ت)، ص٢٤٦.

(3) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٥.

(4) ابن شاهين الملطي (عبد الباسط بن خليل) ت٩٢٠هـ/١٥١٤م، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين (تحقيق، محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٧٥م)، ص٩٠؛ وأحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك - دراسة عن الرشوة (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩م)، الفصل الخامس ٩٥-١٢٨.

(5) محمد رجب النجار، جحا العربي، ص١٠١، بتصرف.

الفاسدون المرتشون الذين يعتمد عليهم الحاكم قراقوش في إدارة البلاد، والطبقة الشعبية المغلوبة على أمرها[1].

كذلك تقف نوادر الرمز القراقوشي موقف السخرية من شيوع ظاهرة «شاهد الزُّور» في القضاء، كما في الحكاية (الرابعة عشر)[2] «الميت الحي»، فيفضح القاضي والمدعي معًا، برغم معرفة القضاء بأن الشاهد يمكن تأجيره، وأن يقول ما يلقنه من دفع له، ولو على رقاب أقرب الأقربين، وهذا كله يعكس حقيقة واحدة هي اختلال ميزان العدالة، وأن القيم والمعايير مفقودة في أخطر مناصب الدولة في السلطتين التنفيذية والتشريعية معًا[3]؛ فإذا كان القاضي نفسه أو السلطة الطرف الآخر في القضية كما في الحكاية (الحادية والعشرين)[4] «عض أذن نفسه»، فلا أمل في العدل.. لقد ضاع، حيث تعلن السلطة أحقيتها في الوجود المطلق، وعلى حساب الجميع.

ولقد صورت حكايات «الفاشوش» تلك العصور بكثير من التفصيل، هذه العصور التي قام الحكم فيها على ركيزتين لا انفكاك عنهما، هما: الحماية والجباية، فالسلطة تدعي حمايتها للناس حتى ولو من أنفسهم، وفي المقابل هي تجبي نظيرها، حتى لو دفع الإنسان نفسه كاملًا مقابل هذه الحماية، وتحمل الحكاية (العشرون)[5] «ديك الغلام» هذه الدلالات بوضوح بصورة ساخرة، حين يأمر قراقوش: «خذوا منه ديَة عينيه» التي لم تُفقأ فقد حماها له، عندما توهم أن الديك سيفقأها له؛ لكنه في المقابل لا بد أن يقبض الجباية مقابل هذه الحماية «الوهمية»، «فضربوه عشرين جَلْدة قِيمة ثَمن الديك»؛ لتغيب كل معايير المنطق في الحكم، وليبقى الحاكم وحده لا شريك له في الوجود!

وهكذا يصبح الناس في حالة خوف دائم من السلطة الحاكمة، بحيث يكون موضوع السلطة في ذهن الناس الحذر من الاقتراب منها، والابتعاد عنها قدر المستطاع؛ وقد رأينا ذلك في الحكاية (الثانية عشرة) «سنة في يوم» ابتعادَ

---

[1] محمد مكي: السرد المشهدي، ص ٣٤٧، ٣٤٨.
[2] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٨.
[3] المرجع السابق، ص١٠٠، بتصرف.
[4] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٦.
[5] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٥.

الشعب عن الحكم، فقد قالت المرأة بعدما احتكت بالسلطة وحكمها: «هذه مرة وانقضت، وإن كانت لك تعود حط في... عود»؛ كدليل علىٰ ابتعاد الإنسان العاقل في هذا الزمان عن السلطة والحكم، وإلا فلا يلومَن إلا نفسه.

لذا فإن الرمز القراقوشي، بافتقاره للعدل، جعل من الناس موتىٰ وهم أحياء، وقد شددت حكايات «الفاشوش» علىٰ هذا المعنىٰ؛ ففي الحكاية (الثالثة)[1]: «الأرملة والكفن»، والتي لها ظلال من الواقع في زمن العزيز[2]، عندما يرفض قراقوش دفع ثمن الكفن للأرملة، واعدًا إياها به في العام القادم، فيتبادر إلىٰ الذهن تناقض الحكم. وما الفائدة منه حينئذ؟ وهو ما يدل علىٰ توجه الحكم الواضح تجاه الناس «تلبسه هي بدلًا عنه»؛ إذ لا تعير هذه السلطة اهتمامًا: مَن سيعيش ومَن سيموت، كل ما يهمها هو إنفاذ أوامرها في الوقت الذي تريد، حتىٰ لو مات الناس وهم أحياء.

ونرىٰ تلك الدلالة وبصورة أوضح في الحكاية (الرابعة عشرة)[3]: «الميت الحي»؛ إذ لا يعدم الحاكم وسيلة في نهب أموال الناس، ولو عن طريق دفنهم أحياء؛ إذ يعيش الناس ميتون رغمًا عنهم، بحيث يجيء هذا الإصرار علىٰ دفن رجل حي بمسوغ سلطوي بامتياز؛ إذ أن عدم امتثاله لأوامر قراقوش بالدفن، قد يشجع باقي «الأحياء الأموات» علىٰ عدم الدفن، وذلك حين يقول: «لئلا تطمع فينا الموتىٰ، ويمتنعون مثلك من الدفن بعد هذا اليوم.. دفناه بأمر قراقوش».

إن قيمة الحياة والموت في حكايات «الفاشوش» تظهر بشكل جلي أنها لا تأتي من لدن واهبها، ولكن من مدي نفعها وضررها لهذه السلطة، وأكبر مثال

---

(١) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٤.

(٢) لم يحمل الشعب المصري الكثير لأبناء صلاح الدين السبعة عشر ذكرًا والابنة الصغيرة له، وبالرغم من أن العزيز عثمان بن صلاح الدين حكم مصر بعد والده مباشرة خمس سنوات، وبالرغم من عدله وإحسانه، فإن أيامه كانت بؤسًا وشقاء علىٰ المصريين بسبب ما ألم بمصر من أزمة اقتصادية (٥٩١-٥٩٢هـ/١١٩٤م) أدت إلىٰ كثرة الوَفَيات، حتىٰ لم يجد الناس الأكفان يكفنون بها موتاهم؛ ولذا فلم يعر المصريون أبناء صلاح الدين الأيوبي الاهتمام، ورأوهم غير جديرين بالبنوة لصلاح الدين البطل الصوفي صاحب الشرعية كما تخيلوه، ومن ثم تجاوزت سيرة الظاهر بيبرس «أبناء صلاح الدين»، وجعلوا أخاه الملك العادل وابنه الكامل ولدين له. انظر: ابن الأثير، الكامل، ٢٣٤/١٠؛ وابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار ١٢٣/٣؛ وسيرة الظاهر بيبرس، ٣٣/١، ٤٤.

(٣) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٨.

علىٰ ذلك الحكاية (الخامسة عشرة)[1]: «اشنقوا القفاص»، فالحاكم الذي تعرض عليه قضيه قتل، يقوم بتجاوز القصاص العادل علىٰ القاتل؛ لأنه من بطانته النافعين له، بل يزيح القصاص علىٰ أناس أبرياء لا ينجيهم إلا مدى نفعهم لذات الحاكم المتفرد بكل شيء، حتىٰ الموت والحياة ذاته، يقول ابن مَمَّاتي علىٰ لسان قراقوش: «إن الذي قتله نافع وأنت غير نافع.. وهل يصح أن أخرب البلد بقتل الناس النافعين بدلًا عن ابنكم يا ظالمين، انصرفوا عني»[2].

وتتصاعد حملة التشنيع والسخرية من الفاسدين حتىٰ تبيح الحكايات لنفسها طعنهم في رجولتهم، وإبراز بطولتهم الزائفة في حكاية (البيع لِلكَسْلَان)[3]؛ حين: «نَامَ مَكْسُوفًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ»، علىٰ الرغم من أنه كان خصيًّا لا يأتي النساء، فالمقصود هنا كل «قراقوش حاكم» عاجز عن القيام بواجباته تجاه بيته، يتبعه بالضرورة عدم قدرته علىٰ الاضطلاع بواجبات الحكم الذي لا يستحقه. أما في الحكاية (الخامسة)[4]: «جزاء اللوطي»، فهو يجرس بعض الأمراض الاجتماعية التي ظهرت في الطبقة الحاكمة حين، يقول: «تريد أن تجدد علينا فعل قوم لوط الذين قطع الله دابرهم، وأراح منهم العباد والبلاد، قطع الله نسلك ونسل من يمشي في هذا الشارع الجديد مثلك». ثم لا يختم القصة إلا بعد أن يتمنى مصير هؤلاء الفاسدين: «وفي أثناء المناداة مات الرجل من الوجل، ومما أصابه من الخجل».

وهكذا يستعير الوجدان الشعبي قصصًا وردت في حكايات الحمقىٰ والمغفلين ليخلعها علىٰ قراقوش بعد إعادة صياغتها ونسبتها إليه، إضافة إلىٰ استعارة بعض القصص المنسوبة إلىٰ جحا[5]؛ لتغدو شخصية قراقوش أحد أطرف الشخصيات الغريبة الأطوار في التاريخ الإسلامي، فبدا لا يحب السودان، ويحب البيضان؛ كونه أبيض صقليًّا، ولا يحب النساء ولا يتودد إليهن مطلقًا؛ كونه طواشيًّا مخصيًّا، ويمقت الأكراد بسبب كونه روميَّ الأصل، وأجرود أزطَّ ليس له لحية، ومن ثَمَّ فانتصاره للأجرود في حكاية (مخلوق بلا لحية) علىٰ

---

(1) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٠، ١٦١.

(2) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦١.

(3) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٠، ١٥١.

(4) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٦.

(5) كارين صادر، الأمير قراقوش، ص٩٠.

حساب الملتحين، إنما هو انتصار للعجَم علىٰ العرب الخلَّص؛ إذ كان العرب معروفين بإطلاق اللحىٰ وعدها رمزًا للرجولة والفحولة، ومن ثَمَّ فالإسقاط هنا في الحكم الجائر وهو بمثابة رد علىٰ الذين يستنكرون كيف يحكم قراقوش الأعجمي «الأجرود» - الذي بحسب تعبير ابن مماتي «بلا لحية كالولد الصغير» - العرب ذوي اللحىٰ والفحولة[1]، فنراه عسكريًّا متجهمًا شديد المعاضَدة للجند، سواء في الحق أو الباطل، كثير الإرهاق للفقراء والنقمة علىٰ الأغنياء، جائرًا في أحكامه علىٰ الجميع؛ ليبقىٰ علامة ورمزًا للظلم عند الطبقات الشعبية وأنموذجًا للحاكم القاسي الذي لا يعرف الرحمة[2]، وعبرة لمن تسول له نفسه العسْف والجور بالطبقات الشعبية.

هل يصح ما نسبه ابن مَمَّاتي إلىٰ قراقوش في الحكايات؟

ممن نفىٰ عن قراقوش ما نسبته إليه «الحكايات» وذهب إلىٰ أنها موضوعة عليه: أبو شامة المقدسي[3]، وابن خَلِّكان[4]، وابن أيبك الدَّواداري[5]، وابن كثير[6]، والملك الأشرف الغساني في (العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك)[7]، والعليمي في (التاريخ المعتبر في أخبار مَن غبر)[8]، وابن العماد الحنبلي[9]، وصالح الجاسر[10]، الذي أنصف قراقوش من خلال تتبُّعه للأحداث، وذهب الجاسر إلىٰ أن الأسعد بن مَمَّاتي دعاه الحسد إلىٰ وضع هذه الحكايات علىٰ قراقوش؛ لأنه كان يرىٰ نفسه أجدر من قراقوش عند صلاح الدين الأيوبي، فلصق بقراقوش هذه الأوصاف السيئة، حتىٰ صار اسم قراقوش مرادفًا للحُمْق والغباء والجهل والظلم.

---

(1) محمد مكي: السرد المشهدي، ص ٣٥٩.
(2) محمد الفيل، الثقافة المصرية بين الرسمية والشعبية ٢٠٥/١.
(3) الروضتين ٤٨٤/٤، ٤٨٥؛ الذيل علىٰ الروضتين، ص٩٦.
(4) وفيات الأعيان ٩١/٤، ٩٢.
(5) كنز الدرر ٥١/٧.
(6) البداية والنهاية ٧١٢/١٦، ٧١٣.
(7) العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ص٢٧٠.
(8) التاريخ المعتبر في أخبار مَن غبر ١٢١/٣.
(9) شذرات الذهب ٣٣١/٤.
(10) راجع الفصل الثاني من كتابه (قراقوش المظلوم حيًّا وميتًا)، فقد ذكر فيه الأسباب التي جعلت الحكايات المشوَّهة تُلْصق بشخصية قراقوش.



المحكومون

تعلو داخل حكايات «الفاشوش» قِيَم كبرىٰ يبحث عنها الناس أو ينادون بها، فهي تتعمد التبئير[1] علىٰ قيمة العدل في حياة الناس؛ فالحكايات تحتوي علىٰ شخوص يجمع بينهم التطلع للعدل وللحاكم العادل، ولكنها دائمًا تصطدم بميزان العدالة غير المنصف، متمثلًا في الحاكم والقاضي قراقوش الذي كان له رأي في معاملة السُّوقة والعامة، وهو أخذهم جميعًا بالقهر والقسوة، وإذا حضر الاستبداد غابت المعارضة، وهكذا فعل بالأسرىٰ، وبالعامة الذين سخرهم في بناء الأسوار والحصون[2]، وقد شاع عنه أنه كان يجبرهم علىٰ العمل في السُّخرة مقابل الجِراية بلا رادع ليلَ نهار، وهو ما نلمسه في سيرة الظاهر بيبرس[3]؛ لكن من جهة أخرىٰ تضع تلك المظالم أمامنا تصور هذه الجماعة الشعبية للعدل، وهو تصور ملازم لوجودها، يصاحبها علىٰ مرِّ الزمان مهما اختلفت العصور وتعاقبت الدول؛ إذ يحمل سر قوتها الوحيدة أمام الحاكم وسطوته، قوةُ الحق. حتىٰ وإن بدا المشهد المصري شديد الإعتام، ولا يفتح نوافذ علىٰ الخيال، ولا تتسرب من مسامّه المغلَقة آفاق للتفاؤل.

فمما يُظهر أمر هذه الجماعة الشعبية، أنهم عندما كان الفاطميون يحكمون وفي يدهم مقاليد السلطان، قاوموا وسخِروا من أفكارهم، بل تَبنَّوا مواقف رجال

---

[1] التبئير هو المفهوم الذي جاء ليحل محل وجهةِ النظر أو المنظور في الدراسات ما قبل السردية. (سعيد يقطين، الكلام والخبر - مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٢٢٥).

[2] عبد اللطيف حمزة، ثلاث شخصيات، ص٣٥٦، ٣٥٧.

[3] سيرة الظاهر بيبرس، تقديم: جمال الغيطاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ٣٧/١-٣٨.

السُنة وهم
الدولة الفا
الحزن (ا
أعينهم
المعرو
الأيوبا

القو
أم

الجمعة بطاقة للعزيز ثاني حكام الدولة الفاطمية جاء فيها[1]:

[السريع]

إنـا سـمعنا نسـبًا منكـرًا ... يُتلىٰ علىٰ المنبر في الجامعِ

إن كنـت فيمـا تـدعي صـادقًا ... فـاذكر أبًـا بعـد الأب الرابـع

أو فـدعِ الأنسـاب مسـتورة ... وادخل بنا في النسب الواسع

فـإن أنسـاب بنـي هاشـم ... يَقْصُـر عنهـا طمـع الطـامع

فقرأها العزيز ولم يتكلم. ثم صعِد العزيز المنبر يومًا آخر فرأىٰ ورقة فيها مكتوب[2]:

[المنسرح]

بـالظلم والجَـور قـد رضـينا ... ولـيس بـالكفر والحماقـهْ

إن كنـت أُعطيـتَ عِلْـمَ غيـبٍ ... فقـل لنـا كاتـب البطاقـهْ

وقد حرص خلفاء الدولة الفاطمية أشد الحرص علىٰ أن تعرف دولتهم بالعلوية والفاطمية، وهذا يتضح من خلال مراسلاتهم ووثائقهم، وتمسكهم بالانتساب إلىٰ الروضة المحمدية، وكونهم لم يكونوا يفضلون تلقيبهم بالعبيديين؛ لأن في هذا اللقب من السخرية والاحتقار لهم. انظر: القلقشندي، صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا، (تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٤٩٣/٣؛ والمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، (تحقيق: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة - ١٩٦٧م)، ٢٢/١؛ وابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، (بيروت - ١٣٨٩ه)، ١٢٤/٦؛ وأبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، (ط١، المطبعة الحسينية، القاهرة - د.ت)، ٦٧/٢؛ والشيال، جمال الدين، مجموعة الوثائق الفاطمية، (ط٢، دار المعارف، مصر - ١٩٦٥م)، مج١، وثيقة رقم ٥ ص٢٣١، مج١، وثيقة رقم ٨ ص٢٦٧.

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١١٦/٤.

[2] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١١٦/٤.

وتحفِل المصادر التاريخية بالأمثلة العديدة الدالَّة علىٰ مقاومة المصريين للفاطميين ورفضهم لهم، أو عدم الاحتفاء بهم أو تأييدهم علىٰ الأقل، فكم تهكمت مصر في العصر الفاطمي من تعاليم الشيعة الإسماعيلية، وكم من أوراق وضعتها للفاطميين علىٰ المنابر تتحدىٰ وتتهكم وتطعن في نَسَبهم، فأعادت مصر الرشاد إلىٰ العزيز بالله بعد أن تهكمت عليه، كدأبها يوم ادعىٰ عِلْم الغيب حتىٰ اضطر العزيز إلىٰ الإقلاع عن بدعته بل اعتذر أخوه العباس، واضطر الفاطميون إلىٰ أن يغيروا عادات عقائدهم حتىٰ تتلاءم مع طبيعة المصريين، بعد أن باءت كلُّ محاولاتهم لحمل مصر علىٰ اعتناقها بالفشل.

لم يغب عن فكر صلاح الدين في تعامله مع المذهب والتراث الفاطمي آراء فقهاء المشرق الذين أحاطوا به، والشيوخ الذين تولوا التدريس في المدارس السُّنية الحديثة، وكان معظمهم من مناطق المشرق الإسلامي الذين عُرفوا بتشددهم المذهبي، ولم يدرك طبيعة الموقف المصري الشعبي من الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلي، وانعكس ذلك في الحقيقة التاريخية القائلة بأن الفاطميين اعتمدوا في إدارة دولتهم علىٰ المغاربة وعلىٰ أهل الذمة، بحيث يعتبر بعض الباحثين أن العصر الفاطمي كان العصر الذهبي لأهل الذمة في مصر.

ولهذا لم تقتصر هذه السخرية السياسية علىٰ نسب الفاطميين[1] وسلوكهم، بل اتصلت أيضًا بإدارتهم وكبار موظفيهم وما كان من تعيينهم لليهود في المناصب الكبرىٰ، فاحتج المصريون بطريقتهم فقالوا:

---

(1) للاطلاع علىٰ محضر القدح في نسب الفاطميين الذي كتب في عهد الخليفة العباسي القائم بالله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م)، ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ١٥٤/٨-١٥٥؛ والمقريزي، الاتعاظ، (تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧١م)، ٢٢٣/٢؛ والخطط، ٣٥٦/١؛ والعيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسىٰ (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، (مخطوطة المكتبة القادرية رقم ١٤٨٢، ورقة رقم ١٨٦ب)؛ وابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٢٩، ١٩٧٢م)، ٥٣/٥.

[المنسرح]

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملَكوا

العزُّ فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملِك[(١)]

وما زال المصريون يعنفون الفاطميين بمثل هذه القطعة وغيرها من الاحتجاجات؛ لإبعاد اليهود عن أعمال الدولة ودواوينها[(٢)].

لكن ما حدث بعد ذلك، أنه عندما بدأ الصراع الفاطمي الأيوبي علىٰ الوصول إلىٰ سُدَّة الحكم في مصر، وقفت الجماعة المصرية حائرة تحاول التمسك بأفكار خاصة بها، لا هي شيعية[(٣)] ولا سُنية[(٤)]، فقد كان لدولة الفاطميين في نفوس بعض المصريين من أتباع الفاطميين أو المتعاطفين معهم مكانة كبيرة، كما كانت تعني بالنسبة لأغلبية المصريين مصر القوية التي كانت تناوئ، علىٰ عهد قوتها، خلافة العباسيين؛ إذ كانت تعتمد عليهم في دواوينها بالإضافة إلىٰ أن أيامها كانت

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ١٩٧/٢.

(٢) مثل العزيز بالله الذي عزل بعض اليهود، وأحل مكانهم المسلمين، علىٰ أنه بعد ذلك أعاد بعضهم إلىٰ وظيفته السابقة. للمزيد انظر: شوقي ضيف، الفكاهة في مصر (دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص٤٠؛ وعطية القوصي، اليهود في ظل الحضارة الإسلامية (مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، القاهرة ٢٠٠١م)، ص١٦.

(٣) الشيعة: لغة: أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شيع، وأصلها من المشايعة والمطاوعة. أما اصطلاحًا، فقد غلب هذا الاسم علىٰ من يوالي الإمام علي بن أبي طالب وأهل بيته الأطهار. للمزيد ينظر: الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٣٤٨هـ/٩٣٩م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، القاهرة - ١٣٨٩هـ)، ص٥؛ والإسفرائيني، أبو المظفر (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م)، التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية من الفرق الهالكين، (تحقيق: محمد زاهد الكوثري، القاهرة ١٩٤٠م)، ص١٩٤؛ وابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، مادة (ش.ي.ع)، (دار صادر، بيروت ١٩٦٨م)، ٥٥/١٠؛ والسبحاني، جعفر، المذاهب الإسلامية، (ط١، مؤسسة الإمام الصادق، بغداد١٤٢٣هـ)، ص١٣.

(٤) الجماعة الشعبية دائمًا تقف ضد أبناء الهرم العلوي الحاكم، سواء إذا كانوا سنة أم شيعة، ففي فترة حكم الفاطميين صار أهل السنة مطاريد ويعيشون داخل بناء الهرم الشعبي، أما في فترة حكم آل أيوب فقد صار أهل الشيعة مطاريد ويجاورون أهل الحارات، بل ويختفون بين صفوفهم.

في مصر أعيادًا متصلة، ولم يعرف لها مثيل من قبل للمسلمين وللمسيحيين أو اليهود علىٰ حد سواء[1]، وكانت تعرف لدي بعض المؤرخين «دولة المصريين»[2]، وقد عبر بعض المؤرخين عن وفائهم لتلك الدولة، وحزنهم وجزعهم علىٰ زوالها من خلال رثائهم الخليفة الفاطمي العاضد[3].

لقد كان سقوط الدولة الفاطمية يعني لدىٰ بعض المصريين ضَعْف مركزهم الإقليمي وعودة تبعية بلادهم لخلافة عباسية تتهاوىٰ[4]، ودخولهم في طاعة حكم عسكري استبعد من دواوين حكومته كل رجال النظام السابق وأخرجهم من الجيش والوظائف المهمة، واستولىٰ علىٰ قصور الخلافة لنفسه ولأهل ثقته، وأغدق عليهم الإقطاعات[5] والأراضي[6]؛ ومن خلال حكاية «اشنقوا

---

[1] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (تحقيق: محمد مصطفىٰ زيادة، القاهرة ١٩٥٧م)، ٤٣/١؛ وانظر: جمعة جمال عبد العال، الثورات الشعبية في الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م)، (رسالة ماجستير - غير منشورة - كلية الآداب، جامعة الزقازيق ١٩٩٦م)، ص٢٣.

[2] يقصد بالمصريين هنا (الفاطميون) وليس الشعب؛ وفقد نسب الحكام الفاطميون لمصر، وهي دلالة علىٰ مدىٰ تأثيرها. انظر: أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (تحقيق: محمد حلمي أحمد، المؤسسة المصرية للتأليف والطباعة، القاهرة ١٩٦٢م)، ص٥٦٧؛ وجمعة جمال، ص٢٣.

[3] ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة، القاهرة)، ٣٥٧/٦.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٥/١٠؛ وعبد الرحمٰن بن إسماعيل الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢٠٧/٢؛ وابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم التاريخي)، ٥٨/٣؛ وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص٦٤؛ والسيد الباز العريني، الأيوبيون، ص٤٣؛ وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ١٩٩٦م، ص٢٦-٢٧.

[5] الإقطاعات: تجري علىٰ الأمراء والجند، وعامة إقطاعاتهم بلاد وأرض يستغلها مقطَعها ويتصرف فيها كيفما يشاء، وربما كان فيها نقدًا يتناوله وهو القليل، وقد كانت الإقطاعات التي تعطىٰ للأمراء في مصر أكبر وأكثر مَن الإقطاعات التي تعطىٰ في بلاد الشام، وتكون بقدر الثلثين إلا نائب الشام، فقد كان إقطاعه يقارب إقطاع أكابر المقدمين في مصر. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشىٰ، ٥٢/٤.

[6] يؤيد ذلك ما ذكره المقريزي، حيث قال: «وأما منذ أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلىٰ يومنا هذا - أي زمن المقريزي - فإن أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده». الخطط، ٩٧/١.

القفّاص»[1] نستطيع أن نلمح بوادر الصراع السياسي الأيوبي الفاطمي؛ إذ تزامنت مع الثورة الشهيرة للشاعر «عُمارة اليمني[2] الملقب بنجم الدين»[3]، لإعادة نظام الحكم الإسماعيلي[4] ثورة أخرىٰ بالإسكندرية قام بها رجل يدعىٰ «قديد القفّاص»، ولكن لم يكن هناك تنسيق بين الثورتين، بل إن التوافق الزمني

---

(1) الحكاية قريبة الشبه بأيام نفي سعد زغلول حين منعت السلطات البريطانية مشايخ القهاوي والمسارح والمطربين تقديم أي أغنية أو مونولوج أو استعراض عن سعد زغلول أو أي شيء يخص القضية الوطنية من الأساس، وقتها كانت الأغاني الوطنية وخصوصًا من سيد درويش علىٰ أشدها، فلحن وغنىٰ أغنية «يا بلح زغلول» ووعىٰ الشعب المصري مغزىٰ ما في أغنية «يا بلح زغلول» من تحريض علىٰ الإنجليز ووجوب السعي علىٰ النضال، والتفاف الشعب حول رمزه وبطله «سعد زغلول».

(2) عمارة اليمني، شاعر معروف له ديوان مطبوع. كان من المحالفين للفاطميين، وطالما مدح الفاطميين وأيامهم، فقد عمل عمارة علىٰ إعادة الحكم للدولة الفاطمية وعد الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمي، وبلغ به الأمر إلىٰ تقليل شأن صلاح الدين، فكان يطلق عليه لقب «المملوك الصغير»، وقتله صلاح الدين سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م). ينظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ٤٨/١؛ والمقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٥٤.

(3) عُرف عن الوزير طلائع بن رزيك (٥٤٩-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦٠م) حبه واهتمامه الواسع بالشعر والشعراء، فقد أكرمهم وقربهم منه، ومنهم عُمارة اليمني، حتىٰ غدا هذا الشاعر من شعراء الدولة الفاطمية بالرغم من كون مذهبه مغايرًا للمذهب الإسماعيلي؛ لأنه علىٰ المذهب السُّني، «وقد اشترك معه كل الفئات الناقمة علىٰ الحكم الجديد بعد أن لحق بهم الضرر الجسيم، نتيجة سقوط النظام الفاطمي، حيث قطعت رواتبهم، وأخذت إقطاعاتهم وأصبحوا يعانون الذل والفقر، ليصبح الأمر كأنه إحلال ديكتاتورية بأخرىٰ، ولقي حتفه علىٰ يد صلاح الدين الأيوبي؛ إذ اتهم بالخيانة فتم إعدامه سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م». ابن الأثير، الكامل، ١٢٣/٩؛ وأبو شامة، الروضتين، ٢١٩/١-٢٢٤؛ وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧٠/٦.

(4) الإسماعيلية: فرقة من فرق الشيعة تقول بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه، ولا تعترف بإمامة ابنه الأصغر موسىٰ الكاظم كما تقول الموسوية. للمزيد ينظر: الرازي، أحمد ابن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي (ت٢٧٥هـ/٨٨٨م)، الزينة في الكلمات الإسلامية، (مخطوطة، نسخة مصورة في مكتبة المتحف العراقي تحت رقم ١٣٠٦)، ورقة رقم ٢٣١-٢٣٢؛ والنوبختي، أبو محمد الحسن بن موسىٰ (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م)، فرق الشيعة، تصحيح ريزر، (إسطنبول ١٩٢١م)، ص٣٧، ٥٧-٥٨؛ والقرطبي، عريب بن سعد (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م)، صلة تاريخ الطبري، (مطبعة الاستقامة - ١٩٣٩م)، ص٣٦؛ والأعظمي، محمد حسن، عبقرية الفاطميين، أضواء علىٰ الفكر والتاريخ الفاطمي، (نشر مكتبة الحياة، بيروت١٩٦٠م)، ص١٤؛ والشيرازي، محمد الموسوي، الفرقة الناجية، (تعريب وتحقيق: فاضل الفراتي، ط١، مكتبة الأمين - ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ٣٥٤/٢-٣٥٥.

كان بفعل الصدفة البحتة، وكانت هذه الثورة تهدف لإعادة النظام الفاطمي، حيث ادعىٰ «قديد القفَّاص» النسب لأهل البيت الفاطمي, وأنه خرج من القصر صغيرًا، وأنه الوريث الشرعي لحكم آبائه وأجداده. وانتشرت دعوته بين جموع المصريين المحبين لآل البيت وسيطر القفَّاص علىٰ قلوبهم، لدرجة أن أصحاب الحرف حملوا إليه جزءًا من كَسْبهم وبعثت النساء إليه شطرًا وافيًا من أموالهن، واستطاع صلاح الدين أن يقضي علىٰ الثورة في مهدها ولكنه لم يستطع القضاء علىٰ صداها في الوجدان الشعبي؛ إذ تسربت إلىٰ حكايات قراقوش التي كانت نوعًا من المراوغة التي تؤكد علىٰ تعاطف الناس مع دعوة القفَّاص، ورفضهم للسائد المجتمعي، ورفضهم لبطش الحكام الجُدد.

لذا فإنه بقدر مشاعر الفرح التي سادت أرجاء الدولة العباسية بعودة مصر لدورها في الخلافة السنية، قابلتها مشاعر الحزن والأسىٰ في قلوب الكثير من المصريين الذين فقدوا الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في كنف الدولة الفاطمية من المنتفعين[١] أصحاب النهي والأمر كطائفة السودانيين الذين بدأ ظهورهم في مصر منذ أيام كافور الإخشيدي، وكانوا يُجْلَبون من الجنوب كجنود مرتزَقة، استعان بهم الحاكم بأمر الله علىٰ المصريين بالفسطاط، فهاجموا أرجاء تلك المدينة، واقتحموا بيوتها، وحماماتها ونهبوا أسواقها[٢]، وكانت لهم الحظوة والكلمة. ولا نعدم ظلالهم في أولىٰ حكايات قراقوش ووصف الرَّاوِي له بأنه: «كان يحب النساء البِيض، ويبغض السُّود ولو من الأحرار»[٣]. ربما في إشارة إلىٰ رفض أهل مصر لحكم الأيوبيين والمماليك الذين مسَّهم الرِّقُّ وعدم شرعية حكمهم؛ الأمر الذي أثار حفيظة العديد من المصريين والقبائل العربية، وكان موقف الرعية من «السلطة» يحمل تناقضًا مثيرًا؛ إذ كانت مشاعرها مزيجًا من الكراهية السياسة، والعداء الاجتماعي والولاء الديني[٤]، وما تبع ذلك

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٥/١٠؛ وعبد الرحمٰن بن إسماعيل الدمشقي، الروضتين، ٢٠٧/٢؛ وابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم التاريخي)، ٥٨/٣؛ وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦٤/٦؛ والسيد الباز العريني، الأيوبيون، ص٤٣؛ وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص٢٦-٢٧.

[٢] أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٨١/٤-١٨٢.

[٣] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٦، ١٤٢.

[٤] تفسير ذلك أن المماليك امتلكوا زمام السلطة السياسية وتركزت بأيديهم وظائف الحكم والإدارة العليا، مما جعلهم يتصرفون بوصفهم قلة عسكرية تحكم علىٰ أساس من القوة

من ثورة ضد المعز أيبك في بداية عصر المماليك، وقول زعيمهم حصن الدين ثعلب: «نحن أصحاب البلاد وأنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفىٰ أننا خدمنا بني أيوب، وهم الخوارج خرجوا علىٰ البلاد..»[1].

وفي حكايات «الفاشوش» نلمس صورة الأسود ذات الملامح الانتقاصية التي تلاحقه لدىٰ معظم الأمم، وكأن الحكايات تريد أن توحي لنا بتمادي الاستعلاء العرقي في المجتمع المصري آنذاك، وهو ما بدا واضحًا في الحكاية (الأولىٰ) «الجارية البيضاء»[2]، التي توجه نقدًا للحكم الأيوبي وما قام به من قمع للمصريين متكئا علىٰ رمز السيدة السوداء وجاريتها البيضاء التي تبوأت مكانة رفيعة علىٰ الرغم من أنها أساءت لسيدتها السوداء: «ينظر إلىٰ بياض الجارية التركية، وسواد المرأة ثم قال لها: أولك خَلْقُ اللهِ تَعَالَىٰ جارية تركية بيضاء، وأنت جارية سوداء، ما يقول ذَلِكَ إلا مجنون أو مدهوش، أفلا تكون هذه البيضاء جارية لك يا سوداء. يا غلمان، اجعلوا هذه التركية البيضاء سيدة لهذه السوداء، والسوداء جارية للتركية. فإن أرادت التركية بيعك باعتكِ أو أعتقتكِ. فقالت السوداء: ما أنصفت يا وزير!»[3].

وبالفعل لم ينصف الحكم الأيوبي طائفة السودانيين[4] الذين خدموا الخليفة الفاطمي، فتجمعوا مع جموع غفيرة من أهل النوبة بعد أن أرسل صلاح الدين جماعة إلىٰ الخصيِّ الأسود مؤتمن الخلافة، «فأخذوه وقتلوه، وأتوه برأسه، وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة، واستعمل علىٰ الجميع بهاء

والغلبة، وتنأىٰ بنفسها عن المشاركة في الحياة الاجتماعية، إلا من خلال المواكب السلطانية والأعياد والاحتفالات العامة. ثم إن المصريين، من ناحية أخرىٰ، لم يروا في المماليك عمومًا سوىٰ طائفة من الغرباء يحكمونهم بتفويض من الخليفة العباسي في القاهرة. كانت الكراهية السياسية بسبب ممارسات المماليك، ولا سيما في الشطر الثاني من ذلك العصر. وكان العداء الاجتماعي بسبب العزلة التي عاشها المماليك، أما الولاء الديني، فكان راجعًا إلىٰ الواجهة الدينية التي جعلت من المماليك حكامًا شرعيين مفوضين من الخليفة. قاسم عبده، مفهوم الدولة السياسي وصلته بالدين، (مقالات دار عين).

[1] المقريزي، السلوك، ٣٨/١، ٣٩.

[2] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص ١٤٢، ١٤٣.

[3] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٣.

[4] ابن كثير، البداية والنهاية ٤٣٤/١٦.

الدين قراقوش، وهو خصيٌّ أبيضُ»[1]، وألغىٰ صلاح الدين بدوره امتيازات أهل النوبة ووزَّع الإقطاعات المخصصة لهم علىٰ رجال أسرته وعلىٰ كبار قواده وحاشيته[2]، فخرجت الثورة المضادة متجهة نحو الشمال لاستعادة مصر من قبضة صلاح الدين، والانتقام لأنفسهم واستعادة نفوذهم، وإحياء الدولة الفاطمية، ودارت معارك دامية في القاهرة وصعيد مصر بين الفريقين راح ضحيتها عدد كبير من الفريقين، وانتهت بانتصار الآلة العسكرية لصلاح الدين علىٰ ثوار النوبة، واستولوا علىٰ تحصيناتهم وأسروا أعدادًا كبيرة من السودانيين وأهل النوبة[3]، وتحولوا من عبيد سادة إلىٰ عبيد بلا سيادة، مثلما أشار الرَّاوِي في حكاية قراقوش الذي نفذ أمره بقوة البطش: «اجعلوا هذه التركية البيضاء سيدة لهذه السوداء، والسوداء جارية للتركية»[4].

ولعل تلك الحكاية هي امتداد لظلال الصراع الذي دار بين السودانيين والأتراك منذ عهد أم المستنصر التي كانت جارية سوداء لأبي سعد التُّسْتَرِي اليهودي، فلما ولي المستنصر الخلافة ومات الوزير أبو سعد، ووزر المستنصر الفلاحي الذي اختلف مع التستري، فاستمال الأتراك وزاد في واجباتهم حتىٰ قتلوا أبا سعد. فغضبت لذلك أم المستنصر وقتلت أبا الفلاحي، وأسرعت في شراء العبيد السود، وجعلتهم طائفة لها، واستكثرت منهم وكرهت الأتراك، فلما وزر أبو البركات الجَرْجَرائي أمرته أن يغري العبيد بالأتراك، فخاف سوء العاقبة فلم يطاوعها، فلم يقبل منها، وساس الأمور أحسن سياسة إلىٰ أن قتل ووزَر بعده البابلي وأمرته فأخذ في أسباب ما أمرته به فتغيرت نيَّاتهم وصار في قلب كل طائفة من الأخرىٰ إِحَنٌ فكانت بداية الخراب[5]، وقد وجد الأتراك

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٤٦/٩.

[2] أبو شامة، الروضتين، ٥٣١/١؛ والنويري، نهاية الأرب ٣٦١/٢٨.

[3] ذكرها ابن خلدون في تاريخه بقوله: «وعزل جميع الخدّام واستعمل علىٰ القصر بهاء الدين قراقوش، وكان خصيًّا أبيض، وغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة واجتمعوا في خمسين ألفًا وقاتلوا أجناد صلاح الدين بين القصرين، وخالفهم إلىٰ بيوتهم فأضرمها نارًا، وأحرق أموالهم وأولادهم فانهزموا، وركبهم السيف. ثم استأمنوا ونزلوا الجيزة وعبر إليهم شمس الدولة توران شاه فاستلحمهم»، ١٠٥/٤؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٤٦/٩.

[4] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٦، ١٤٢، ١٤٣.

[5] الشيخ الأمين عوض الله، الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي، (ط١، دار المجمع العلمي، جدة ١٩٧٩م)، ٥٤.

منافسة شديدة من السودانيين في عهد المستنصر، فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة وقف فيها الجند المغاربة إلىٰ جانب الأتراك[1]، وفي العهد الأيوبي اتخذ السلطان صلاح الدين ضد السودانيين عدة أساليب، تتضح من خلال رسالة بعث بها السلطان صلاح الدين إلىٰ الخليفة العباسي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، من إنشاء القاضي الفاضل، ومن ذلك قوله: «وقد شرعنا في تلك الطوائف من الأرمن[2] والسودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم، وتارة بالأمور الفاضحة منهم، وتارة بالسيوف المجردة والنار المحرقة»[3]. وبعد أن تمكن صلاح الدين من التصدي لمحاولات السودانيين المستمرة في بداية العهد الأيوبي، لم نسمع عن أي ثورات لهم في القاهرة، ورضوا بالأمر الواقع، وأصبح حالهم كحال السيدة السوداء التي اشتكت من حكم قراقوش: «ولما رأت السوداء ذَلِكَ الحكم الَّذِي لا مفرَّ عنه، أخذت تتعطف بخاطر البيضاء التركية وتقول لها: أعتقيني إلىٰ وجه الله تعالىٰ، وأنا أعطيك كذا وكذا ولا أشتكيكي أصلًا. فقالت له التركية: إني قَدْ أعتقت جاريتي السوداء، فَقَالَ لها: جزاكِ الله خيرًا، انصرفي عني بجاريتك ولا تعودي ثانيًا»[4].

---

[1] محمد جمال الدين سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية، ص٧٤.

[2] اشترك الأرمن في الثورة التي قام بها الفاطميون والسودانيون سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، وخلالها أخبر أحد منجمي الأرمن الثوار بأن البلاد ستعود إليهم، غير أن جند السلطان صلاح الدين قاموا بالقضاء علىٰ الثورة، وكانوا يتمتعون بنفوذ قوي في العهد الفاطمي، بل إنهم كانوا لا يدفعون الجزية علىٰ غير ما كان عليه أهل الذمة من النصارىٰ واليهود، «وكان في دار الأرمن التي كانت قريبًا من بين القصرين خلق عظيم من الأرمن، كلّهم رماة لهم جارٍ في الدولة يجري عليهم، فعند ما قرب منهم الغزّ رموهم عن يد واحدة حتّىٰ امتنعوا عن أن يسيروا إلىٰ العبيد، فأحرق شمس الدولة دارهم حتىٰ هلكوا حرقًا وقتلًا، ومرّوا إلىٰ العبيد، فصاروا كلّما دخلوا مكانًا أحرق عليهم وقتلوا فيه إلىٰ أن وصلوا إلىٰ باب زويلة، فإذا هو مغلوق، فحصروا هناك واستمر فيهم القتل مدّة يومين. ثم بلغهم أنّ صلاح الدين أحرق المنصورة التي كانت أعظم حاراتهم، وأخذت عليهم أفواه السكك، فأيقنوا أنهم قد أخذوا لا محالة، فطلبوا الأمان، فأمنوا - وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة - وفتح لهم باب زويلة، فخرجوا إلىٰ الجيزة، فعدا عليهم شمس الدولة في العسكر، وقد قووا بأموال المهزومين وأسلحتهم، وحكموا فيهم السيف حتىٰ لم يبق منهم إلا الشريد؛ وتلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد». انظر: المقريزي، الخطط ٣/٢، ٥/٣.

[3] أبو شامة، مصدر سابق، ج١، ق٢، ص٦١٩؛ وعيد أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص٤٣.

[4] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٣.

ودخل العديد من السودانيين في خدمة بني أيوب، ورأينا السلطان الكامل يعمل في خدمته الأمير جوهر النُّوبي الذي كان من أبرز أمرائه واستمر في خدمة السلطان طوال حياته[1]. ولم تخل القاهرة من العبيد السودانيين الذين مارسوا حياتهم التقليدية كعبيد لأسيادهم الجُدد[2] بعدما تحولوا من عبيد سادة إلىٰ عبيد بلا سيادة.

كذلك تعرض حكايات «الفاشوش» الاضطهادات التي تعرض لها أقباط مصر؛ وهو ما حدث علىٰ فترات تاريخية متباينة - وأشار إليها المستشرق إدوارد وليم لاين - كإجبارهم علىٰ لبس الصليب الخشبي الذي يزن حوالي الخمسة باوندات في رقابهم، إضافة إلىٰ الأثواب والعمامات ذات اللون الأسود الداكن، والتي من الممكن أن تكون هذه العادة المفروضة نتيجة أن الخلفاء الفاطميين في مصر رأوا اللون الأسود هو اللون الذي ميز أعداءهم العباسيين فاعتبروه أكثر الألوان تناسبًا مع أثواب الأقباط الذين أُجبروا علىٰ تمييز أنفسهم[3].

والواضح أن صلاح الدين الأيوبي أخذ بمشورة القاضي الفاضل، الذي حذره من استخدام النصارىٰ في أي فرع من فروع الإدارة، ومنعهم من تولي مناصب إشرافية علىٰ الخزانة أو مناصب المفتشين، وطرد هو نفسه من عدة دواوين مختلفة عددًا من الإداريين والكتبة؛ إذ رأى أن وجودهم في هذه الوظائف يعد خطرًا علىٰ نظام صلاح الدين، وهم رجال كانت أقلامهم «حادة مثل الأشواك» بحسب وصفه. ويذكر المقريزي أن القاضي الفاضل طرد اليهود والنصارىٰ كلهم تقريبًا من الديوان[4]، ثم أمر بإزالة الصلبان الخشبية من فوق جميع الكنائس، ومنع دقّ النواقيس، وكذلك مواكب «أحد السَّعَف» أو «الشَّعانين»، وكذلك مُنع المسيحيون من ركوب الخيول أو البغال، وزاد التحول من المسيحية إلىٰ الإسلام في تلك الفترة، ويرجع هذا - بشكل يكاد يكون مؤكدًا - إلىٰ حقيقة استبعاد المسيحيين من الوظائف الحكومية.

---

(1) المقريزي، المواعظ والوصف بذكر الخطط والآثار ٢١٥/٣.
(2) عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص٤٣.
(3) إدوارد وليم لاين، عادات المصريين المحْدثين وتقاليدهم، (ترجمة، سهير دسوم، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٥٦٦.
(4) المقريزي، الخطط ٢٨٣/٣؛ وعبد الرحمٰن عزام، صلاح الدين، ص١٥٧.

وإن كان هذا لا يمنعنا من رؤية مجتمع منفتح على الآخر تارة، ومعادٍ له تارة أخرى، ونعايش لحظات التألق والالتزام بتعاليم الدين الإسلامي وسماحته، كما نعايش لحظات التزمُّت والابتعاد عن روح الدين وهو ما لمسناه - أيضًا - في حكاية الكاتب النصراني مع قراقوش وما آل له وضع الأقباط في العصر الأيوبي بعد أن انحسر عصرهم الذهبي في ظل الحكم الفاطمي؛ إذ ينفرد مؤرخ (سير البيعة المقدسة) بأن صلاح الدين عندما تولى الوزارة سنة ٥٦٤هـ: «أشار عليه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البَيْساني، أن لا يستخدم النصارى نظارًا على أموال الدولة، ولا مشرفين، فقبل قوله وعمل برأيه، ولم يرجع أحد من النصارى يستخدم في نظرٍ ولا مشارَفةٍ أيامَ صلاح الدين ولا مَن مَلك بعده من أولاده وذريته إلا القليل»[1]، ورغم أن السلطان صلاح الدين قد اتخذ سلسلة من الإجراءات إزاء أهل الذمة في بداية العهد الأيوبي[2] وإبعاد عدد من النصارى من وظائفهم، ورفض استخدامهم في الأعمال السلطانية أو دواوين الدولة، وفي ذلك انفرد ابن أيبك في حوادث سنة ٥٦٤هـ بقوله: إن صلاح الدين «قصد استئصال النصارى واليهود جملة كافية، فلم يقدر؛ كونه كان من أول مبتدأ أمره ووزارته، ولكل قادم دهشة»[3]، بل إن صلاح الدين همَّ بإخراج القبط من الدواوين لولا خوفه توقف دولاب الأعمال[4]، ولعل ذلك نتيجة لما قام به الأقباط من تأييد للفاطميين وتعاطف معهم في ثورتهم ضد صلاح الدين؛ نظرًا للتضييق الذي تعرضوا له منذ تولي أسد الدين شيركوه

---

[1] ساويرس بن المقفع (أسقف الأشمونين)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية (تحقيق: عزيز سوريال، وآخرين، القاهرة ١٩٤٨م)، مجلد ٣، ج ٢، ص٦٤.

[2] يذكر ابن مَمَّاتي أن «صلاح الدين الأيوبي أخذ الجزية من أهل الذمة اليهود والنصارى البالغين دون النساء والرهبان والعبيد والمجانين والشيوخ والفقراء. ويقال: إنها أخذت حسب قدرة الأشخاص، فالشخص من الأغنياء يدفع أربعة دنانير، والوسطى ديناران، والفقراء دينار وجزء من الدينار، بالإضافة إلى درهمين ونصف لكل الطبقات رسمًا لمصروف الحياة». ابن مَمَّاتي، قوانين، ص٣١٨؛ وابن جبير، محمد بن أحمد الكناني (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، (دار الكتاب اللبناني، بيروت د.ت)، ص٤٦.

[3] ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر المعروف بـ «الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب»، (تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٢م)، ٤٠/٧.

[4] سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي (دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م)، ص٣٥.

الوزارة للخليفة العاضد في سابع عشر ربيع الثاني عام ٥٦٤هـ/١١٩٦م[١]؛ حتىٰ وفاته عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م[٢]؛ إذ أحكم قبضته علىٰ دواوين الدولة، وعين أصحابه في أهم المناصب، وشدد في فرض القيود الاجتماعية علىٰ أهل الذمة، وذلك بعد شهر من تولي الوزارة، وألزمهم بلبس الغيار[٣] مرة أخرىٰ مثلما حدث في عهد الحاكم بأمر الله[٤]، ولم يَستثن منها موظفي الدولة من أهل الذمة - مهما علت مكانتهم ومناصبهم - الذين ضاقوا ذرعًا بهذه القيود، التي رفض شيركوه أن يخفف منها، أو يلغيها، وعندما بلغه أن ابن مَمَّاتي الأب الملقب بالخطير (ت٥٧٧هـ)، متولي ديوان الجيش مسيحي، ويتصرف في عمله بلا غيار، نهاه وألزمه بغيار النصارىٰ، وصرفه عن الديوان، مما اضطر ابن مَمَّاتي الخطير إلىٰ أن يدخل في الإسلام، ومعه أولاده؛ هربًا من هذه القيود، وحتىٰ يحتفظوا بمناصبهم المهمة ومكانتهم في الدولة[٥].

ولكن يبدو أنه بعد استقرار الأمور في القاهرة، عاد الأقباط إلىٰ ما كانوا عليه واحتفظوا بما كان تحت أيديهم من وظائف، وراحوا يعملون في خدمة السلطان صلاح الدين والأمراء الأيوبيين كافة بالقاهرة، وفي مقدمتهم الأمير نجم الدين أيوب، الذي احتفظ بعلاقة طيبة معهم[٦]. ورغم ذلك لم تعدم بعض

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ١١/١٠.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ٥٥/١٠.

[٣] التزم أهل الذمة في الدولة الإسلامية بعدة قيود تتعلق بالمظهر الاجتماعي، وهذه الالتزامات تشكل جانبًا مما اصطلح علىٰ تسميته بـ«العهد العمري» أو «الشروط العمرية» المنسوبة للخليفة عمر بن الخطاب، وتمثلت تلك القيود الاجتماعية في إلزام أهل الذمة بلبس الغيار، فإن كان يهوديًا وضع علىٰ كتفه خيطًا أحمر أو أصفر، وإن كان نصرانيًا شد في وسطه زُنارًا وعلق في عنقه صليبًا. للمزيد انظر: الشيزري (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، (تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م)، ص١٠٦، ١٠٧؛ وسلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول (سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٧٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م)، ص١٧٦، ١٧٧.

[٤] عطية القوصي، اليهود في ظل الحضارة الإسلامية، ص١٧.

[٥] سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر، ص٣٤.

[٦] عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة في العصر الأيوبي (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة بنها ١٩٩٣م)، ص١٤٥.

مظاهر التعسف ضد الأقباط[١] من وقت لآخر، مثل فرض الملك العزيز عثمان ضرائب باهظة علىٰ أهل الذمة[٢] ومنعه اسْتِخْدَامهم فِي شَيْء مِن الخِدم السُّلْطَانِيَّة وإلزامهم لبس الغيار[٣]. وتكشف القراءة المتأنية في حكاية "ثوب النّصْرَانِي"[٤] موقف قراقوش منه بقوله: «صَبَّخْتَنَا بِالسَّوَادِ»، وقوله له: «وَيْلَك، مَا تَغْلَطُهَا فِي دَفَاتِرِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ وتَلْحَسُهُمْ، صَارَتْ بَدْلَتُكَ سَوْدَاء! يَا غِلْمَان، ودُّوهُ إِلىٰ الحَبْسِ حَتَّىٰ تَبْيَضَّ بَدْلَتُهُ، ثُمَّ نُخَلِّصَه».

---

[١] يبدو أن عصر العزيز كان شديد الوطأة علىٰ الأقباط، ولم يجدوا من يحميهم أو يرفع عنهم الظلم، وهو ما نلمحه في حديث المقريزي عن كسر الخليج في عهد العزيز، يقول: «كسر بَحر أبي المنجا وباشر الْعَزِيز كَسره، وزَاد النّيل فِيهِ إصبعًا، وهِي الإصبع الثَّامِنَة عشرَة من ثَمَانِي عشرَة ذِرَاعًا، وهَذَا الْحَد يُسمىٰ عِنْد أهل مصر «اللُّجة الكبرىٰ». وفِي ثَانِي عشريه، رَحل الْحَاجُّ وتجدد مَا كَانَ قد درس ذكره ونُسي حكمه فِي مصر مُنْذُ عهد الْخَلِيفَة الْحَافِظ لدين الله من سنة أَرْبَعِينَ وخَمْسمائة، من الرفايع الَّتِي كَانَ القبط يختلقونها ويتوصلون بها إلىٰ المصادرات وخراب الْبيُوت وعمارَة الحبوس وإساءة السمعة عَن سُلْطَان الْوَقْت، فأجمع ابْن وهيب وكَاتب نَصْرَانِيّ وغَيرهمَا علىٰ أوراق عملت وانتدب الأسعد بن مَمَّاتي والشادُّ للكشف والرَّفْع إلىٰ فَخر الدّين جهاركس. وفِي ذِي الْقعدَة، كثر وثوب السكارىٰ بِمن يلقونه لَيْلًا وضربهم إِيَّاه بالسكاكين، فَلَا تَخْلُو لَيْلَة من قَتِيل أَو قَتِيلين، ولم يُؤْخَذ لأحد بثأر ولَا وقع كشف عَن مقتول مِنْهُم، ولَا تمكن والِي الْقَاهِرَة من مَنعهم. ووجد فِي الخليج سِتَّة نفر قَتْلَىٰ مربطين فَلم يسْأَل عَنْهُم ولَا وقع إِنْكَار لأمرهم». المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٤٩/١.

[٢] كانت خزانة الدولة تتسلم بشكل استثنائي، ضريبة علىٰ النفوس تسمىٰ ضريبة «الجزية»، وهي الضريبة التي يتم جبايتها من غير المسلمين (ما عدا النساء)، سواء كانوا من الفلاحين أو من أهل الحضر، وكانت الجزية عادة تعادل دينارين عن الشخص الواحد في السنة، وتدفع للخزانة الحكومية بشكل استثنائي، والمبلغ الإجمالي لإيرادات الجزية كان ينقص عامًا بعد عام، بسبب اعتناق الناس الإسلام، حيث يكتب ابن مَمَّاتي عن زيارته فيقرر أن الجزية نقصت إلىٰ نصف ما كانت عليه قبل ذلك، ويوافقه المقريزي في تاريخه عن ١١٩١م؛ إذ يقول: «إن كل ما تم جمعه من أموال الجزية هذا العام يساوي ثلاثين ألف دينار». انظر: ل. أ. سيمينوفا، صلاح الدين والمماليك في مصر (ترجمة، حسن بيومي، المشروع القومي للترجمة، العدد (٧٤)، القاهرة ١٩٩٨م)، ص١٣٦.

[٣] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٤٧/١؛ وعطية القوصي، اليهود في ظل الحضارة الإسلامية ص١٧.

[٤] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٣٤.

وفي العصر الأيوبي ورغم تمتع اليهود بدرجة من التسامح، إلا أن ذلك لم يمنع تورط أحد الكُتاب اليهود[1] في مؤامرة للإطاحة بصلاح الدين سنة ٥٦٤هـ بناء علىٰ طلب الخصيِّ (مؤتمَن الخلافة)[2]، الذي حرضه ليكتب بخطِّ يده رسالة وقعت في يد صلاح الدين كانت في الطريق إلىٰ الصليبيين لدعوتهم لمهاجمة مصر، حتىٰ إذا خرج صلاح الدين لقتالهم، انقلبوا عليه وأطاحوا بوزارته[3]، لكن ظل التواجد اليهودي في دواوين الحكم نتلمس صداه في حكاية «قراقوش مع الكاتب اليهودي»[4]: «فنظر عند ذَلِكَ الأمير بهاء الدين قراقوش في المحضَر، وقَالَ: يا هَؤُلَاءِ. كمَّلتم المحضر بخطِّ رئيس اليهود؟[5]. فَقَالُوا: لَا. فقَالَ: هَذَا كُلُّهُ زُورٌ وبُهْتَانٌ ومُحَالٌ، ورَمَىٰ المَحْضَرَ مِنْ يَدِهِ!».

---

[1] في نهاية الأرب للنويري في سياق حديثه عن «ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر، زمام القصور، وانتقال وظيفته إلىٰ قراقوش الأَسَدِي وحرب السودان»، «واتفاق هذا الخادم مع جماعة من الأمراء المصريين علىٰ مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلىٰ الديار المصرية، والاعتضاد بهم علىٰ صلاح الدين ومن معه؛ وإرساله الكتب مع إنسان، جعلها في نعله ولبسه.. وحين تم كشف أمره وقرّر الرجل بالعقوبة، فأقرّ أنّ الكتب بخط رجل يهودي، فاستحضره، فأقرّ بها» ٢٨/٣٦٠.

[2] عندما تعرض صلاح الدين إلىٰ مؤامرات الجند السودانيين بزعامة مؤتمن الخلافة، جوهر، الذي كان يخلف شاور في الوزارة، وحاول الاستعانة بالصليبيين، وسرعان ما فضح صلاح الدين أمره فقتله. وقد قضىٰ صلاح الدين علىٰ تلك الفتن تمامًا وأجلىٰ المتمردين إلىٰ الوجه القبلي، ثم عن الديار المصرية. ينظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، (بيروت، د.ت)، ٢٥٨/١٣.

[3] أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٧ه)، ١٧٨/١.

[4] انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٣٣.

[5] تولىٰ رئاسة اليهود في عهد صلاح الدين موسي بن ميمون، الذي كان اليهود يحبونه بشكل كبير، وقد عاصر أبو عمران موسىٰ بن ميمون سقوط الخلافة الفاطمية في القاهرة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، وشهد قيام دولة الأيوبيين، وكان من الشخصيات المقربة للسلطان صلاح الدين، وعاصر من بعده أكثر سلاطين الأيوبيين، وكان يقوم بتطبيبهم. وفي عهد أبي عمران موسي بن ميمون ازداد نفوذ اليهود في القاهرة وعلت مكانتهم الاجتماعية، مما دفع بالكثير من اليهود من خارج القاهرة إلىٰ المجيء إليها والاستقرار فيها، وكان منهم الكثير من العلماء ورجال الدين الذين وفدوا من بلاد الأندلس. وقد جرت عادة اليهود أن يتولىٰ رئيسهم منصبه طوال حياته، كما كان يرثه ابنه في رئاسة اليهود في غالب الأحوال، وقد تولىٰ إبراهام بن موسىٰ رئاسة اليهود بعد وفاة أبيه، علىٰ الرغم أن عمره كان لا يزيد علىٰ ستة عشر عامًا، بعد أن قام اليهود بتزكيته لدىٰ السلطات الأيوبية. انظر: عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص٦٤.

لذا لا تعطي حكايات «الفاشوش» ملامح عن أحوال أهل الذمة في المجتمع في العصر الأيوبي، سواء عانت الظلم والاضطهاد أم لا؛ بل إنها تعطي ملامح عن ما عاناه المصريون، الذين شملهم هذا الظلم دون تفرقه؛ فقد قدمت الحكايات صورة لحاكم ظالم وغشوم، يستبيح شرف زوجات المصريين ويقدّمهنّ لجنوده، كما تصوّره الحكاية (التاسعة)[1]، حين يقرّر أن يحتال علىٰ العدالة، ويقدّمها للجندي مدة تسعة أشهر أمام زوجها، فيبدو متقاعسًا عن كشف جرائم جنوده، ويؤسّس لما يهدم القيم الإنسانيّة في المجتمع، من كذب واحتيال، وتفريق بين الأزواج وقتل للأجنّة في بطون أمهاتهم.

وهي مواقف ليست غريبة أو بعيدة عن مجمل مواقف الجند وتصرّفاتهم حين كانت تتأخر رواتبهم، فيصبح العامة لقمة سائغة لأنياب معادية لجميع مفاهيم الحقّ والعدل، والرّحمة بالرّعيّة. وتتعرض بيوت الأغنياء للنهب المسلح والبلطجة، ويعاني الناس من حوادث السلب، كما تتعرض النساء للاغتصاب، حتىٰ لم يعد أحد يأمن علىٰ نفسه عند السير في الطرقات، ولا يجد من بيدهم زمام الأمور بُدًّا من التحرك لوضع حد لتلك الأعمال المخلة بالأمن والاستقرار، وليتم القبض علىٰ الأمراء المتهمين بهذه التصرفات والمحرّضين علىٰ الإضرابات، حيث يسجن بعضهم وينفىٰ بعضهم الآخر خارج البلاد[2].

وقد عمّ البلاء علىٰ أهل مصر، وخصوصًا أبناء الدروب والحارات[3]، بعد أن نهبوا الأهاليَ وقبضوا علىٰ مشايخ الخطط والصناعات المعروفين، ومُلِئ

---

(1) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥١، ١٥٢.

(2) حياة ناصر الحجي، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم السلاطين المماليك البحرية - دراسة تاريخية وثائقية في وقائع الممارسات المختلفة السلطانية والأميرية، لجنة التأليف والتعريب، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت ١٩٩٧م)، ص١٥.

(3) كانت الأسواق هي المستهدفة دائمًا وقت الأزمات السياسية، والتي تضاعفت حدتها في الشطر الثاني من عمر دولة سلاطين المماليك، من حيث ارتفاع معدل هذه الصراعات وحروب الشوارع علىٰ النحو الذي جعل حياة معظم السلاطين تنتهي بالقتل أو السجن. وبات كرسي السلطنة خطرًا علىٰ من يجلس عليه. ويحكي ابن إياس أن قنصوه الغوري، أقوىٰ أمراء زمانه، رفض العرش سنة ١٥٠١م، لكن الأمراء «... سحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكي، وحين ألحوا عليه اشترط عليهم ألا يقتلوه، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله...»، وهو ما يشي بمدىٰ الآثار السلبية للطائفية المملوكية علىٰ مفهوم السلطة في أيام الدولة الأخيرة. انظر: قاسم عبده، مفهوم الدولة السياسي وصلته بالدين في عصر سلاطين المماليك (مقالات دار عين).

بهم الحبس، واستولوا علىٰ كل أموال ذوي اليسار والتجار، إضافة لذلك فقد انخفضت القيمة المصرفية للعملة في مصر، واختفت العملتان الذهبية والفضية من التداول منذ مجيء صلاح الدين، وظهور عملة نحاسية رديئة بدلًا منها، وهي الفلوس[١].

فالواضح أيضًا أن «الفاشوش» يكشف بقوة عن الجانب الاقتصادي المتدني وانتشار الكثير من المساوئ، مثل الرشوة وظلم الرعية، وقلة الكفاءة لدي موظفي الإدارة وعدم قدرتهم علىٰ معالجة الأزمات التي تتعرض لها البلاد، والظلم والعسف الذي يمارسه موظفو الضرائب، وفساد القضاء، والإجراءات غير القانونية التي كان يمارسها بعض الموظفين في مسألة عقود البيع والشراء والتأجير، وما يعانيه الفلاح من وطأة الالتزامات المالية عليه، حيث عاش الفلاح في ظل النظام الإقطاعي الأيوبي ومن بعده المملوكي حياة بائسة كلها مغارم، وقد عبرت عنها الحكاية (الثَّانِيَةُ والعِشْرُونَ)[٢] بعنوان «ازْرَعُوا الصُّوف»، وفي الحكاية (الثَّالِثَةِ والعِشْرينَ)[٣] بعنوان «جُبْن وزَيْتُون» حتىٰ أصبح الفلاح كالأعمىٰ - في الحِكَايَة (الرَّابِعَةِ والعِشرينَ)[٤] التي عنوانها «الأَعور وِالجَار الأَعمَىٰ» - لا يملك أي شيء ليقدمه للإقطاعي الأعور سوىٰ عين فقدت قدرتها علىٰ أداء وظيفتها ولم يتركها الجار الإقطاعي للفلاح، ولعل المغزىٰ السياسي لهذه الحكاية غير بعيد، فنلمس في هذه الحكايات ما كانت تعيشه القري المصرية في هذه الفترة من ضنك وظلم بسبب ارتفاع خراج الأرض الزراعية؛ وتسلط أجناد الأمراء عليهم؛ تقربًا من أمرائهم للترقي في خدمتهم، والوسيلة إلىٰ ذلك هي المال[٥].

والحكايات لا تبتعد كثيرًا عن ما كان يعانيه الفلاح من حياة بائسة كلها مغارم وكبت سياسي تحت وطأة حكم جائر غاشم لا يستند إلىٰ عقل أو عدل؛ وقد أشار المقريزي إلىٰ طرف من العدوان الذي كان يقع علىٰ الفلاحين بقوله:

---

(١) جمعة جمال عبد العال، الثورات الشعبية، ص٢٤. انظر: الأب أنستاس الكرملي، النقود العربية والإسلامية وعلم النميات (ط١، القاهرة ١٩٨٧م)، ص٦٩.

(٢) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٦، ١٦٧.

(٣) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٧.

(٤) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٧.

(٥) إبراهيم طرخان، الإقطاع، ص٢٤٠.

«فنفذوا إلىٰ الأراضي الجارية في إقطاعات الأمراء، وأحضروا مستأجريها من الفلاحين وزادوا في مقادير الأجر، فثقلت لذلك متحصَّلات مواليهم من الأمراء، فجعلوا الزيادة ديدنهم كل عام، حتىٰ بلغ الفدان لهذا نحوًا من اثني عشر أمثاله، لا جَرْمَ أنه لما تضاعفت أجرة الفدان من الطين وتزايدت كلفة الحرث والبذر والحصاد وغيره، وعظمت شكاية العمال والولاة، واشتدت وطأتهم علىٰ أهل الفلح، وكثرت المغارم في عمل الجسور - خرب معظم القرىٰ، وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة، فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض»[1].

إضافة إلىٰ ما عانىٰ منه الناس من ضريبة أيوبية معروفة باسم «الأحكار»، وهي قيمة إيجارات معينة لمساحات عقارية سكنية أو بساتين يدفع أصحابها ضرائب سنوية معينة. ومن أهم تلك الأحكار ما هو معروف باسم "حكر البغدادية" بالقاهرة، وكان من أعظم البساتين في الدولة الفاطمية[2].

وقد كان صلاح الدين يعلم أن توريث الإقطاع سوف يؤدي إلىٰ نتائج عكسية بالنسبة للخدمات الحربية. وإلىٰ جانب ذلك فإن منح الإقطاعات بواسطة السلطان ليس معناه منح ملكيات الأراضي الزراعية لهذا المُقْطَع وليس معناه تمتع المقطَع بواردات الإقطاع لمدة طويلة، بل منح الإقطاع يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه ولأجناده مجموعة معينة من الضرائب مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التي كان ملزمًا بأدائها[3]. مما أدىٰ إلىٰ اهتمامه بجمع أكبر قدر من الضرائب في أقل وقت ممكن، مما انعكس أثره علىٰ الفلاح.

فقد كانت مصر في عهد الدولة الأيوبية مقسمة إلىٰ أربعة وعشرين قسمًا أو قيراطًا[4]: أربعة قراريط للسلطان وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد[5]. وكان علىٰ الأمير الأيوبي (المقطع) أن يكرس ثلثي وارده من الإقطاع لصيانة الجيش، وثلثًا لمصروفاته الشخصية، علمًا أنه كان يتسلَّم نوعين من الإقطاع،

---

(1) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٤٥-٤٧.

(2) المقريزي، الخطط، ١٢٠/٢.

(3) الغامدي، صلاح الدين، ص١٠١.

(4) القيراط: جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشره في أكثر البلاد، وعند أهل الشام جزء من أربعة وعشرين جزءًا. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ق.ر.ط) ٣٧٥/٧.

(5) المقريزي، الخطط، ٨٧/١.

إقطاع خاص لحاجاته الشخصية وإقطاع من أجل إطعام قطعانه وحمايتها[1]. وأصبح الفلاح لا حيلة له سوى الفلاحة بالإجبار، يقول السبكي: «ومن قبائح ديوان الجيش، إلزام الفلاحين بالإقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه». ووصل الأمر بالفلاح أنه إذا حدث وهرب فلاح، فرارًا من الظلم والقسوة، أعيد قسرًا، يقول السبكي: «وقد جرت عادة الشام، بأن من نزح من دون ثلاث سنين، أي خلال ثلاث سنوات، يلزم ويعاد إلىٰ القرية قهرًا، ويلزم بشدِّ الفلاحة، والحال في غير الشام أشدُّ منه فيها. ومن قبائحهم يقولون: هذا شرع الديوان»[2]، وشرع الديوان هذا، المقصود به ديوان الإقطاع أو ديوان الجيش، وهو في الواقع استرقاق للفلاحين.

ولما كان لسان حال العامة هو الافتقاد للعدل، فقد أفصحت عن ذلك الحكايات من أولها في عبارة السيدة السوداء التي «قالت: ما أنصفت يا وزير!» أو كما قال صاحب حكاية «الدائن والمدين»[3]: «فَقَالَ صاحب الحق: يا حضرة الوزير، تركت حقي وأجري علىٰ ربي؛ حيث إني لم أجد لي نصيرًا خرب الله بك البلاد، وأذل علىٰ يدك العباد، وتركه ومضىٰ ممتثلًا لحكم القضا»، وفي حكاية الفلاح مع الجندي[4]: «فَقَالَ الفَلَّاحُ: يَا وزِيرُ، تَرَكْتُ أَجْرِي عَلَىٰ اللهِ». ونجد الحكايات تعمد أحيانًا إلىٰ التكرار في الحوار لتوضيح وتأكيد معانٍ بذاتها مع اختلاف المتحدثين. وهو في هذا التكرار يؤكد أهمية هذا العدل والإنصاف الذي أدىٰ غيابه إلىٰ كل التمزق الذي تعرض له المجتمع المصري فيما بعد؛ طمعًا في عرش أو زعامة أو سلطة. وفي الحِكَايَةِ (الحَادِيَةُ والعِشْرِينَ)[5] «عَضَّ أُذْن نَفسَه»، حين ادعىٰ أحد الأشخاص علىٰ آخر أنه عض أذنه ويطلب منه أن يقتص له بحق الشرع وحق العدالة، وحين سَأَلَهُ قَرَاقُوشُ، فأنكر وقال: هُو كَاذِب، بَلْ هُو عَضَّ أُذْنَ نَفْسِهِ، وأخيرًا هداه تفكيره إلىٰ أن يجرب بنفسه، علَّه يجد في التجربة ما يحسم الأمر في هذه القضية فَسَقَطَ عَلَىٰ يَدِهِ فَانْكَسَرَتْ،

---

(1) التكريتي، الأيوبيون، ص٣٥١.

(2) تاج الدين السبكي، معيد النعم، ص٤٤؛ وإبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص٢٥٢.

(3) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٢، ١٥٣.

(4) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥١، ١٥٢.

(5) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٦٦.

فَخَرَجَ وهُو بِهَذِهِ الحَالَةِ، وأَمَرَ بِضَرْبِ المُدَّعَىٰ عَلَيْهِ، وقَالَ: أَنْتَ الَّذِي عَضَّيْتَ هَذَا، وكَسَرْتَ ذِرَاعِي زِيَادَةً عَلَىٰ ذَلِكَ.

وفي الحكاية (الخامسةَ عشرَةَ)[1] «اشنقوا القفَّاص»، والتي تنتهي إلىٰ أن يدعوهم قراقوش إلىٰ الامتثال لحكمه، وكذلك ساكني الريف؛ والعبارة تشير إلىٰ ما كان يعانيه سكان الريف في تلك الفترة وما تعانيه طبقة الفلاحين، وهم السواد الأعظم من أهل البلاد، فيبدو من الحكاية والواقع التاريخي أن نصيبهم في المجتمع لم يكن سوىٰ الاحتقار والإهمال، فمما قاله ابن خلدون عن الفِلاحة وأهلها: «إنها معاش المستضعَفين، ويختص أهلها بالذِّلة». وهذا الحكم الذي أصدره ابن خلدون علىٰ الفلاحين يعبر عن نظرة معاصريه إليهم، فالريف والفلاح في جميع المؤلفات المعاصرة موصوف بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر. بل إن بعض المؤلفين المعاصرين كتب القصص الطويلة ليثبت أن الصفات السابقة متأصلة في الريف والفلاح، وليحاول أن يلصق به كل نقص ورذيلة[2].

وفي حكايتي «البيع للكسلان»[3] و«جَزَاء اللُّوطِيّ»[4] شاء الإبداع الشعبي للزوجة أن تلعب أدوارها المختلفة بمهارة وإتقان، وهي أدوار مستَمَدَّة من تجارِب الواقع اليومي؛ إذ استطاع النموذج القراقوشي من خلاله أن يعري بعض الجوانب الاجتماعية في حياتنا الشعبية، وأن يشجب كثيرًا من سلوك الأزواج من خلال سلوكه مع زوجته في إطار من السخرية اللاذعة، وبأسلوب فاحش بذيء أحيانًا أخرىٰ. والنمط القراقوشي هنا تتبادله المثالب والمناقب علىٰ السواء، ولكن النتيجة أو الدلالة التي تهدف إليها حكاياته واحدة، فغايتها تجسيم هذه العيوب الاجتماعية والخلقية؛ بغية الإصلاح والوصول بها إلىٰ الكمال الممكن، ونقد الأنماط غير الاجتماعية في المجتمع وما أكثرها[5].

---

(1) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٩، ١٦٠، ١٦١.

(2) للمزيد انظر: سيرة الظاهر بيبرس ٦/ ٥٠؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٥٧.

(3) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٥٠، ١٥١.

(4) انظر الحكاية في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

(5) محمد رجب النجار، جحا العربي، ص١٢٤، ١٢٥، بتصرف.

ونجد في حكاية قراقوش مع القفّاص دلالة واضحة حين «قالَ: اشنقوه: ثُمَّ قالوا له إنه حدَّادك، وينعل لك الفرس، فإن شنقته انقطعت منه. قَالَ: فنظر قراقوش قبالة بابه لرجل قفاص، فقال: ما لنا بهذا القفَّاص حاجة، فلما أتوه به، قال: اشنقوا القفَّاص، وسيبوا الركبدار الحداد الَّذِي ينعل لنا الفرس»[1]. وهكذا خُيل لقراقوش أو الحاكم أنه يستطيع أن يقتل القفَّاص كفكرة ثورية، حتىٰ إن الحاكم يستطيع أن يشنق أي شخص مكان المجرم الحقيقي، فالقصاص ليس للمجرم، ولكنه قصاص يقع علىٰ أي إنسان، ولو كان عابر سبيل، وهي فكرة مرفوضة اجتماعيًّا ودينيًّا. وقد منحت «ثورة قديد القفَّاص» كاتب الحكايات أو راويها مادة مكنته من صياغتها صياغة حكائية ساخرة في إطار من الرمز والمراوغة السيميائية[2]، في محاولة لإحداث نوع من التعاطف الشعبي مع القفاص الذي أُخمدت ثورته وقُتل دون وجه حق، ومن جانب آخر ترسيخ فكرة ظلم الحكم الأيوبي وبَطْشه، لدىٰ الناس[3]. وكان هذا الرمز هو ما يحتاجه الكاتب[4]؛ إذ إن الظروف السياسية في مصر لم تكن تعطي الكاتب حرية التعبير، وكان الرمز في الحكاية جاهزًا للتعبير عن مواقفه السياسية والإنسانية المختلفة، واتخذ منها هياكل وأوعية لصبِّ أفكاره[5]؛ إذ يتخذ ابن مماتي من

---

(١) انظر حكايات الفاشوش في القسم الثاني (التحقيق)، ص١٢٩، ١٦٠، ١٦١.

(٢) السيمياء، علم العلامات أو علم الإشارات (أو السيميولوجيا Semiology أو السيميوطيقا Semiotics أو السيماطولوجيا Sematology)، ويعني به العلم الذي يدرس العلامات. ومثالها الأبرز الكلمات اللغوية، ويمكن أن يسمىٰ، عنده، المنطق Logic، وهدف هذا العلم النظر في طبيعة العلامات التي يستعملها الإنسان لفهم الأشياء أو لإيصال معرفته إلىٰ الآخرين. انظر:

- John Locke, An essay concerning human understanding، abridged and edited by A.S. Pringle-Pattison, The Harvester press, NewJersey,1978,see p.370.
- Charles S. Peirce, Collected papers, The Belknap press of Harvard University press, Cambridge, Massachusetts, 1965, see vol. II, p.135.

(٣) محمد مكي: السرد المشهدي، ص ٣٥٧.

(4) Karl Buhler, The key principle, the sign - character of language, in Robert E. Innis (ed.), Semiotics an introductory anthology, Indiana University press. Bloomington, 1985, see. p.79.

(٥) فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، (آفاق عربية، بغداد ١٩٨٥)، ص٣٤.

المشاهد رموزًا وتكأة للإسقاط علىٰ حكم قراقوش بشكل خاص، وعلىٰ حكم الأيوبيين بوجه عام، ولعل مردَّ صعوبة تلك الوظيفة أنها تحتاج إلىٰ أن يكون المتلقي علىٰ علم بالوقائع التاريخية التي يحيل السارد عليها[1].

ويمكننا أن نتتبع الإحساس الكئيب بالقهر عند مختلف شخصيات حكايات «الفاشوش»، فالناس جميعًا يعانون من الإحساس بالظلم، والبسطاء جميعًا يعانون من القهر، الفلاحون مهانون في إذلال وأسياد الأرض يضربونهم، كيف يتحمل الفلاح البسيط أن لا يري زوجته ولا ابنه المولود؟ وكيف انحدر المصريون من الأزمان السَّحيقة إلىٰ هذا الزمن؟ أي معجزة يقدمها هذا الشعب أكثر من البقاء مع الظلم أكثر من الثورة عليه؟!

في ظل مشهد قاتم حزين، لا يستطيع المرء مع قلَّة عاجزة أن يرمم تصدُّعات في جسد مجتمع بدت معظم طبقاته في حالة من اللَّهاث وعدم اليقين، فالتمستِ الراحة الكاذبة بحكايات ساخرة في سياق فني محْكَم، وببساطة وعمق آسرَيْن في منطقة مهمة من مناطق التعرية لكل ما هو غامض وممتنع تنبش في الأعمق من هذا الخضم ليأتي **ابن مماتي ومن بعده السيوطي بأكثر من قرنين،** بحكايات وأقوال وأفعال تنتظم هذا الواقع المرير، واقع المجتمع السلبي إزاء قضاياه المتعاقبة، والجامحة بزوايا منحرفة عن كل قيمة وأصل وجمال، تمهيدًا لإعادة صياغة أخرىٰ لهذا الواقع المعاش بما يتماثل وأهمية الوجود الإنساني في كل الأحوال.

من هنا تبدأ مشروعية «**حكايات الفاشوش / رسائل الفاشوش**»، التي قد لا تعني بالضرورة إجابة عن سؤال مدهش، بقدر ما ينبغي عليها أن تؤكد علىٰ طرح السؤال في لحظة إنسانية تكاد تكون مصيرية وفعالة لافتضاح الواقع وتعريته، وبث معطيات جمالية تعيد للمجتمع الإنساني موقعه الأمثل.. بالتأكيد هي «**رسائل الفاشوش**» التي يتردد صداها في أعماق اللاممكن واللامتاح.

وانطلاقًا من هذا المفهوم راح يتفجر (ابن مماتي) متعاملًا مع المجتمع بنبرة التهكُّم والسخرية في حكاياته، مؤكدًا وجوب تغيير.. ثورة.. ضد اللامألوف واللاإنساني.. ضد الجموح.. الهيمنة.. الانحراف.. الذل.. السخرة.. الصمت..

---

[1] محمد مكي: السرد المشهدي، ص ٣٥٧.

الموت قبل الموت، انتصارًا لرقعة خضراء تصلح لابتسامة هادئة غير مروعة تنبئ بالرضا والسماحة.

قمة الشعور الإنساني التي تجسده حكايات «الفاشوش» في تعاملها مع «**كل قراقوش**»، نرى فلسفتها الخاصة التي جعلت من العالم الجزئي والكلِّي فلكًا واحدًا محوره التجربة الإنسانية الأم[1].

---

[1] عمرو منير: ثورات مصر الشعبية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٥، صفحات متعددة؛ فتحي خليل: نضال الفلاحين، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص٦٠-٨٠، بتصرف. وانظر: أحمد خاطر، مقدمة ديوان فريد طه، ط١، الزقازيق ١٩٩٩م، ص٥ بتصرف.

عتبة دخول

حاولت الدراسة أن تقدم طرحًا يتغيا تقديم قراءة جديدة لنص حكايات «الفاشوش»، باعتباره نصًّا منفتحًا علي القراءة التأويلية المتجددة بشكل لا متناهٍ ولا محدود، وهذه هي عظمة ثراء المعرفة في العلوم الإنسانية.

وانتهت الدراسة إلىٰ جملة من النتائج يتمثل أبرزها فيما يلي:

يمثل كتاب «الفاشوش» وثيقة إثنوغرافية ترتبط بالوجدان الشعبي المصري، الذي وظَّف حكايات الحمقىٰ والمغفَّلين بوصفها نوعًا من النقد السياسي يتغيا النيل - معنويًّا - من رأس النظام الحاكم، وما اتَّسم به من فساد وجَوْر، ومن ثم فقد ألف «ابن مماتى» كتابه متحدثًا بلسان أفراد الشعب، داعيًا إياهم إلىٰ الثورة علىٰ تلك الممارسات الغاشمة التي يقوم بها رجال الدولة الأيوبية؛ متخذًا قراقوش رمزًا، والتهكم عليه تكأة للتعبير عما تجيش به صدور أفراد الشعب من رغبة عارمة في مواجهة هذا الظلم، معتمدًا علىٰ الحكاية الشعبية التي لا تهدف إلىٰ ذكر حوادث التاريخ بقدر ما تهدف إلىٰ التعبير عن رأي الشعب وآماله إزاء حوادث عصره[1]. وهو ما يعني تفسير التاريخ لصالح المجتمع في «الحاضر»، وفي «المستقبل»، وذلك حين يعرف تاريخه الثقافي الشعبي، وكيف كان ينظر إلىٰ حاكميه الذين كانوا الأقسىٰ بكافة المعايير؛ وهكذا فإن هذا النوع من التاريخ يلبي الحاجات الاجتماعية / الثقافية للجماعة من ناحية، كما يحقق بعض الصياغات النفسية / التعويضية للحوادث التاريخية بشكل يجمع بين العمق والتلقائية التي تميز بها التاريخ الثقافي الشعبي. وإضافة للطَّرافة والمتعة بما تحوي هذه الحكايات من نوادر مسلِّية وحكايات طريفة، كشفت

---

(1) نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير، ص٩٧.

أسرار النفس البشرية ونَزواتها، والتي هي غالبًا واحدة في كل العصور، وتكاد تتطابق في قسم منها مع ما يحدث في عصرنا الحاضر.

ونص حكايات «الفاشوش» وليد ظروفه التاريخية التي أنتجته، وهو في الوقت نفسه مصدر مميز يُحيل علىٰ السياق الثقافي والاجتماعي، والسياسي والأيديولوجي لمصر الأيوبية والمملوكية، ومن ثم فالكتاب يعد نصًّا يعبر عن الحقبة التي أفرزته. وتميزه هنا يتمثل في كونه حرًّا من الهيمنة المركزية للسلطة التي تصيغ وثائقها الرسمية بطريقة تخدم توجهاتها ومصالحها. و«الفاشوش» مصدر من الاتجاه الآخر المعبر عن نبض الناس ومواقفهم ورؤاهم لما يجري في واقعهم السياسي والثقافي والاجتماعي.

و«الفاشوش» يؤكد علىٰ أهمية الحكاية والنادرة في خدمة التاريخ، بوصفها أدلة وأسانيد ووثائق دامغة تعين المؤرخ القادر علىٰ استنطاقها والنفاذ من خلالها إلىٰ الحركة المضمَرة في هذه الأنساق الشعبية، مما يوسع - بلا شك - من آفاق البحث التاريخي، ومن ثم إيجاد سُبل جديدة للوصول إلىٰ المعرفة التاريخية.

حكايات «الفاشوش» حافلة بالإشارات العديدة عن العادات والتقاليد والمفاهيم والمواقف الاجتماعية السائدة في المجتمع المصري طوال تلك الحقبة من تاريخه، وهي لا غنىٰ للباحث في ميدان التاريخ الاجتماعي لمصر الأيوبية والمملوكية، عن الاستعانة بالتراث الشعبي عامة، وحكايات «الفاشوش» جزء من هذا التراث بطبيعة الحال؛ إذ إن الحكايات التي ينتجها الشعب في حقبة تاريخية بعينها، مصدرٌ مهمٌّ من مصادر المعرفة التاريخية[1]، تساعد المؤرخ علىٰ فهم ذهنية إنسان العصر الذي يدرسه بآماله وهمومه، بنجاحاته وإخفاقاته، بقيمه ومُثُله وأخلاقياته، وهذه كلها لا نجد لها أثرًا نهتدي به في المصادر التاريخية التقليدية.

علىٰ الرغم من كثرة الدراسات التي تحلقت حول بهاء الدين قراقوش وعلاقته بكتاب «الفاشوش» وتناوله أصحابها، كل بحسب مجاله المعرفي ورؤيته الذاتية؛ حاولت الدراسة أن تتخذ مسارًا مختلفًا في النظرة إلىٰ كتاب

---

[1] محمد رفعت عبد العزيز، الأمثال مصدرًا لدراسة التاريخ، (دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص٣٩ بتصرف.

«الفاشوش» باعتباره وثيقة مرتبطة بالعامة، تخضع للتغيير والإضافة والحذف، الأمر الذي يفسر وجود تشابه كبير بين عدد من حكايات الحمقىٰ والمغفلين وبين حكايات «الفاشوش» في نُسَخها المختلفة. في ظل تجاهلِ المؤرخين والمثقفين والكُتاب للقراءة الشعبية لشخصية قراقوش؛ إذ تملَّكتهم روح من الترفُّع التي جعلتهم يُشيحون بوجوههم عن قراءة مغايرة لحكايات كتاب «الفاشوش»[1]، تفضح المسكوت عنه، حينما تتكامل الحكاية الشعبية مع التاريخ لتقدِّم صورة هي الأقرب للحقيقة عن مجتمع تغافَل الكثير من المتخصصين عن دراسته بصورة كلية؛ إذ إن هذه الحكايات إذا لم ندخل طياتها، كاشفينَ عن الحياة الخاصة بها، وحُكيت دون تحليل للخلفية التاريخية والاجتماعية وتفسير لها - ستبقىٰ مبهَمة؛ ولذا فمِن المهمِّ الرجوع إلىٰ المصدر الذي استمدت منه حياتها، ألا وهو التغيرات الاجتماعية والسياسية التي سادت مصر بداية من العصر الأيوبي وطوال حقبة المماليك؛ فكانت حكايات «الفاشوش» بإسقاطاتها السياسية علىٰ السلطة، تابعةً للمجتمع ومبلوِرة لتحولاته.

والقراءة المتأنية لحكايات «الفاشوش» تؤكد أن المؤرخ لا يستطيع أن يضطلع بمهمَّة الكتابة عن بهاء الدين قراقوش، دون أن يضطرَّ إلىٰ مواجهة القصص الكثيرة التي أدخلت البهجة في نفوس القراء والمتلقين علىٰ مرِّ القرون حول شخصيته، وخلطت بين الحقيقة والخيال[2]، وعليه أن يتعرف عليها أولًا

---

[1] وصموا «الفاشوش» بأنه ضرب من ضروب العبث والخرافة والخزعبلات التي تناسب عقول العامة وإدراكهم؛ ليعكسوا لنا بذلك مواقفهم الفردية وآراءهم الشخصية، وربما انحيازاتهم الطبقية؛ متجاهلين الرؤية الشعبية لتاريخ قراقوش أو غيره من الولاة والحكام، والتي هي في حقيقتها تفسير تاريخي جمعي، لصالح الطبقات الشعبية من العامة والمهمشين، في مواجهة الحقائق التاريخية المجردة التي تتسم بها دراسات المؤرخين الأفراد وكتاباتهم التي تستعلي بتاريخها الرسمي.

[2] الخيال مهم للباحث والمؤرخ في تصور السياق العام لدراسته وسد الفجوة الناتجة عن عجز المصادر التاريخية التقليدية عن سدها وبعث الحياة في هيكل الحقائق التاريخية الجافة تحملها المصادر. ومن المهم الاستعانة بالنتاج الفني - من فنون القول ومن فنون الشكل علىٰ السواء - للوصول إلىٰ هذه الغاية. وليس هناك ما يعيب البحث التاريخي والباحث في استعانته بالخيال؛ وإنما العكس هو الصحيح؛ إذ إن الخيال بمعناه الإيجابي هو وسيلة مهمة للغاية؛ لكي يتمكن المؤرخ من إعادة بناء الماضي. فالوقائع التاريخية ذات بعد واحد مسطح ومجرد، ولكن الخيال يمنحها البعد الثاني، والبعد الثالث، التي يجعلها الخيال تبدو حية دون أن ينتقص من قدر الحقيقة التاريخية التي تحملها.

ثم يستنطقها في النهاية، وتزداد هذه المهمة النَّبيلة في غايتها، المرهقة في تنفيذها، تعقيدًا بحقيقة بسيطة مؤداها أن الناس يفضلون الأسطورة.

كما لا يجب أن نتغافل عن حقيقة مهمَّة هي أن نص الحكايات - التي حقَّقْنا نصَّيْها - لا يمكن وصفها علىٰ أنها نص تاريخي خالص من جهة، أو أنها نصٌّ من الحكي الشعبي فقط؛ وإنما هي نص جمع بين التاريخ والحكي الشعبي، ومن ثَمَّ، يجب علىٰ الباحث في مجال علم التاريخ أن يتعامل بحذر مع ما يحمله النص من أحداث ووقائع وشخوص يزعم أنها تاريخية[1].

ولم تنحز الدراسة في رصدها لأبعاد العلاقة بين التاريخ والحكي الشعبي إلىٰ رأي الفريق الذي انبرىٰ للدفاع عن قراقوش حيًّا وميتًا، وإبرازه في صورة القائد الحكيم الذي أسند إليه صلاح الدين الأيوبي مهمة إدارة شئون الدولة، فحقق فيها من الإنجازات ما لا ينكره جاحد، ولم تَمِلْ إلىٰ شَخْصَنة القضية وحصْرها في ذلك الصراع الذي كان دائرًا بين قراقوش وابن ممَّاتي، وهو صراع أشعلت نيرانَه المنافسةُ علىٰ المناصبِ الإدارية، وإنما انطلقتِ الدراسة من الطبيعة الشعبية للشخصية المصرية نفسها في تلك الفترة، تلك الشخصية التي كانت ترفض الحكم الأيوبي وتميل إلىٰ الحكم الفاطمي، دون أن يكون لهذا الميل عَلاقة بالدفاع عن شيعية الفاطميين أو برفض سُنية الأيوبيين.

ومن ثَمَّ ينبغي علىٰ الباحث في مجال الأدب الشعبي أن يبحث في هذا النص عن خصائص الحكي الشعبي في تلك العصور، عناصر الإثارة والمتعة التي كانت تشد الجماهير إلىٰ الاستماع لهذه الحكايات المثيرة وإسقاطاتها السياسية والاجتماعية[2] علىٰ شخصية لها دور بارز في تاريخنا حِيكت حوله نوادر تَناقَلها الناس وأضافوا إليها بقصد النَّيْل منه، عن طريق جعْله أضحوكة؛ ليصبح ميراثًا شعبيًّا ثريًّا لا يزال يُتداوَل، ويُضرَب به المثل حتىٰ يومنا هذا، فأسهمت الحكايات في تخليد ذكره دون قصد، ومدِّ أمثاله في كل عصر من ناحية أخرىٰ

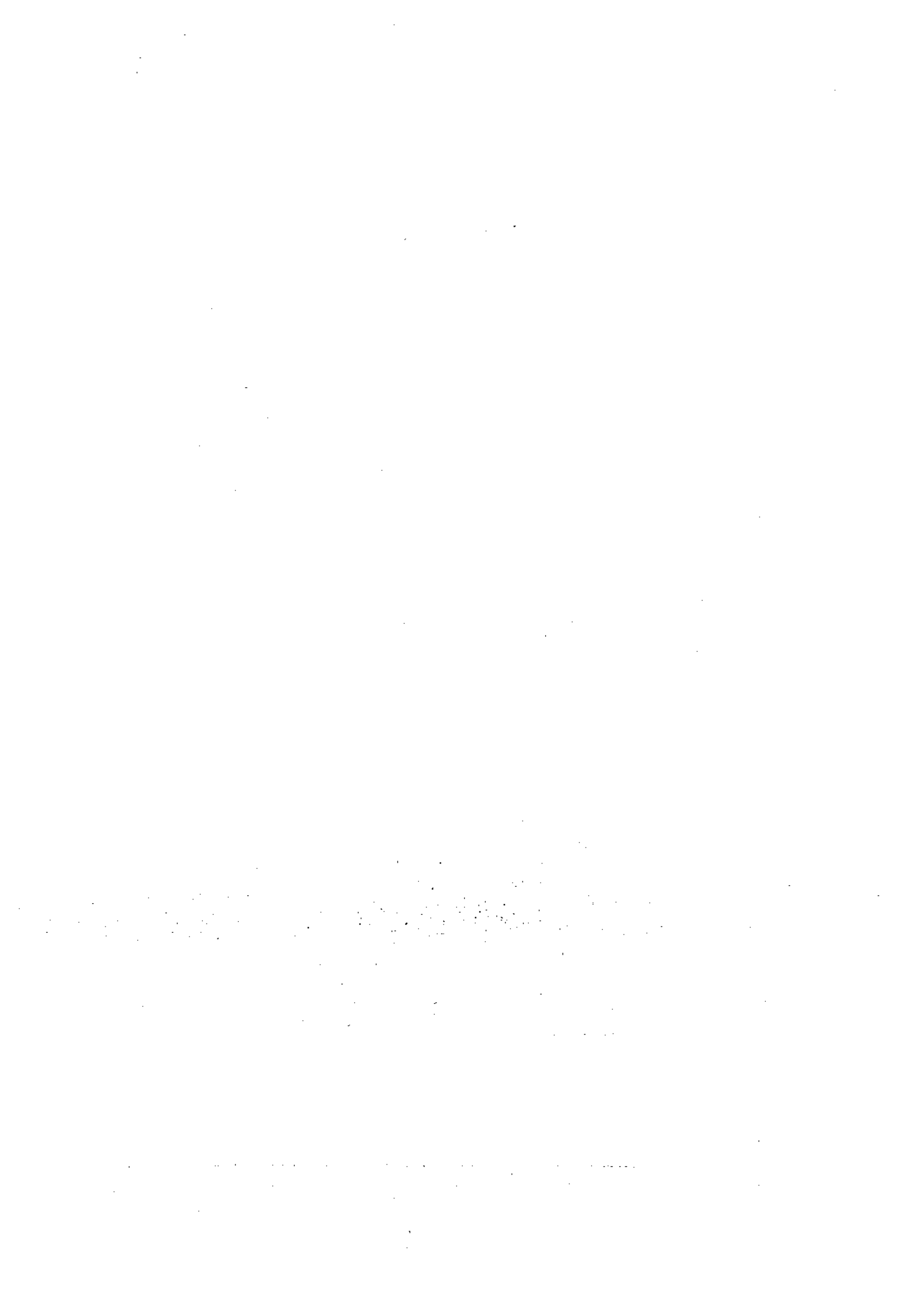
---

[1] قاسم عبده قاسم، واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠١٤م)، ص٢٤، بتصرف.

[2] للمزيد عن الرؤية الشعبية للأحداث التاريخية انظر: قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور (دار عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٧م)، ص١١٠-١٢٦؛ وعمرو عبد العزيز منير، مقدمة قصة البهنسا (هيئة قصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٢م)، ص٥-٩٥.

بطاقةٍ من التجدد في الذاكرة الشعبية؛ وهو ما يعد تأكيدًا علىٰ امتلاك المجتمع المصري آنذاك حسًّا وأدبًا ثوريًّا، وقدرة علىٰ الرفض للطبيعة الخانعة والمطَأْطِئة رءوسها.

وبعد هذه الدراسة أقدِّم نص كتاب «الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش» بوصفه نصًّا يقع في منطقة الحدود بين التاريخ والأدب الشعبي - والحكاية الشعبية علىٰ وجه التحديد - وليس بوصفه نصًّا تاريخيًّا محضًا، بل من قَبيل محاولة تعزيز تعدُّد الرؤىٰ علىٰ مستوىٰ التاريخ الرسمي.



طبعات الكتاب ونقدها

١ ـ طبعة المطبعة الخصوصية سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م، بعنوان (الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش)، دون ذكر اسم أي مؤلف. يشتمل علىٰ عشرين حكاية، وهذه الحكايات ـ بحسب ديباجة الكتاب ـ جمعها السيوطي علىٰ إثر سؤال عُرِض عليه في أثناء دَرْسه بالجامع الطولوني بالقاهرة، سنة تسع وتسعين وثمانمائة في المحرم منها.

عدد صفحات الكتاب ١٦ صفحة.

ولما كان التحقيق العلمي بمفهومه ومضمونه لم يكن قد بدأت بواكيره حتىٰ تاريخ طبع هذه الطبعة ١٨٩٣م، فلن نعرِّج علىٰ نَقْد لهذه الطبعة.

٢ ـ طبعة د. عبد اللطيف حمزة، بعنوان (الفاشوش في حكم قراقوش)، لابن مَمَّاتي، صدرت عن أخبار اليوم، ضمن سلسلة «كتاب اليوم» سنة ١٩٦١م، في (١٨٠ صفحة). اعتمد د. حمزة (ت١٩٧٠م) علىٰ نسخة دار الكتب المصرية فقط، ولم يذكر رقمها، وقد أشار إلىٰ ذلك في المقدمة[١].

اشتمل الكتاب علىٰ ثلاث وعشرين حكاية، يسبقها مقدمة (أربع صفحات).

وعقب إيراد الحكايات الـ (٢٣) التي طُعِّمت بصور كاريكاتورية للشخصيات والمواقف ـ عَرَض لشخصية قراقوش وشخصية ابن مَمَّاتي وطريقته الساخرة، وكيف نال ابن مَمَّاتي من قراقوش بهذه الطريقة. وقد أفاد حمزة كثيرًا من بحث لكازنوفا[٢].

---

[١] عبد اللطيف حمزة، الفاشوش في حكم قراقوش، (كتاب اليوم، القاهرة ١٩٦١)، ص٣.

[٢] باحث فرنسي (ت١٩٢٦م)، وهو متخصص في تاريخ العصور الوسطىٰ وأدبها، حاضر في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥م.

ومما يؤخذ علىٰ هذه الطبعة أن المحقِّق لم يذكر رقم النسخة التي اعتمدها في التحقيق، ولا عرض للوحات منها، ولا نجد وصفًا كوديكولوجيًّا لها.

كما أنه اقترف ما تأباه قواعد تحقيق النصوص؛ إذ قام بحذف عبارات من النص لكونها فاحشة[1]، وهذا اجتراءٌ علىٰ النص، أيِّ نص، ويبدو أن هذا الصَّنيع كان في النصف الأول من القرن الماضي يعد من باب الفضيلة، مثلما فعل أولئك الذين قاموا علىٰ نشر مقدمة ابن خلدون، فحذفوا منها ما يتعلق بالسحر والشعوذة والكهانة.

ويغيب التوثيق في ما يورده حمزة في المقدمة، وكذلك في نصوص الحكايات.

ومفهوم التحقيق ومضمونه عند المحقِّق شبهُ غائب؛ ذلك أنه أورد نص الحكايات ثم عرض لحقيقة قراقوش وسيرة ابن مَمَّاتي، وتكلم علىٰ (الفاشوش)، ثم استطرد بتناول مباحثَ عن السخرية في الأدب العربي، وفي مصر، وفي العصر الحديث، وفي الأدب الأوروبي، وعقد مقارنة بينها، ثم إنه يجزِّئ الموضوع فيعود إلىٰ السخرية عند ابن مَمَّاتي ثانية، رغم أنه كان يمكن أن يتناولها عند كلامه عن «السخرية في مصر».

ومن ثَمَّ فقد قدَّم النص المحقَّق علىٰ الدراسة، ورغم أنه نسب لابن مَمَّاتي، ولم يقع فيما وقع فيه غيره، اعتمادًا علىٰ منتخبات السيوطي التي جمعها من (الفاشوش)، لكن المحقِّق لم يعتمد علىٰ عدد من النُّسَخ؛ حتىٰ يمكنه تحرير نص كامل منها، ولو بطريقة «النص المختار». ولم يذيِّل الكتاب بكشافات تحليلية.

وعلىٰ ذلك فماهية التحقيق غائبة عند المحقِّق أو تكاد تكون.

والكتاب تكثر فيه الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية والطباعية.

٣- **تحقيق مصطفىٰ وهبة، بعنوان (الفاشوش في حكم قراقوش)، لجلال الدين السيوطي**، نشر الكتاب بمكتبة الإيمان، ومكتبة جزيرة الورد بالمنصورة، سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، في (٥٧ صفحة).

---

[1] عبد اللطيف حمزة، الفاشوش في حكم قراقوش، (كتاب اليوم، القاهرة ١٩٦١)، ص٢٩.

اعتمد وهبة علىٰ نسختي دار الكتب المصرية رقمي (١٩٤) و(٤١٦)، وقارن عمله بمطبوعة د. عبد اللطيف حمزة، وبما أورده د. شوقي ضيف في كتابه (الفكاهة في مصر)، واشتمل الكتاب علىٰ (٢٢ حكاية).

وزعم المحقِّق أنه لم يتدخل في أسلوب صياغة الحكايات إلا في أضيق الحدود؛ إذ لم يتجاوز ذلك استبدال لفظ فصيح بلفظ عامي[1]. ولم يبين المحقِّق أستبدل ذلك من عنديَّاته أم اعتمادًا علىٰ نسخة من النسختين؟! ولا أعرف كيف يمكن امتهان نص تراثي أكثر من المشاركة في تأليفه؟!

هذا بالإضافة إلىٰ خلو هذه النشرات عن دراسة تحليلية للكتاب ذاته «الفاشوش»، تكون بداية صحيحة للولوج إلىٰ الحكايات بعرض تاريخي للدلالات الثقافية والاجتماعية التي تدور حولها الحكايات، لا أن يتحول الحديث إلىٰ شخص (قراقوش)، فالناس دائمًا صنَّاع التاريخ وهم حقًّا أهمُّ من الفرد، وإن علا دوره. ولكننا اعتدنا أن «التاريخ يصنعه الناس ويسرقه الحكام»، حتىٰ الانتصارات يصنعها الشهداء والجرحىٰ والجنود الذين حاربوا، وفي النهاية تنسب لشخص واحد!

وهذا الملمح يعكس غياب مفهوم التحقيق عنده، رغم أنه كتب علىٰ الكتاب «تقديم وتحقيق» ! وكذلك فإنه صرَّح في موضع آخر أنه حذف بعض الحكايات بسبب ما ورد فيها من فُحْش، محتذيًا في ذلك ما صنعه د. عبد اللطيف حمزة؛ فقد أفاد وهبة كثيرًا من حمزة واتبع أسلوبه، وهو ما يؤكد أيضًا غياب مفهوم التحقيق عنده هو الآخر.

ورغم أنه في دراسته أشار إلىٰ أن واضع الحكايات قبل السيوطي هو ابن مَمَّاتي، إلا أنه نشره منسوبًا للسيوطي، رغم أن السيوطي نفسه قال إنه جمع هذه الأخبار عن قراقوش.

وبناء الكتاب عنده جاء كالتالي:

أولًا: مقدمة عن قراقوش وعصر صلاح الدين.

ثانيًا: مقدمة عن الحكايات (واستعرض مؤلَّفات ابن مَمَّاتي، وتكلم عن السيوطي ومؤلَّفاته).

---

[1] انظر ص١٣ من طبعته؛ إذ يقول: «والتزامًا بالأمانة العلمية لم نتدخل في أسلوب صياغة الحكايات إلا في أضيق الحدود التي لم تتجاوز استبدال لفظ فصيح بآخر عامي».

ثم نص الحكايات.

وكان حريًّا به أن يقسِّم الكتاب نصفين: القسم الأول: الدراسة. والقسم الثاني: النص المحقَّق.

ورغم تصريح المحقِّق باعتماده علىٰ نسختين، إلا أننا لا نرىٰ وصفًا كوديكولوجيًّا لهما، ولا عرضًا للوحات منهما، ولا أثر لهما في هوامش التحقيق، ولا نجد كذلك تحرير سرًا لألفاظ الحكايات.

٤- **طبعة أحمد خليل الشال، بعنوان (حكم قراقوش؛ هل قراقوش شخصية أسطورية أم حقيقية. اسمه، نسبه، نشأته، إنجازات قراقوش)**، صدر الكتاب عن الدار الذهبية، بدون ذكر تاريخ نشر، وجاء في (٧٤ صفحة).

وبناء الكتاب عنده جاء هكذا:

مقدمة (٤ صفحات).

الفصل الأول: قراقوش؛ اسمه، نسبه، نشأته.

الفصل الثاني: قراقوش المظلوم.

ثم عرض نصوص الحكايات (٢٦ حكاية).

الفصل الثالث: التاريخ يدافع عن قراقوش.

الفصل الرابع: عوامل تشويه صورة قراقوش.

نقل الشال الحكايات من «النوادر الشعبية» لأحمد إبراهيم شعلان[1].

وهو يذكر أنه جمع هذه الحكايات والنوادر لهذا الأمير (قراقوش) عدا حكايتين لم يجد حاجة لذكرهما؛ لما فيهما من فُحْش»[2].

---

(١) إبراهيم شعلان، النوادر الشعبية المصرية - دراسة تاريخية اجتماعية أدبية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠م)، ص١٩٤.

(٢) أحمد خليل الشال: حكم قراقوش، ص١٣؛ وللأسف فإنه من وقت لآخر يتجدد الحديث عن بعض كتب التراث العربي بشكل مؤسف ومحزن فيما يتعلق بتحريم نشر الكثير من كتب التراث العربي متذرعين في ذلك بالألفاظ المكشوفة وما يمكن أن يفسد عقول شباب الأمَّة، رغم وجوده منذ مئات السنين، وخلال هذه السنين قرأه وسمعه الناس دون أن نسمع أنه أفسد عقل جيل أو حرض علىٰ انحلال المجتمع!

ورغم أن الناشر عاب دراسة د. عبد اللطيف حمزة، إلا أنه لم يعرض للدراسات والأدبيات السابقة في الموضوع؛ لا عن (الفاشوش)، ولا عن (قراقوش)، ولا عن (ابن مَمَّاتي)، ولا عن صنيع (السيوطي) في الجمع والانتخاب من الحكايات من نص ابن مَمَّاتي. وكذلك فإن فكرة التحقيق ومفهومه غائبة عند الناشر؛ ذلك أنه لم يذكر أنه اعتمد علىٰ مخطوطات، ولا هو عرَض لوصف لها، ولا للَّوحات منها، ولا هو ذكر منهجًا للتحقيق، ولا نجد تحريرًا لنصوص الحكايات.

وكل هذه النشرات ليس بينها تحقيق بالمعنىٰ الدقيق لمصطلح «تحقيق»، فكلُّها مشغولة بالدراسة أكثر من نص الحكايات ورواياتها وتحرير هذه الروايات، وفي ظل غياب تحرير نصوص الحكايات والخلط في نشرها منسوبة لابن مَمَّاتي (كما عند عبد اللطيف حمزة)، وللسيوطي (كما عند الآخرين)، وكذلك في ظل غياب الاعتماد علىٰ نُسَخ خطِّية وافرة، لا يمكننا أن نطلق علىٰ هذه النشرات «تحقيقًا»، سواء مَن كتب علىٰ غلاف نشرته لفظ «تحقيق» مثل مصطفىٰ وهبة، أو مَن لم يكتب - لا يمكننا إلا أن نعد هذه النشرات دراسات غير معنية بالنص القديم نفسه (أي تحقيق)، وإنما هي دراسات - تطول أو تقصر - وليست نشرات نقدية، ولسنا بحاجة للتدليل علىٰ ذلك بأكثر مما سبق ذكره، إضافة إلىٰ غياب النص علىٰ منهج للتحقيق، وغياب التوثيق، والدراسة العلمية التي تسبق النص لا التي تليه، والكشافات التحليلية التي يُذيَّل بها النص المحقَّق.

٥- **تحقيق د. عمرو عبد العزيز منير، بعنوان (الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش)، للأسعد بن مَمَّاتي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، برواية الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)**، صدر عن دار عين، سنة ٢٠١٦م.

وجاء في (١٦٠ صفحة)، الدراسة في (١٠٠ صفحة)، والنص المحقَّق لـ«الحكايات» في (٤٩ صفحة)، و(١١ صفحة) مصادر ومراجع.

أفادت هذه النشرة من الجهود السابقة، وتعرضت لها بلمحات نقدية سريعة، واعتمدت علىٰ سبعة مخطوطات، إضافة إلىٰ مطبوعة المطبعة الخصوصية ببولاق سنة ١٨٩٣م.

وفي الحقيقة إنني كنت في عَجَلة من أمري في نشرتي للكتاب (عام ٢٠١٦)، فلم أتوسع في نقد الطبعات السابقة، ولا في الوصف الكوديكولوجي للنُّسَخ الخطِّية. ورغم تقديمي بدراسة شاملة تناولت فيها بعمق الرمز في «حكايات قراقوش»، وربطت بين هذا اللون (الحَكْي الشعبي) وبين التاريخ، وحلَّلت المضامين الاجتماعية والرمز فيها، إلا أنه لم يكن من المنهجي أن أجعل نصوص الحكايات بمثابة ملاحقَ للدراسة؛ ذلك أن الدراسة نفسها إنما هي قائمة علىٰ النص المحقَّق، سواء في تحقيق النص الشعبي أو الأدبي أو أي نصٍّ تراثي.

كما أوقعتني العجَلةُ في عدم ترتيب النُّسخ الخطية عند إيرادها في الهوامش، وفي غياب الإضاءات التعريفية للغريب وغير المفهوم في النص.

لكن سيجد القارئ الكريم في هذه النشرة تلافيًا لقصور نشرة سنة ٢٠١٦، ولله سبحانه وتعالىٰ وَحْدَه الكمالُ كلُّه.

***

إن كل نص لإحدىٰ الحكايات الشعبية هو نص أصلي بذاته[1]، ومن المعروف في الرواية الشعبية أن الحوارات بين أبطال الحكايات هي من لوازم الحكي الشعبي، ولا تزال حتىٰ الآن، ومن ثَمَّ فإنها ليست من العيوب التي قد

---

[1] كل قصة شعبية لا تتوقف عند رواية واحدة لها، بل تتعدد رواياتها Variants Version، وتتباين بتعدد مرات روايتها، (وهو أمر لا نهاية له ما دام النص حيًّا في الجماعة)، سواء أكان الراوية أو المؤدي واحدًا أم كان متعددًا، (وهنا تكمن أصالتها الفولكلورية)، وذلك طبقًا لطبيعة السياق Context، الذي يؤدىٰ فيه القص الشعبي، واتساقًا مع معطيات الراهن السوسيولوجية، والسوسيومفسية والسوسيوثقافية والسوسيوجمالية، للموقف السردي الذي حكم - بالضرورة - إنتاج النص الشعبي، وهي دائمًا معطيات متغيرة. إن القصة الشعبية لم تروَ أو تؤدَّ بالطريقة نفسها مرتين (صحيح أن الصيغ هي الصيغ، وأن الموضوعات تتكرر، ولكنها تروى في كل مرة بشكل مختلف)، حتىٰ علىٰ لسان القاص الواحد نفسه، اعتمادًا علىٰ رد فعل الجمهور، ومزاج الرَّاوِي أو الشاعر الشعبي، وطبيعة المناسبة، وعلىٰ عوامل نفسية واجتماعية أخرىٰ (الطبقة، الفئة، المرحلة العمرية، الجنس، العرق، المعتقد... إلخ)، حيث يصبح الجمهور هنا مشاركًا في صناعة النص أو القص الشعبي، بوصفه نتيجة أو نتاجًا للتفاعل Interaction بين الرَّاوِي والجمهور الراهن، وخبرة الرَّاوِي وموهبته القصصية، ومهاراته الذاتية في الأداء، ومدىٰ حضوره (المسرحي) عند هذا العرض أو الأداء.

للمزيد انظر: محمد رجب النجار، التراث القصصي في الأدب العربي مقاربات سوسيوسردية (المجلد الأول، منشورات ذات السلاسل، الكويت ١٩٩٥م)، ص٣٨.

يظن البعض أنها تشوب نص «الفاشوش»، ولكنها من خصائص هذا النص الفريد الذي يمزِج بين التاريخ والحكاية الشعبية، ويؤدي وظيفة مهمَّة في خدمة الباحثين في مجال الدراسات التاريخية، وفي مجال الأدب الشعبي علىٰ السواء.



مخطوطات الكتاب في العالم

مما وقفنا عليه من مخطوطات كتاب (الفاشوش) في مكتبات المخطوطات وخزائنها، المخطوطات التالية، وإن كان يظن أن المجموعات والخزائن الخاصة والنسخ منزوعة الغلاف ربما تحتوي على نسخ منه، وهذا الذى وقفنا عليه من مخطوطاته:

١- دار الكتب المصرية ٥٤٦ مجاميع طلعت.

٢- دار الكتب المصرية ٢٥ مجاميع قَوَلَة.

٣- مكتبة بولس سباط ١٣٣٢.

٤- مكتبة أحمد باشا ٣٣٦.

٥- مكتبة المتحف البريطاني OR.6646-1.

٦- المكتبة الوطنية بباريس R.36/974.

٧- مكتبة جامعة ييل ٥٩٩٤.

٨- الجمعية الاستشراقية الألمانية (١٥١).

٩- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالرياض، مصوَّرة ٢١٩٩٤ب.

١٠- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالرياض، مصوَّرة ١٣٦٩٧-١٤.

١١- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالرياض، مصوَّرة ٣٥٥٢ف.

١٢- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، مصوَّرة (٣٩٨٨) عن نسخة تسشريتي ٥٤٩١/١٢.



وصف النُّسَخ المعتمَدة في التحقيق

لدينا هنا نصَّان:

الأول: نصٌّ تمثِّله نسخة طلعت - ٥٩ مجاميع، ويشتمل علىٰ أربع عشرة حكاية، تشترك عشر حكايات منها مع النص الثاني الذي جمعه السيوطي، وهي: (الجَارِيَة البَيْضَاء - مَخْلُوقٌ بِلَا لِحْيَة - سَنَةٌ فِي يَومٍ - لا تُخْبِر الفَرَس - اشْنُقُوا القَفَّاص - اللِّص والقُمَاش - رأي مبارك - ضَرَبنِي واشْتَكَىٰ - دَار يَا دَار - دِيك الغُلام).

وتفرَّدت هذه النسخة بأربع حكايات لم تتضمنها النُّسَخ التي تمثل النصَّ الذي جمعه السيوطي، وهي: (جزاءُ الشاعر - عقابُ القاضي - رسالةُ اليهودي - ثوبُ النَّصْرَانِي).

والعنوان في هذه النسخة هو (المختار مما نُقل من كتاب الفَاشُوش في حُكْمِ قَرَاقُوش).

وقد قدَّمنا هذا النص رغم أن عدد الحكايات فيه أقلُّ من الحكايات في النص الذي جمعه السيوطي؛ ذلك أن النصَّ في أصله هو نصُّ ابن مَمَّاتي، والسيوطي صرَّح بأنه جمعه، ومن ثَمَّ فهو ليس مؤلِّفه.

- **نسخة طلعت:** نسخة تحتفظ بها دار الكتب المصرية برقم ٥٩ مجاميع - طلعت.

عدد أوراقها ٥ أوراق (١٧٠و-١٧٤ظ)، ومسطرتها ١٥-١٦ سطرًا، وعدد الكلمات في كل سطر ١١-١٢ كلمة.

ليس عليها ذكر لاسم ناسخ أو تاريخ نسخ، وتخلو من التعقيبة.

كتبت بخط واضح مقروء، منقوط في أغلبه، مضبوط بالشكل أحيانًا.

ورد العنوان علىٰ لوحة الغلاف: «المختار مما يعد من كتاب الفاشوش في حكم قراقوش مما ألَّفه القاضي الأجلُّ الكبير الأديب السعيد [كذا] بن مَمَّاتي، عفا الله عنه وغفر لنا ولهم أجمعين».

أولها: «الحمد لله الذي جعل العقل أشرف الأسباب، فشرف قومًا سماهم أولي الألباب، وركب الجهل في كل رأس ثقيلًا [كذا]، فقال عزَّ مَن قائل: ﴿[إنْ] هُمْ [إلاَّ] كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

قال القاضي الأجل الفاضل السعيد [كذا] بن مَمَّاتي...: إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخرمة فاشوش...».

آخرها: «فقال له قراقوش: ما لك [؟]، مما [كذا] تغلط في دفاتر مولانا السلطان... يا غلمان، ودُّوهُ إلىٰ الحبس حتىٰ تَبْيَضَّ بَوْلَتُهُ، ثم نخلِّصه. تم المختار من كتاب «الفاشوش في أحكام قراقوش»، ولله الحمد والمنَّة».

وقد اتخذناها أصلًا في هذا النص، وفي المواضع التي وافقت فيها النص الثاني الذي يمثل رواية السيوطي للحكايات.

والنص الثاني هو الذي جمعه السيوطي وتحصَّلت لدينا نُسَخ عديدة منه، أفادتنا هذه الكثرة في إثبات العنوان، واقتصرنا في التحقيق علىٰ أربع نُسَخ خطِّية، هي: (نسخة قولة، ونسخة طلعت (رقم ٥٤٦ مجاميع)، ونسخة المتحف البريطاني، ونسخة المكتبة الوطنية الفرنسية). واستأنسنا بالمطبوعة التي نُشرت سنة ١٣١١هـ.

واشتملت مخطوطات النص الثاني علىٰ ستٍّ وعشرين حكاية، وتفرَّدت بستَّ عشْرةَ منها، هي: (فِدَاء القَميص - الأَرْمَلَة والكَفَن - اجْلِدُوا الحِمَارَة - جَزَاء اللُّوطِيّ - البيع لِلكَسْلَان - خُذْهَا عِندَك - احْبِسُوا صاحِبَ الحَق - أَغلِقُوا الأَبواب - لَيسَ غاليًا - المَيِّتُ الحَيُّ - عَضَّ أُذُنَ نَفسِه - ازْرَعُوا الصُّوف - جُبْن وزَيتُون - الأَعورُ والجارُ الأَعمَىٰ - زمنُ فرعونَ - عَلَىٰ رَاسه رِيشَة).

وأثبتنا العنوان في هذا النص (رسالة الفَاشُوش في أَحْكَامِ قَرَاقُوش) للجلال السيوطي، وفيه اختلافات يسيرة بين النُّسَخ.

- **نسخة قَوَلَة:** نسخة ناقصة تحتفظ بها مكتبة قَوَلَة برقم ٢٥ مجاميع (١٥٧ظ-١٥٨و)، بعنوان: «كلام في قراقوش للجلال السيوطي»، كتبها السيد محمد [؟]، يوم الأربعاء ٥ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٠١١ [هـ].

مسطرتها ٢٧ سطرًا، في كل سطر ١١-١٢ كلمة. منقوطة في أغلبها، وتخلو من الضبط، وبآخرها حاشية نصها: «وفي تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي سنة اثنين وسبعين أمر صلاح الدين ببناء السور الأعظم المحيط بمصر والقاهرة، وجعل علىٰ بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش. قال ابن الأثير: دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثمانمائة ذراع بالهاشمي».

أولها: «وبعد، فقد سئلت في درسي وأنا في الجامع الطُّولونيّ، في آخرِ المُحَرَّمِ سنة تسْعٍ وتسعينَ وثمان مائةٍ، عن الأمير بهاء الدين قراقوش، وهل له أصل في التاريخ...».

آخرها: «ثم قال ثانيًا: علِّق عليه ولا تقل له إنني قلت لك ذلك؛ حتىٰ لا يبقىٰ بظنِّ أننا حلفنا باطل [كذا]. وهذا ألطف ما ورد عنه، وقد ورد عنه غير ذلك، تركناه مخافة السآمة، وصلىٰ الله علىٰ مَن لا نبيَّ بعده».

وقد رمزنا لها بالرمز (ق).

- **نسخة طلعت:** نسخة تحتفظ بها دار الكتب المصرية برقم ٥٤٦ مجاميع طلعت، وهي ضمن مجموعة تشغل الرسالة منها الأوراق من (١٢و - ١٥و)، مسطرتها ١٩ سطرًا، عدد الكلمات في كل سطر ٦ كلمات.

تخلو من ذكر اسم ناسخ أو تاريخ نَسخ، أو أية حواشٍ أو تعليقات.

كتبت بخط مقروء، وبها نظام التعقيبة.

أولها: «... وبعد، فقد سئلت في درسي بالجامع الطُّولونيّ... عن قراقوش، وهل له أصل في التاريخ...».

آخرها: «ولا يبقىٰ أحد يندفها [كذا] بعد الآن. فحملوه ودفنوه بالحياة في ذمة قراقوش. تمت بحمد الله وحُسن توفيقه».

وقد رمزنا لها بالرمز (ط).

- **نسخة المكتبة البريطانية:** نسخة تحتفظ بها المكتبة البريطانية برقم (OR 6646-1).

عدد أوراقها ٥ أوراق، ومسطرتها ١٩-٢٠ سطرًا، في كل سطر ٧-١٠ كلمات.

كتبت بخطٍ دقيق، منقوط في أغلبه، خالٍ من الضبط بالشكل، وتخلو من تاريخ النسخ واسم الناسخ وتخلو من الحواشي. وبها نظام التعقيبة.

كتب العنوان علىٰ غلافها بخطٍ حديث: (كتاب الفاشوش في حكم قراقوش للحافظ السيوطي).

أولها: «... وبعد، فقد سئلت في درسي بالجامع الطُّولونيّ، في أواخر محرَّم سنة تسع وتسعين وثمان مائة، عن الأمير بهاء الدين قراقوش، وهل له أصل في التاريخ...».

آخرها: «... فقيل له: هذا حكم الله. فقال: لو جرىٰ هذا في زمن فرعون ما فعل غيره؛ فإنه القاتل ولا يحلُّ أن أقتل غيره. انتهىٰ ما وجد من أخبار قراقوش، والحمد لله وحده».

وقد رمزنا لها بالرمز (ب).

- **نسخة باريس:** نسخة تحتفظ بها المكتبة الوطنية الفرنسية برقم (R.36.974)، عدد أوراقها ٩ صفحات، ومسطرتها ١٠-١١ سطرًا، وفي كل سطر ٥-٦ كلمات، كتبت بخطٍ واضح منقوط أغلبُه، وبها بعض الضبط بالشكل. تخلو من ذكر اسم الناسخ أو تاريخ نسخ أو أية حواشٍ، وبها نظام التعقيبة.

جاء العنوان علىٰ غلافها: (الفاشوش في أحكام قراقوش، تأليف جلال الدين السيوطي، تغمده الله برحمته، آمين). وعليه خاتم المكتبة ورقم (١١٢٢).

وكل حكاية قال قبلها: (ومنها) بخطٍ سميك.

أولها: «... وبعد، فقد سئلت في درس بالجامع الطُّولونيّ، في أواخر المحرَّم سنة تسع وتسعين وثمانمائة، عن قراقوش، وهل له أصل في التاريخ...».

آخرها: «ولا يبقىٰ أحدًا [كذا] فيدفن بعد هذا اليوم. فحملوه ودفنوه بالحياة في ذمة قراقوش».

وقد رمزنا لها بالرمز (س).

طريقتنا في إخراج النَّصيْن

لما كان معنا في هذه الإصدارة نصَّان، عمَدنا إلىٰ النص الأول الذي يَنْسب الحكايات للأسعد بن مَمَّاتي مباشرة، وهو «المختار مما نُقل من كتاب الفَاشُوش في حُكْمِ قَرَاقُوش» فقدَّمناه، واعتمدنا في تحقيقه النسخة الوحيدة التي تمثله، وهي النسخة المحفوظة بمكتبة طلعت، بدار الكتب المصرية، برقم (٥٩ مجاميع)، وهي أصل في هذا النص، الذي تضمن أربع عشرة حكاية.

أما النص الثاني الذي يمثله ما جمعه الحافظ جلال الدين السيوطي من «الفَاشُوش في أَحْكَامِ قَرَاقُوش»، فقد اعتمدنا في تحقيقه أربع نُسَخ خطِّية، هي: نسخة قَوَلة، ونسخة طلعت (رقم ٥٤٦ مجاميع)، ونسخة المتحف البريطاني، ونسخة المكتبة الوطنية الفرنسية. واستأنسنا بالمطبوعة التي نُشرت سنة ١٣١١هـ.

وقمتُ بنَسْخ النص، ثم مقابلته علىٰ ما انتُسخ منه، ثم مقابلة المنسوخ علىٰ النُّسَخ الأخرىٰ وإثبات الفروق ذات الدلالة، وضبط النصِّ ضبطًا يُزيل إشكاله، مع وضع علامات الترقيم المناسبة، والتي تعد جزءًا من سيميولوجية القراءة الجادة، وعرَّفتُ بالغريب والمصطلحات والألفاظ العامية من مصادرها، ذاكرًا أصولها ودلالاتها الرمزية، وترجمتُ للأعلام، وعرَّفتُ بالأماكن والمواضع والخطط، مع التعليق علىٰ ما يستوجب التعليق، سواء علىٰ بعض المفردات أو علىٰ مُجمل الحكاية وظلالها وإيحاءاتها، رابطًا ما ورد فيها بأصوله من العادات والتقاليد المصرية التي يزخر بها الموروث الشعبي.

وقمتُ بوضع أرقام المخطوطة في النص الأول؛ لأن التحقيق بُني فيه عليها وَحْدَها، أما النص الثاني فاتبعتُ في تحقيقه طريقة «النص المختار». كما قمتُ بوضع عناوين للحكايات وترقيمها العددي بما يتَّسق مع مضمونها وتواليها في

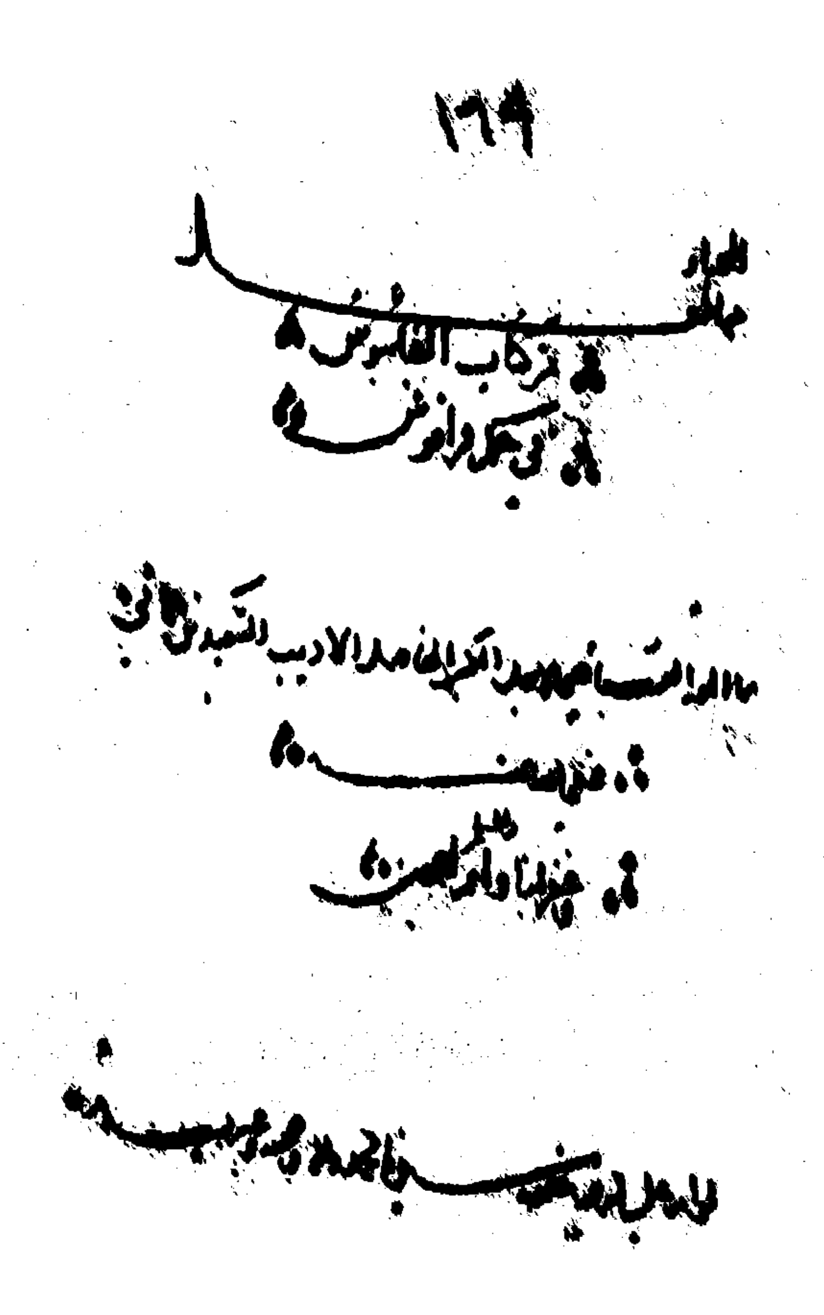
الترتيب، كما ربطتُ بين الحكايات المشتركة بين النصَّيْن، بالإشارة إلىٰ ذلك، والإشارة كذلك إلىٰ تفرُّد كلِّ نصٍّ بالحكايات التي تفرَّد بها عن الآخر، كل ذلك في مواضعه من النص.

وذيَّلت النَّصَّيْن المحقَّقَيْن بكشافات للأعلام، والفِرق والجماعات والطوائف، والبلدان والأماكن والمواضع، والمصطلحات النوعية، والأمثال والحِكَم والقواعد، والكتب الواردة في المتن.

والله الموفق والمستعان

نماذج مختارة
من لوحات نُسَخ المخطوطات
المعتمَدة في التحقيق





الصفحة الأولى من مخطوط دار الكتب المنسوب لابن مَمَّاتي (٥٩مجاميع طلعت)

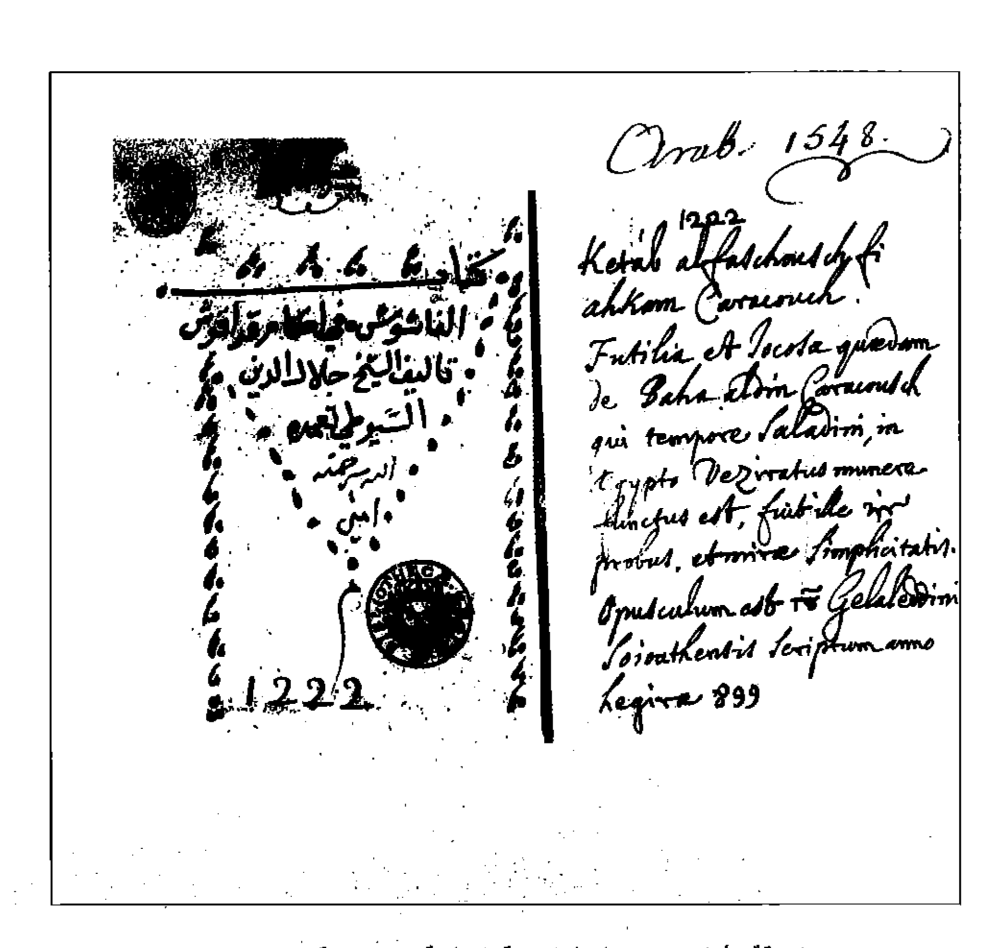
بسم الله الرحمن الرحيم

الصفحة الثانية من مخطوط دار الكتب المنسوب لابن مَمَّاتي (٥٩مجاميع طلعت)

الصفحة الأولى من مخطوط دار الكتب (٢٥ مجاميع قولة)

الصفحة الأولى من مخطوط دار الكتب (٥٤٦ مجاميع طلعت)

الورقة الأولى من مخطوط المتحف البريطاني رقم OR 6646-1


كتاب الفاشوش في احكام قراقوش
تاليف الشيخ جلال الدين
السيوطي
1222

Arab. 1548.
1222
Ketab alfaschousch fi ahkam Caracouch.
Futilia et Iocosa quaedam de Baha eddin Caracouch qui tempore Saladini, in Egypto Vezirratus munera functus est, futilis vir probus, et mirae simplicitatis.
Opusculum est τῶ Geleleddini Soiouthensis scriptum anno hegira 899

الورقة الأولى من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم R.36.974

الفاشوش

في

أحكام وحكايات

قراقوش

(طبع)

بالمطبعة الخصوصية ببولاق مصر

سنة ١٣١١ هجرية

ثمن النسخة عشرة مليم

غلاف طبعة الخصوصية ببولاق، سنة ١٣١١هـ



القسم الثاني

النّصان المحقّقان

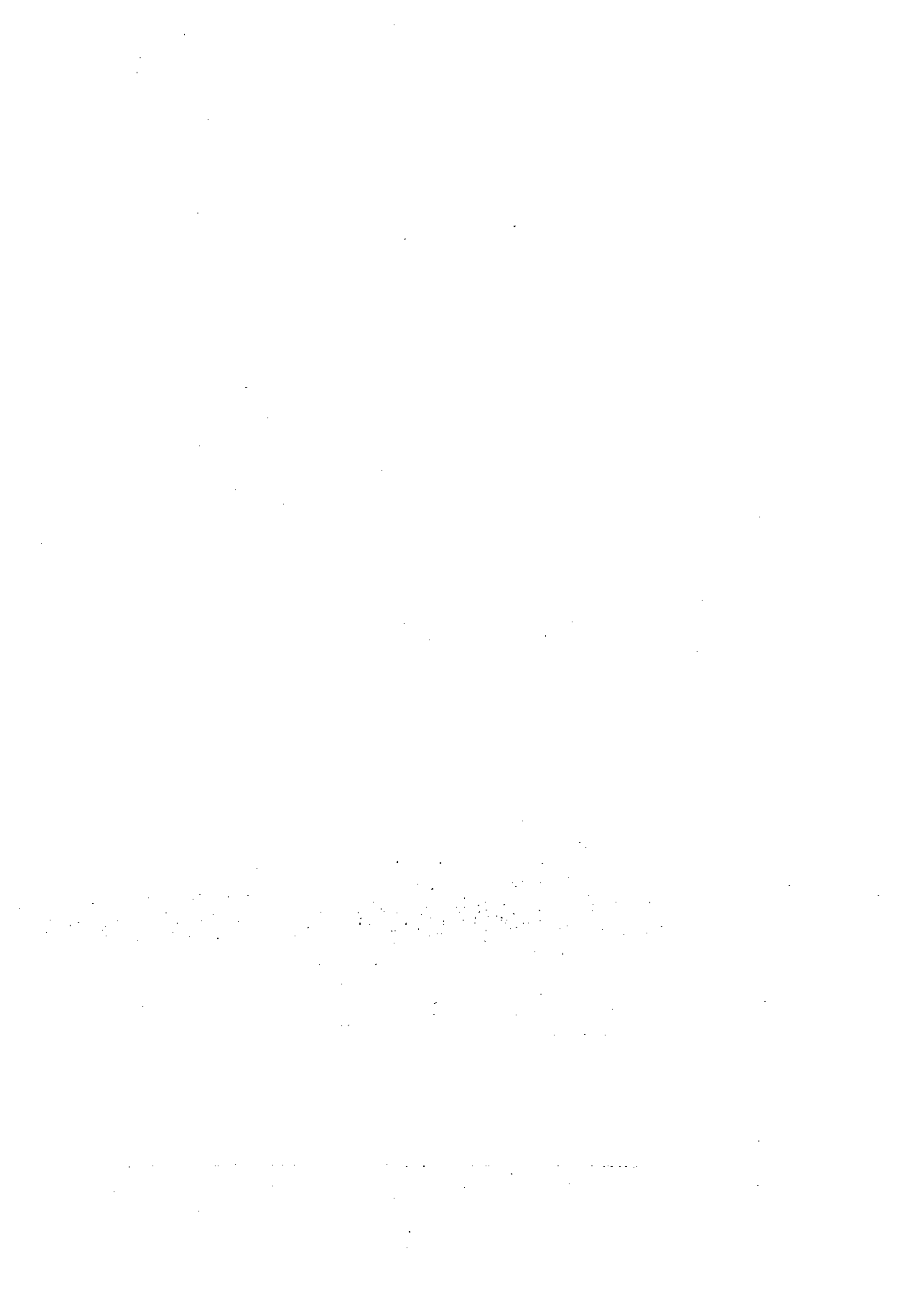
المختار مما نُقل من كتاب
الفَاشُوش في حُكْمِ قَرَاقُوش

للأسعد بن مَمّاتي (ت٦٠٦هـ - ١٢٠٩م)

و

كتاب الفَاشُوش في أحْكَامِ قَرَاقُوش

مما جمعه جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ - ١٥٠٥م)



المختار مما نُقل من كتاب
الفَاشُوش في حُكْمِ قَرَاقُوش

للأسعد بن مَمَّاتي (ت٦٠٦هـ - ١٢٠٩م)

[النص المنسوب لابن مَمَّاتي]

[١٧٠ظ] «المُخْتَارُ مما نُقل مِن كِتَابِ الفَاشُوش في حُكْم قَرَاقُوش»،
مِمَّا أَلَّفَهُ القَاضِي الأجلُّ الكبير الفاضل الأَدِيبُ
السَّعِيدُ بْنُ مَمَّاتي، عَفَا اللهُ عَنْهُ والمسلمين،
وغَفَرَ لَنَا ولَهُم والمُسْلِمِينَ أَجْمَعِين،
وصَلُّوا عَلَىٰ أَشرَفِ خَلقِهِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحبِهِ وعِتْرَتِه



[١٧١و] بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ العَقْلَ أَشْرَفَ الأَسْبَابِ، فَشَرَّفَ قَوْمًا أَسْمَاهُمْ أُولِي الأَلْبَابِ، ورَكَّبَ الجَهْلَ فِي كُلِّ رَأْسٍ ثَقِيل[1]، فَقَالَ عزَّ مَن قائل: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

قالَ القَاضِي الأَجَلُّ الكَبِيرُ، الفَاضِلُ السَّعِيدُ بْنُ مَمَّاتِي، عَفَا اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ: إِنَّنِي لَمَّا رَأَيْتُ عَقْلَ بَهَاءِ الدِّينِ قَرَاقُوشَ مِخْزَمَةَ فَاشُوش[2]، قَدْ أَتْلَفَ الأُمَّةَ، فَاللهُ يَمْحُو[3] عَنْهُمْ كُلَّ غُمَّة، لَا يَقْتَدِي بِعَالِمٍ، ولَا يَعْرِفُ المظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ، وكَمْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الجُنَّة، والشَّكِيَّةُ عِنْدَهُ لِمَنْ سَبَق، ولَا يَهْتَدِي لِمَنْ صَدَق، ولَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْ عِظَمِ مَنْزِلَتِهِ عَلَىٰ أَنْ يَرُدَّ كَلِمَتَه، ويَشْتَطُّ[4] اشْتِيَاطَ الشَّيْطَان، ويَحْكُمُ حُكْمًا مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِ مِنْ سُلْطَان؛ فَصَنَّفْتُ هَذَا الكِتَابَ لِصَلَاحِ الدِّين؛ عَسَىٰ [أَنْ][5] يُرِيحَ مِنْهُ المُسْلِمِين.

وكَانَ قَرَاقُوشُ رَجُلًا صِقِلِّيًّا، يَمِيلُ إِلَىٰ البِيضَان[6]، ويُبْغِضُ السُّودان[7]، فَاللهُ المُسْتَعَان، وعَلَيْهِ التُّكْلان.

---

(١) في الأصل: «ثقيلًا» بالنصب، والمثبت هو ما تقتضيه القواعد النحوية.

(٢) فاشوش: الأحمق الذي ضعف رأيه، وأفرط من الكذب، ويعني أن عقل قراقوش لا ينطوي إلا علىٰ الحماقة والغباء.

(٣) في الأصل: «يمح»، والفعل مرفوع لم يسبقه جازم.

(٤) اشتط: بعد، وجار في حكمه؛ والصحيح أنها «اشتاط»؛ ليكون مصدرها اشتياطًا. انظر: لسان العرب، مادة (ش.ي.ط) ٣٣٤/٧.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) يقصد أنه يحب ذوي البشرة البيضاء ويتحيز لهم، والحكاية تبدأ بداية حدثية تنهض بدورها الاستباقي في توقع نتيجة المشهد أو ما سيؤول إليه؛ إذ تقدم للقارئ ختام الحكاية قبل أن يقرأ ما يتكهن بأن حكم قراقوش سوف يكون في صالح البيضاء التركية، وهو ما حدث بالفعل.

(٧) يقصد أنه يكره ذوي البشرة السمراء ويتحيز ضدهم.

حِكَايَةٌ

[الجَارِيَةُ البَيْضَاءُ][1]

[١٧١ظ] فَأَوَّلُ حُكُومِهِ[2] فِي أَنَّ امْرَأَةً حِجَازِيَّةً لَهَا جَارِيَةٌ تُرْكِيَّةٌ، قَالَتْ لِقَرَاقُوشَ: إنَّ هَذِهِ جَارِيَتِي قَدْ أَسَاءَتِ الأَدَبَ عَلَيَّ!

قَالَ: فَنَظَرَ قَرَاقُوشُ إِلَىٰ بَيَاضِ الجَارِيَةِ التُّرْكِيَّةِ وسَوادِ الحِجَازِيَّةِ، فقَالَ لِلحِجَازِيَّةِ: ويْلَكِ[3]، خَلَقَ اللهُ جَارِيَةً تُرْكِيَّةً لِجَارِيَةٍ سَوْدَاءَ حِجَازِيَّةٍ!

مَا أَنَا مَطْغُومٌ[4] ولَا مَدوخ[5]. يَا غِلْمَان، ودُّوا[6] هَذِهِ الحِجَازِيَّةَ الحُجْرَةَ.

قَالَ: فَمَكَثَتْ شَهْرًا، وبَعَثَتْ إِلَيْهِ الحِجَازِيَّةُ أَنِّي قَدْ عَتَقْتُهَا لِوجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَالَ: هَذَا الحَالُ حَتَّىٰ تُعْتِقُكِ[7]؛ فَإنَّكِ جَارِيَتُهَا، وإِنْ أَرَادَتْ بَيْعَكِ فَتَبِيعُكِ[8]، أو عَتَقتكِ[9] فتُعْتِقكِ.

فَقَالَتِ الحِجَازِيَّةُ لِلتُّرْكِيَّةِ: اعْمَلِي مَعِي مِثْلَمَا عَمِلْتُ مَعَكِ[10].

فَقَالَتْ[11]: وما تُرِيدِينَ مِنِّيٰ؟

[فَقَالَتِ الحِجَازِيَّةُ: أَنْ تَعْتِقِينِي][12].

فَقَالَتِ التُّرْكِيَّةُ: إِنِّي قَدْ عَتَقْتُ سَيِّدَتِي الحِجَازِيَّةَ.

فَقَالَ قَرَاقُوش: جَزَاكِ اللهُ خَيْرًا.

---

(1) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

(2) في الأصل: «حكومًا»، ويقصد: أحكامه، ومفردها: حكم.

(3) في الأصل: «والك».

(4) مطغوم: من الطغامة، وهي الدناءة والضعف والحمق، والعرب تقول للرجل الأحمق: طغامة ودغامة، لسان العرب، مادة (ط.غ.م) ١٢/٣٦٨.

(5) ولا مدوخ: أي غير سكران؛ لأن من يسكر تلعب الخمر برأسه.

(6) أي: اذهبوا بها.

(7) في الأصل: «تعتقكي».

(8) في الأصل: «بيعكي فتبيعكي».

(9) كذا في الأصل، وحقه أن يقول: أو «أعتقتك»؛ فإن (عتق) الثلاثي لازم. انظر المصباح المنير (ع.ت.ق).

(10) في الأصل: «معكي».

(11) يقصد التركية موجهة حديثها للحجازية.

(12) زيادة يقتضيها السياق.

حِكَايَةٌ

[مَخْلُوق بِلَا لِحْيَة][1]

قال: وأَتَاهُ ثَلاثُ[2] أَنْفُسٍ، أَحَدُهُمْ أَجْرُودٌ[3] سُنَاطٌ[4]، والاثْنَانِ[5] كِبَارُ اللِّحَىٰ، وقَدْ نَتَفَ الأَقْودُ[6] الأَجرُودُ ذُقُونَهُمَا. فَقَالَ الرَّجُلَانِ[7]: يَا مَوْلَانَا، يَا بَهَاءَ الدِّين، خُذْ لَنَا حَقَّنَا مِنْ هَذَا؛ فَقَدْ نَتَفَ ذُقُونَنَا وخَرَقَ ثِيَابَنَا.

قال: فَنَظَرَ قَرَاقُوشُ إِلىٰ الأَجرُودِ السُّنَاطِ، وقال: مَا لَكُمْ نَتَفْتُمْ ذَقْنَ هَذَا الصَّبِيِّ، وجِئْتُمْ تَشْكُوه؟ ودُوهُمَا إِلىٰ الحَبْسِ، ولَا تُخْرِجُوهُمَا حَتَّىٰ تَطْلَعَ ذَقْنُ هَذَا الصَّبِيِّ.

حِكَايَةٌ

[سَنَةٌ في يَومٍ][8]

[١٧٢و] قِيلَ: إنَّ امْرَأَةً أَتَتْهُ بِولَدِهَا، فَقَالَتْ: يَا سَيِّدِي، إنَّ ولَدِي يَشْتُمُنِي.

قَالَ: فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ سَنَةً.

قَالَ: فَلَمْ يَأْخُذْ أُمَّهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ نَوْمٌ. قَالَ: فَأَصْبَحَتْ رَاحَتْ إِلىٰ عِندِ السَّجَّانِينَ، وقَالَتْ: مَا الحِيلَةُ في خَلَاصِ ولَدِي مِنْ هَذَا الحَبْسِ؟

---

[1] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي. وهي الحكاية (السادسة) عند السيوطي.

[2] في الأصل: «ثلاثة». والنفس مؤنث، فيجب تذكير العدد معها فهي معدود، قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧]، انظر: المذكر والمؤنث للتستري ٢، ٨؛ والبلغة للفيروزابادي ٦٧.

[3] أجرود: لا شعر عليه.

[4] ضبط في الأصل بتشديد النون. وسناط: خفيف العارض.

[5] في الأصل: «والاثنين»، والمثبت موافق لمقتضىٰ القواعد النحوية.

[6] الأقود: الطويل العنق والظهر من الناس.

[7] في الأصل: «الرجل»، والمثبت بدلالة السياق.

[8] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي، وهي الحكاية (الثانية عشرة) عند السيوطي.

فَقَالُوا: هَاتِي حَلَاوتَنَا[1] ونُعَرِّفْكِ إيش[2] تَقُولِينَ لِلأَمِيرِ بَهَاءِ الدِّينِ قَرَاقُوش.

قَالَ: فَدَفَعَتْ لَهُمُ الفِضَّة، وقَالُوا لَهَا: رُوحِي السَّاعَةَ إلىٰ الأَمِيرِ، وقُولِي لَهُ: يَا سَيِّدِي، أَنَا الامرأةُ[3] الَّتِي حَبَسْتَ لِي ولَدِي إلىٰ سَنَةٍ، وقَد انْقَضَتِ السَّنَةُ، فَأَخْرِجْ لي ولَدِي.

فَأَتَتْ إلىٰ الأَمِيرِ قَرَاقُوش، وقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهَا: رُوحِي بِلا مِحَالٍ، قَدْ بَقِيَ لَهُ مِنَ السَّنَةِ سَبْعَةُ أَيَّامٍ مِنْ سِوىٰ أَمْسِ وغدٍ[4].

قَالَ: فَمَضَتْ وأَعْلَمَتِ السَّجَّانِينَ. فَقَالُوا: هَذِهِ نِعْمَة، فَإذا كَانَ غَدًا رُوحِي إلَيْهِ، وقُولِي: قَدِ انْقَضَت السَّبْعَةُ أَيَّامٍ. قَالَ: فَأَصْبَحَتْ جَاءَتْهُ. فَلَمَّا نَظَرَ إلَيْهَا قَالَ: يَا امْرَأَة، حَتَّىٰ تَغْرُبَ الشَّمْسُ. يَا غُلامُ، إذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَأَطْلِقْ لَهَا ولَدَهَا مِنَ الحَبْسِ، ولَا تَرْجِعِي تِجِيبِيه، هَحْبسو[5] سَنَتَين.

فَقَالَتْ: أَنْتَ في حِلٍّ مِنْ هَذَا البَلَه، والسَّلام.

[١٧٢ظ] حِكَايَةٌ

[لا تُخْبِرِ الفَرَس][6]

قَالَ: وسَابَقَ رَجُلًا بِفَرَسٍ لَهُ، فَسَبَقَهُ الرَّجُلُ بِفَرَسِهِ، فَحَلَفَ أَنَّهُ لَا يَعْلِفُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. فَقَالَ لَهُ السَّابِقُ: يَا مَوْلَايَ، يَمُوتُ الفَرَسُ. فَقَالَ لَهُ: احْلِفْ لِي أَنَّكَ إذَا عَلَفْتَهُ يَا هَذَا لا تُعْلِمَهُ أَنِّي دَرَيتُ بِذَلِكَ.

---

[1] تسمىٰ الحلاوة أو القهوة أو الإكرامية أو الهدية، ولكن هي في الواقع رشوة وإن كان لها أسماء عديدة وتتجدد إطلاقاتها وأسماؤها التي تستخدم للابتزاز واستخدام السلطة في تعطيل مصالح الناس وحقوقهم. ويقال: ارتشي منه رشوة أخذها. والرشوة في الاصطلاح: هي ما يدفعه الإنسان ليتوصل به إلىٰ باطل، وفي اللغة: الحلوان، بالضم: أجرة الدلال أو ما أعطي من نحو رشوة. انظر: المحيط في اللغة ١٢٧٦/١.

[2] إيش وأيش: مركبة من كلمتين هما (أي شيء). انظر أسرار العربية ١٧٦، المصباح المنير (ش.ي.أ).

[3] وجه الكلام أن يقول: «المرأة»، لكن «الامرأة» لغة في المرأة، سمعها الفراء وحكاها أبو علي الفارسي. انظر المحكم والمحيط الأعظم ٢٩٤/١٠؛ والمخصص ٦٧/٥.

[4] في الأصل: «غدًا»، وهو ظرف زمان معرب منصوب إذا سبقه جارٌّ جُرَّ به.

[5] في الأصل: «لا ترجعي تجيبيه، هحبسوا». وجابه يجيبه في العامية بمعنىٰ «أحضره» وليس لغة في جاب يجوب». ولفظة «هحبسو» في الأصل: حهبسوا». ولم أقف على ما يوثق أن هذه العامية كانت تستخدم زمن الأسعد بن مماتي (ت٦٠٦هـ)، وربما تكون نسخة طلعت هذه منسوخة متأخرًا قبل ١٩٠٠م !

[6] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي، وهي الحكاية (السابعة) عند السيوطي.

حِكَايَةٌ

[اشْنُقُوا القَفَّاص][1]

قَالَ: وأَتَوْهُ بِغُلامٍ لَهُ رَاكِبْدَار، وقَدْ قُتِلَ، فَقَالَ: اشْنُقُوهُ: ثُمَّ قَالُوا لَهُ: إنَّهُ حَدَّادُكَ، ويَنْعَلُ لَكَ الفَرَسَ، فَإِنْ شَنَقْتَهُ انْقَطَعَتْ مِنْهُ.

قَالَ: فَنَظَرَ قَرَاقُوشُ قُبَالَةَ بَابِهِ لِرَجُلٍ قَفَّاصٍ، فَقَالَ: مَا لَنَا بِهَذَا القَفَّاصِ حَاجَةٌ. فَلَمَّا أَتَوْهُ بِهِ، قَالَ: اشْنُقُوا القَفَّاصَ، وسِيبُوا الرَّاكِبْدَارَ الحَدَّادَ الَّذِي يَنْعَلُ لَنَا الفَرَسَ.

حِكَايَةٌ

[اللِّص والقُمَاش][2]

قَالَ: وأَتَوْهُ بِلِصٍّ، ومَعَهُ كَارَةُ[3] قُمَاشٍ. فَقَالَ لَهُم: ويْلَكُم[4]، جِيتُم[5] تَكْذِبُونَ عَلَىٰ هَذَا الغَرِيب، انْفُوهُ بِهَا مِنَ البَلَدِ، ولا تَقْطَعُونَ[6] صَانعَةَ[7] لِصٍّ غَرِيب.

حِكَايَةٌ

[رأي مبارك][8]

قَالَ: وتَوقَّفَ النِّيلُ بِمِصْرَ أَيَّامًا، فَنَظَرَ إلىٰ جِمَالِ السَّقَّائينَ عِشْرِينَ عِشْرِينَ جَمَلًا، قَالَ: فَتَفَكَّرَ عِنْدَ ذَلِكَ، وقَالَ: فَأَنَا أَقُولُ ما لَكُما [١٧٣و] مَا يُوفي مِنْ هَذه

---

(1) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي. وهي الحكاية (الخامسة عشرة) عند السيوطي.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي. وهي الحكاية (السادسة عشرة) عند السيوطي.

(3) الكارة: ما يجمع ويشد ويحمل علىٰ الظهر من ثياب.

(4) في الأصل: «والكم» والمعنىٰ: ليس لكما.

(5) يقصد: «جئتم». بتسهيل الهمزة، والهمز أصل والتسهيل فرع عنه.

(6) الصحيح: «تقطعوا»، فالفعل مجزوم بـ(لا الناهية).

(7) في الأصل: «مصانعة».

(8) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي. وهي الحكاية (السابعة عشرة) عند السيوطي.

الآفات، يَا غِلْمَانُ، نَادُوا في المَدِينَةِ قَدْ أَمَرَ بَهَاءُ الدِّينِ قَرَاقُوش لَا يَمْلَا أَحدٌ مِنَ البَحْرِ [1] إِلَّا جَمَلًا واحِدًا.

قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَوْفَىٰ النِّيلُ. فَقَالَ لَهُم: يَا هَؤُلَاءِ، الويْلُ لَكُمْ إِنْ عَدِمْتُمُونِي، فَكَيْفَ رَأَيْتُمْ رَأْيِي عَلَيْكُمْ؟ فَمَا هُو إِلَّا رَأْيٌ مُبَارَك!

حِكَايَةٌ

[جزاءُ الشاعر][2]

قَالَ: ومَدَحَهُ رَجُلٌ بِقَصِيدَةٍ، وأَنْشَدَهَا بِصَوْتٍ طَيِّبٍ؛ فَقَالَ لَهُ قَرَاقُوشُ: يَا مُقْرِئ، لَقَدْ قَرَأَت طَيِّبًا، وأَنَا أُرِيدُ أَنْ أخرز [3] هَذِهِ القَصِيدَةَ عَلَىٰ درَاعِي، فَأَنْتَ مَدَحْتَنَا، ونَحْنُ دَعَوْنَا لَكَ، فَجَزَاكَ اللهُ عَنَّا خَيْرًا.

فَقَالَ الشَّاعِرُ: وأَنْتَ فَلَا جَزَاكَ اللهُ عَنَّا خَيْرًا.

فقَالَ بَهَاءُ الدِّينِ: يَا هَذَا، كَأَنِّي آرَاكَ جَائِعًا، أَعْطُوهُ مِائَةَ أَرْدَبِّ قَمْحٍ.

قال: فَأَخَذَهَا عَلَىٰ السَّاعَةِ وانْصَرَفَ.

---

[1] استخدم ابن مماتي على لسان قراقوش لفظة «البحر»؛ والمعروف أن المصريين في صعيد مصر يطلقون على النيل لفظ «البحر»؛ لذا حرص ابن ممَّاتي علىٰ أن يأتي بالكلمة بما لها من دلالة في العامية المصرية؛ ولكي يحقق لقرائه المتعة دون أن يقطعها بعض الألفاظ التي قد تغمض عليهم. انظر: محمد المكي، السرد المشهدي، ص ٣٦٦.

[2] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة ابن مماتي فقط.

[3] يقصد: وشم القصيدة علىٰ ذراعه بطريقة الخرْز بالدبابيس. والوشم يعرف شعبيًّا باسم «الدق»، وهو عبارة عن: وضع علامة علىٰ جلد الإنسان وبخاصة علىٰ ظاهر اليد، أو الذراع، أو علىٰ الخد، أو الشفة السفلىٰ، أو الذقن. وتتم عملية الدق عن طريق تحديد الشكل علىٰ المكان المراد وشمه، ثم (يخزر) بالدبابيس حتىٰ تنزف، ثم يغطي المكان كله بنوع من الحبر يسمىٰ «الحبر الزفر»، وبعد شفاء الجلد وجفاف الحبر تكون الوحدة المختارة قد ثبتت علىٰ الجلد ويكون لونه أخضر، أو أزرق، أو أسود. للمزيد انظر: محمد الجوهري: موسوعة التراث الشعبي ٣/٤٩٥.

حِكَايَةٌ

[عقابُ القاضي](1)

قَالَ: وحَكَىٰ أَنَّهُ بَاتَ لَيْلَةً عِنْدَ قَاضِي المَطَرِيَّةِ(2)، فَأَخْرَجَ لَهُ قَرَاقِيشَ(3) وزَيْتُونَ، فَقَالَ له قَرَاقُوش: إنْ كَانَ في غَدَاةِ غَدٍ، فَتَعَالَ إِلَيْنَا القَاهِرَةَ.

قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ رَكِبَ القَاضِي مُهْرَةً لَهُ وأَتَىٰ إلىٰ قَرَاقُوشَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ.

قَالَ: فَأَبْصَرَ حِصَانُ قَرَاقُوشَ المُهْرَةَ فَشَبَّ، فَتَقَطَّبَ(4) قَرَاقُوشُ، فَحَصَلَ لَهُ بِذَلِكَ تَشْوِيشٌ(5)، قَالَ: فَحَطَّ القَاضِي فِي الحَبْسِ سَنَةً، ثُمَّ أَخْرَجَهُ واسْتَخْدَمَهُ [١٧٣ظ] عَلَىٰ الأَهْرَاءِ(6)، فَمَكَثَ سَنَةً في أَطْيَبِ عَيْشٍ، فَأَتَاهُ وقْتَ المُقْلَةِ(7) فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ قَرَاقُوش: اعْمِلْ لِي حِسَابَ القَمْحِ والشَّعِيرِ والفُولِ والحِمَّصِ.

فَكَتَبَهم في جَرِيدَةٍ بالكلِّ، وأَتَاهُ بِهَا. فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا؟ خَلَطتَ القَمْحَ والشَّعِيرَ والفُولَ والحِمَّصَ في جَرِيدَةٍ واحِدَةٍ؟! يَا غِلْمَانُ، احْبِسُوه.

قَالَ: فَمَكَثَ في الحَبْسِ سَنَةً ثَانِيَةً، فَدَخَلَ الحَبْسَ رَجُلٌ نَصْرَانِيٌّ، فَتَحَدَّثَ هُو والقَاضِي، قَالَ: فعَلِم كَيْفَ خَلَاصَه. فأَخَذَ النَّصْرَانِيُّ [منه](8) الجَرِيدَةَ، فَكَتَبَ بِالقَمْحِ وحْدَهُ، وبَعَثَهُ إلىٰ قَرَاقُوشَ، وبَعْدَ شَهْرٍ كَتَبَ(9) بِجَرِيدَةٍ الشَّعِيرَ وحْدَه، وبَعْدَ

---

(1) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة ابن مماتي فقط.

(2) المطرية: أحد المدن التابعة لمركز المنزلة بمحافظة الدقهلية حاليًا، وهي غير المطرية الحي الواقع قرب عين شمس بالقاهرة.

(3) الخبز المجفف، وهي كلمة عامية مستعملة بريف مصر إلىٰ اليوم.

(4) فتقطب: أي فعبس وتجهم.

(5) أي: اختلاط ولبس.

(6) الأهراء أو (الهرى): بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان. ولها ديوان من دواوين الدولة هو «ديوان الأهراء» المختص بشئون الغلال السلطانية. انظر: ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ القانون المصري، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م، ص٢٢٦.

(7) أي: وقت غمر الأرض بالماء.

(8) في الأصل: «في»، وما أثبته تصويب يقتضيه السياق.

(9) في الأصل: «فكتب».

شَهْرٍ كَتَبَ[1] بِجَرِيدَةِ الفُولَ، وبَعْدَ شَهْرٍ بجَرِيدَةِ الحِمَّصَ وحْدَه. فَلَمَّا حصَلَ الكُلُّ عِنْدَ قَرَاقُوشَ، قَالَ: لَقَدْ تَعِبْتَ يَا فَقِيه، نَقَّيتَ هَذَا مِنْ هَذَا، وذَا مِنْ ذَا. زُفُّوهُ في المَدِينَةِ[2]!، قَالَ: فَحَلَفَ للقَاضِي أَنَّهُ لَا يَبْقَىٰ يَخْدِمُ قَرَاقُوشَ أَبَدًا.

حِكَايَةٌ

[ضَرَبنِي واشْتَكَىٰ][3]

قَالَ: وجَاءَ شَابٌّ مَضْرُوبٌ، فَبَعَثَ مَعَهُ خَمْسَةَ[4] رِجَالٍ مِنَ الجَنَادِرَة[5]، قَالَ: فَبَلَغَ الخَبَرُ إِلَىٰ خَصْمِهِ الظَّالِمِ، فَسَبَقَهُ ووقَفَ بِجَانِبِ قَرَاقُوش، فَلَمَّا أَقْبَلَ. قَالَ: هَذَا الَّذِي قَتَلَنِي وضَرَبَنِي، فَبَطَحَهُ وضَرَبَهُ إِلَىٰ [أَنْ][6] أَشْرَفَ[7] عَلَىٰ المَوْتِ، وهُو يَقُولُ: أَنَا مَظْلُوم! فَقَالَ[8]: سَبَقَكَ! فَحَلَفَ أُنَاسٌ [١٧٤و] أَنَّهُمْ لَا يَقْعُدُونَ مَا دَامَ قَرَاقُوشُ في البِلَادِ حَاكِمًا.

---

(1) في الأصل: «فكتب».

(2) زفه يزفه: إذا سمَّع به وندد؛ لاقترافه ما ينافي المروءة.

(3) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي. وهي الحكاية (الثامنة عشرة) عند السيوطي.

(4) في الأصل: «خمس»، والمثبت موافق لمقتضىٰ القواعد النحوية.

(5) الجنادرة، يقصد «الجندارية»، وهي طائفة عسكرية عرفت في العهدين الأيوبي والمملوكي، ليس لهم رزق في الدواوين الشريفة، ولا عليهم خدمة إلا في المهمات العظيمة التي تحتاج إلىٰ كثرة العسكر، كانت عدتهم تصل إلىٰ عشرة آلاف جندي، أطلق عليهم في بعض المصادر لقب «أولاد الناس»، كان علىٰ قيادتهم مقدمون يتميزون بالرأي السديد والوجاهة في العسكر. انظر: مصطفىٰ عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٦م، ص١٢٨.

(6) زيادة يقتضيها السياق.

(7) في الأصل: «أترف».

(8) يقصد قراقوش.

حِكَايَةٌ

[رسالةُ اليهودي][1]

قَالَ: وأَتَوْهُ بِمَحْضَرٍ في شَهَادَةِ المُسْلِمِينَ بِإِثْبَاتِ دَارٍ في خُطِّ قَصْرِ الشَّمْعِ[2]. قَالَ: فَنَظَرَ عِنْدَ ذَلِكَ الأَمِيرُ بَهَاءُ الدِّينِ قَرَاقُوشُ في المَحْضَرِ، وقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، كَمَّلْتُم المَحْضَرَ بِخَطِّ رَئِيسِ اليَهُودِ؟ فَقَالُوا: لَا. فَقَالَ: هَذَا كُلُّهُ زُورٌ وبُهْتَانٌ ومُحَالٌ، ورَمَىٰ المَحْضَرَ مِنْ يَدِهِ!

حِكَايَةٌ

[دَارُ يَا دَارُ][3]

قَالَ: وأَتَاهُ شَيْخٌ وصَبِيٌّ أَمْرَدُ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَقُولُ: يَا مَوْلَايَ، دَارِي! فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ قَرَاقُوشُ لِلصَّبِيِّ: مَعَكَ كِتَابٌ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَالدَّارُ مَا تَكُونُ إِلَّا لِلشَّيْخِ الكَبِيرِ. يَا صَبِيُّ، ادْفَعْ لَهُ دَارَهُ، وإِذَا صِرْتَ في عُمْرِ هَذَا الشَّيْخِ الكَبِيرِ يَا صَبِيُّ دَفَعَ لَكَ الدَّارَ، والسَّلام.

---

(1) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة ابن مماتي فقط.

(2) خط قصر الشمع هذا الخط يعرف بـ«قصر الشمع»، وفيه قصر الروم، وأزقة ودروب، قال ابن المتوج: وكنيسة المعلقة بمصر بباب القصر، وهو قصر الروم. يعرف الحصن الروماني بقصر الشمع أو قلعة بابليون وتبلغ مساحته نحو نصف كيلومتر مربع، ويقع بداخله المتحف القبطي وست كنائس قبطية ودير. ويرجع إطلاق اسم «قصر الشمع» علىٰ هذا الحصن، إلىٰ أنه في أول كل شهر كان يوقد الشمع علىٰ أحد أبراج الحصن التي تظهر عليها الشمس ويعلم الناس بوقود الشمع بانتقال الشمس من برج إلىٰ آخر. ويقع حصن بابليون الآن في القاهرة عند محطة مترو الأنفاق المعروفة بـ«مار جرجس»، وكان الإمبراطور تراجان قد أمر ببنائه في القرن الثاني الميلادي في عهد الاحتلال الروماني لمصر، وقام بترميمه وتوسيعه وتقويته الإمبراطور الروماني أركاديوس في القرن الرابع، حسب رأي مرقص سميكة باشا. وقلعة تراجان هذه غير القلعة القديمة التي ذكرها المؤرخ إسترابو، وكان موقعها إلىٰ الجنوب من قصر الشمع بالقرب من دير بابليون الحالي. انظر: الخطط المقريزية ٦٩/٢.

(3) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي. وهي الحكاية (التاسعة عشرة) عند السيوطي.

حِكَايَةٌ

[دِيك الغُلَام][1]

قَالَ: وأَتَوْهُ بِغُلَامٍ، وفِي يَدِهِ دِيكٌ. فَقَالَ: يَا هَذَا، إنَّ هَذَا الدِّيكَ لَوْ نَقَرَ عَيْنَكَ لَكَانَ يَقْلَعُهَا. يَا غِلْمَانُ، خُذُوا مِنْهُ دِيَةَ عَيْنِهِ.

قَالَ: فَحَلَفَ أَنَّهُ لَا يَقْعُدُ في مَدِينَةٍ يَكُونُ حَاكِمَهَا قَرَاقُوشُ أَبَدًا.

حِكَايَةٌ

[ثوب النَّصْرَانِي][2]

[١٧٤ظ] قَالَ: وأَتَاهُ رَجُلٌ نَصْرَانِيٌّ كَاتِب، فَخَافَ أَنْ يَدْخُلَ بِدَوَاتِهِ الآبَنُوسِ السَّوْدَاءِ، فَيَقُولُ: صَبَّحْتَنَا بِالسَّوادِ. قَالَ: فَجَعَلَهَا فِي خِرْقَةٍ، فَسَالَتِ اللِّيقَةُ[3] عَلَىٰ سِيقَانِ النَّصْرَانِيّ؛ فَقَالَ لَهُ قَرَاقُوشُ: ويْلَك[4]، ممَّا تَغْلَطُ في دَفَاتِرِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ وتَلْحَسُهُمْ، صَارَتْ بَدْلَتُكَ سَوْدَاء! يَا غِلْمَان، ودُّوهُ إلىٰ الحَبْسِ حَتَّىٰ تَبْيَضَّ بَدْلَتُهُ، ثُمَّ نُخَلِّصَه.

تَمَّ «المُخْتَارُ مِن كِتَابِ الفَاشُوش في أحْكَامِ قَرَاقُوش»،

وبَعْد الحَمْدِ والمِنَّة

---

[1] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي. وهي الحكاية (العشرون) عند السيوطي.

[2] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة ابن مماتي فقط.

[3] الليقة: صوفة الدواة إذا بلت، قطعة من القطن الجديد أو الحرير توضع عند فتحة أواني المداد لكي ينظف فيها سن القلم قبل الكتابة. انظر: لسان العرب، مادة (ل.ي.ق) ١٠/٣٣٤.

[4] في الأصل: «والك».

كتاب
الفَاشُوش في أحْكَامِ قَرَاقُوش

مما جمعه جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م)

[كِتَابُ الفَاشُوش في أَحْكَامِ قَرَاقُوش
لِلْجَلَالِ السّيُوطِيّ،
رَحِمَهُ الله][1]

(١) العنوان مثبت من: ط، وفي ق: «كلام في قراقوش للجلال السيوطي»، وفي ب: «كتاب الفاشوش في حكم قراقوش للحافظ السيوطي». وفي س: «الفاشوش في أحكام قراقوش، تأليف الشيخ جلال الدين السيوطي، تغمده الله برحمته، آمين».



بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ [وكَفَىٰ][1]، وسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، وبَعد.

[فَأَقُولُ وأَنَا الجَلالُ السُّيُوطِيُّ][2]: فَقَدْ[3] سُئِلْتُ في دَرْسِي بِالجَامِعِ[4] الطُّولُونِيِّ[5]، في أَواخِرِ[6] المُحَرَّمِ[7] سَنَةَ تِسْعٍ وتِسْعِينَ وثَمَانِ مِائَةٍ[8]، عَنِ الأَمِيرِ بَهَاءِ الدِّينِ قَرَاقُوشَ، وهَلْ لَهُ أَصْلٌ في التَّارِيخِ أَمْ لَا[9]؟ وهَلْ مَا يُعْزَىٰ إِلَيْهِ مِنَ الحِكَايَاتِ المُضْحِكَةِ لَهَا أَصْلٌ أَمْ[10] لَا؟

فَجَمَعْتُ في[11] هَذِهِ الأَوْرَاقَ، [مَا رَقَّ ورَاقَ][12]، في لَيْلَةٍ واحِدَةٍ[13]، وحَرَّرْتُهَا في سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ[14].

---

(1) زيادة من: ب، س، ط.

(2) زيادة من: خ.

(3) في خ: «قد»، والمثبت من: ب، ط، ق.

(4) في ق: «وأنا في الجامع الطولوني»، والمثبت من: ب، ط، خ.
وقد كان اتجاه الزهد مؤثرًا في حياة السيوطي طيلة المدة التي تولىٰ فيها مشيخة البيبرسية، وبالرغم من مشاركته في الحياة العامة، وإسهامه في النفع العام بالتدريس، حيث ظل إلىٰ ذلك الحين يملي الحديث بالجامع الطولوني، وكان يتردد علىٰ المسجد يوم الجمعة من كل أسبوع.

(5) الجامع الطولوني: ابتدأ بناءه الأمير (أحمد بن طولون) سنة ثلاث وستين ومئتين، وفرغ منه سنة خمس وستين ومئتين، وقد بلغت النفقة فيه مئة وعشرين ألف دينار، وجددت فيه أماكن في الدولة المملوكية. راجع: المقريزي: الخطط ٢/٢٦٥-٢٦٩، السيوطي: حسن المحاضرة ٢/٢٤٦-٢٥٠.

(6) في ق: «آخر»، والمثبت من: ب، ط، س، خ.

(7) في ط: «محرم»، والمثبت من: ب ، ق، خ.

(8) في س: «سنة ٨٩٩».

(9) في ط، خ: «أو لا»، المثبت من: ب، س، ق.

(10) في خ: «أو».

(11) في ط، ق: «فيه».

(12) زيادة من: خ.

(13) في س: «فجمعت فيه هذه الأوراق في تلك الليلة وحررتها في ساعة قليلة»، وفي ط: «جمعت فيه الأوراق في تلك وحررتها»، وفي ق: «فجمعت فيه هذه الأوراق في تلك الليلة وحررتها»، والمثبت من: خ.

(14) بعده في خ: «وسميته كتاب الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش، وهو محتو علىٰ عشرين حكايةً، واسمه بهاء الدين قراقوش، صاحب الحارة المعروفة بسويقة الصاحب القديمة في الجامع الحاكمي، وكان وزيرًا عند السلطان صلاح الدين بن أيوب».

وإنَّ أَصْلُ وُجُودِهِ[1] نَقَـلَ النَّاصِـرِيُّ[2] مُحَمَّدُ بْنُ تَغْرِي بَرْدِي[3] فِي كِتَـابِ «النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ[4] فِي وُلاةِ القَاهِرَةِ»[5] عِنْدَ ذِكْرِ السُّلْطَانِ صَلاحِ الدِّينِ [يُوسُفَ][6] بْنِ أَيُّوبَ[7] [مَا قَرَأْتُهُ][8]، وكَانَ وزِيرُهُ بِمِصْرَ[9] الصَّاحِبَ بَهَاءَ الدِّينِ قَرَاقُوشَ[10]، صَاحِبَ الحَارَةِ[11]

---

[1] في س: «وكذا أصل وجوده»، والمثبت من: الأصل، ط، ق. ومعنى الكلام: وإن أصل وجود قراقوش ما نقله ابن تغري بردي... إلخ.

[2] نسبةً إلى ناصر الدين محمد بن العديم الحنفي، قاضي القضاة، زوج أخته، الذي تولى تربيته بعد وفاة والده الأمير الكبير سيف الدين تغري بردي اليشبغاوي الظاهري، أتابك العساكر بالديار المصرية، ثم كافل المملكة الشامية.

[3] هو جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٢-٨٧٤هـ)، من طبقة «أولاد الناس»، وهو مؤرخ رومي الأصل (بيزنطي - يوناني)، مصري المولد، كان أبوه مملوكًا من مماليك السلطان الظاهر برقوق، اشتراه هذا السلطان في بداية سلطنته ثم أعتقه، وحين أسلم صار اسمه «تغري بردي بن عبد الله بن خواجا يشبغا»، ومعنى اسمه المحرف عن التركية: «عطية الله»، وقد جمع المؤرخ أبو المحاسن بين ثقافة أبناء الطبقة الوسطى من المصريين - أي التجار والعلماء والفقهاء -، وثقافة فئة «أولاد الناس»، التي كان ينتمي إليها بحكم انتمائه الطبقي. انظر: قاسم عبده قاسم، مقدمة كتاب، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (ج١، طبعة سلسلة الذخائر، القاهرة ٢٠٠٧م)، ص: و.

[4] في ق: «نقل الناصري عن تغري بردي في كتابه، النجوم الزاهرة»، والمثبت من: ب، ط، خ.

[5] الكتاب مطبوع باسم «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، عن دار الكتب المصرية في ١٦ جزءًا، آخرها سنة ١٩٧٢م، وهو يعد من أهمّ مؤلفات ابن تغري بردي، ويتبع طريقةً وسطى بين نمطين من أنماط الكتابة التاريخية عند المؤرخين المسلمين: يجمع بين الكتابة وفقًا لترتيب عهود الحكام، والطريقة الحولية التي ترتب الأحداث التاريخية في إطار زمني حسب السنين والشهور والأيام.

[6] سقط من: س، ط، ق، خ. وموضعه بياض في: ب، والمثبت من مصادر ترجمته.

[7] صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب؛ أول ملوك الأسرة الأيوبية التي حكمت مصر ما يقرب من ثمانين عامًا من سنة (٥٧٧هـ-٦٤٨هـ)، وقد دام حكمه لمصر اثنين وعشرين عامًا (من ٥٦٧هـ/١١٧١م إلى أن توفي في ٥٨٩هـ/١١٩٣م). انظر ترجمته في: المنتظم ٢٤٨/١-٢٤٩؛ ومفرج الكروب ١٥٨/١-٢٨٦.

[8] سقط من: ب، والمثبت من: س، ط، ق.

[9] في ق: «لمصر»، والمثبت من: ط.

[10] في ط، ق، خ: « بهاء الدين الصاحب قراقوش»، والمثبت من: ب، س. وهو الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الخادم الخصي المنسوب إليه حارة بهاء الدين بالقاهرة داخل باب الفتوح، وتقدمت ترجمته في الدراسة.

[11] حارة بهاء الدين: ذكرها المقريزي بقوله: «هذه الحارة كانت قديمًا خارج باب الفتوح الذي وضعه القائد جوهر عندما اختط أساس القاهرة من الطوب النيء، وقد بقي من هذا الباب عقدة برأس حارة بهاء الدين، وصارت هذه الحارة اليوم من داخل باب الفتوح الذي وضعه أمير الجيوش بدر الجمالي، وهو الموجود الآن. وحد هذه الحارة عرضًا من خط باب الفتوح

المَعْرُوفَـةِ بِـ«سـويقَةِ[1] الصَّـاحِبِ»[2] القَرِيبَـةِ[3] مِـنَ الجَـامِعِ الحَـاكِمِيِّ[4]، وكَـانَ رَجُـلًا

الآن إلىٰ خط حارة الوراقة بسوق المرحلين، وحدها طولًا فيما وراء ذلك إلىٰ خط باب القنطرة. وكانت هذه الحارة تعرف بحارة «الريحانية» و«الوزيرية»، وهما طائفتان من طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين، فإن بها كانت مساكنهم، وكان فيها لهاتين الطائفتين دور عظيمة وحوانيت عديدة؛ وقيل لها أيضًا: «بين الحارتين»، واتصلت العمارة إلىٰ السور، ولم تزل الريحانية والوزيرية بهذه الحارة إلىٰ أن كانت واقعة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالعبيد». وذكرها ابن عبد الظاهر بقوله: «وهي حارة بهاء الدين قراقوش علىٰ يسرة باب الجامع الحاكمي من ناحية الحوض، وتعرف قديمًا بـ«الجماعة الريحانية» إلىٰ أن استوطنها قراقوش المذكور»؛ ويدل علىٰ موضع هذه الحارة اليوم حارة بين السيارج المواجهة للركن الجنوبي الغربي لجامع الحاكم بأمر الله قرب باب الفتوح. للمزيد انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٨هـ) ٣/٣؛ وابن عبد الظاهر «محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري (٦٢٠-٦٩٢هـ)»: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، (تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م)، ص٦٥.

[1] سقط من: ق، والمثبت من: ط. وسويقة الصاحب، ذكرها المقريزي بقوله: «هذه السويقة يسلك إليها من خط البندقانيين، ومن باب الخوخة وغير ذلك، وهي من الأسواق القديمة، كانت في الدولة الفاطمية تعرف بـ«سويقة الوزير»، يعني أبا الفرج يعقوب بن كلس، وزير الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز الذي تنسب إليه حارة الوزيرية، فإنها كانت علىٰ باب داره التي عرفت بعده في الدولة الفاطمية بـ«دار الديباج»، وصار موضعها المدرسة الصاحبية، ثم صارت تعرف بـ«سويقة دار الديباج»، يعني دار الطراز، ينسج فيها الديباج الذي هو الحرير، وقيل لذلك الموضع كله: «خط دار الديباج»، ثم عرف هذا السوق بالسوق الكبير في أخريات الدولة الفاطمية، فلما ولي صفي الدين عبد الله بن شكر الدميري وزارة الملك العادل أبي بكر بن أيوب؛ سكن في هذا الخط، وأنشأ به مدرسته التي تعرف بـ«المدرسة الصاحبية»، وأنشأ به أيضًا رباطه وحمامه المجاورين للمدرسة المذكورة، وعرفت من حينئذ هذه السويقة بـ«سويقة الصاحب» المذكور، واستمرت تعرف بذلك، ولم تزل من الأسواق المعتبرة، يوجد فيها أكثر ما يحتاج إليه من المآكل؛ لوفور نعم من يسكن هنالك من الوزراء وأعيان الكتاب، فلما حدثت المحن طرقها ما طرق غيرها من أسواق القاهرة؛ فاختلت عما كانت وفيها بقية». المقريزي، الخطط، ١٨٩/٣.

[2] لم يكن بهاء الدين قراقوش وزيرًا لصلاح الدين، ولم يكن لذلك يحمل لقب «الصاحب»، وهو لقب لم يلقب به رجل قبل صفي الدين عبد الله بن شكر وزير العادل والكامل، ثم سرىٰ هذا اللقب علىٰ مَن جاء بعده من الوزراء المدنيين في عصر الأيوبيين والمماليك، وكان يقع في سلسلة الألقاب قبل لقب التعريف، وذلك بوصفه من الألقاب الدالة علىٰ الوظيفة دلالة خاصة. انظر: عبد اللطيف حمزة: حكم قراقوش (مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص٣٨٩؛ وحسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، (القاهرة ١٩٨٩م)، ص٣٦٧.

[3] في س: «القديمة».

[4] في س: «في الجامع الحاكمي»، والمثبت من: ب، ط، ق. وجامع الحاكم أسسه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد، خارج باب الفتوح بالقاهرة، وخطب فيه وصلىٰ بالناس

صَالِحًا، يغلِب[1] عَلَيْهِ الانْقِيَادُ للخَيْرِ[2]، [لَكِنَّهُ كَانَ يَحْكُمُ بِعَقْلِهِ ورَأْيِهِ، لَا يَقْتَدِي بِعَالِمٍ، ولا يَعْرِفُ المَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ، قَدْ أَتْلَفَ الأُمَّةَ، وأَجْلَبَ عَلَيْهَا كُلَّ غُمَّةٍ، فَاللهُ يَكْفِيهِمْ شَرَّهُ وهَمَّه. وكَانَ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْ عِظَمِ مَنْزِلَتِهِ وعُلُوِّ دَرَجَتِهِ عِنْدَ السُّلْطَانِ، عَلَىٰ أَنْ يَرُدَّ كَلِمَتَهُ][3]، وكَانَ السُّلْطَانُ [صلاحُ الدِّين][4] يَعْلَمُ مِنْهُ[5] عَدَمَ الفطنةِ وعَدَمَ النَّبَاهَةِ؛ [وكَانَ يُحِبُّهُ لِكَوْنِهِ كَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ فِعْلُ الخَيْرِ][6]، وكَانَ إِذَا سَافَرَ[7] [السُّلْطَانُ][8] مِنْ مِصْرَ إِلَىٰ الشَّامِ[9] في زَمَانِ[10] الرَّبِيعِ، كَمَا هِيَ[11] عَادَتُهُ في كُلِّ سَنَةٍ[12]، يُفَوِّضُ إِلَيْهِ أَمْرَهَا[13]، مَعَ مُشَارَكَةِ بَعْضِ أَوْلادِهِ؛ لِعَدَمِ[14] استيثاقه مِنْهُ[15] بِالانْفِرَادِ في ذَلِكَ[16]، [لَكِنَّهُ][17]. وفي سَنَةِ[18] إِحْدَىٰ وسِتِّينَ وخَمْسِمِائَةٍ، حَكَمَهَا [مُنْفَرِدًا][19] نَحْوَ شَهْرٍ[20] مِنْ غَيْرِ مُشَارَكَةِ أَحَدٍ مَعَهُ؛ لِأَنَّ ولِيَّ العَهْدِ المُشَارِكَ لَهُ قَدْ مَاتَ في ذَلِكَ العَامِ، فَلَمْ يَنْتَظِمْ حَالُ حُكْمِهِ فيهَا.

الجمعة، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله. فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالي القاهرة، وجعل أبوابها حيث هي اليوم؛ صار جامع الحاكم داخل القاهرة، وكان يعرف أولًا بـ«جامع الخطبة»، ويعرف بـ«جامع الحاكم»، ويقال له: «الجامع الأنور». المقريزي، الخطط، ٨٥/٤.

[1] في ط، خ: «غلب»، والمثبت من: ق.
[2] في س: «إلىٰ الخير».
[3] سقط من: ط، ق، والمثبت من: ب، خ.
[4] زيادة من: خ.
[5] في ق: «عنه»، والمثبت من: ب، س، ط، خ.
[6] زيادة من: خ.
[7] سقط من س، وفي خ: «سافر قراقوش»، والمثبت من: ب، ط، ق.
[8] زيادة من: س.
[9] في ق: «للشام»، والمثبت من: س، ط، خ.
[10] في ق: «زمن»، وفي ب: «أيام»، والمثبت من: ط، خ.
[11] في ط: «كما هو»، والمثبت من: ب، س، ق، خ.
[12] في ب، ق: «عام»، والمثبت من: س، ط، خ.
[13] في ط: «أمرهما»، والمثبت من: ب، س، ق.
[14] في ط: «كعدم»، والمثبت من: ب، س، ق، خ.
[15] في ط: «استياقه منه»، وفي خ: «وثوقه منه»، والمثبت من: ب، س، ق.
[16] في خ: «في حكمه»، والمثبت من: ب، ط، ق.
[17] سقط من: خ، وفي ق: «ولكنه»، والمثبت من: ب، ط.
[18] في ط: «في يوم إحدىٰ»، وفي ق: «في عام إحدىٰ»، والمثبت من: ب، س، خ.
[19] سقط من: خ، والمثبت من: ب، س، ط، ق.
[20] في خ: «شهرين»، والمثبت من: ب، ط، ق.

ومِنْ سُوءِ تَدْبِيرِهِ، وعَدَمِ صِحَّةِ رَأْيِهِ؛ وصَفَهُ النَّاسُ بِالحِكَايَاتِ المُضْحِكَةِ[1]، [المُضَاهِيَةِ لِحِكَايَاتِ (جُحَا)[2]، وكَانَ يُحِبُّ النِّسَاءَ البِيضَ ويَبْغَضُ السُّودَ، ولَوْ مِنَ الأَحْرَارِ][3]، [انْتَهَىٰ][4].

---

(1) في س، ق: «بمقتضىٰ وفاة ولي العهد المشارك له في ذلك، فلم ينتظم لـه الحال، ووقعت عليه الحكايات المضحكة المستغربة»، وفي ط: «بمقتضىٰ وفاة ولي العهد المشارك له في ذلك فلم ينتظم الحال، ووضعت عليه الحكايات المضحكة. انتهىٰ ذكر ما يعزىٰ إليـه من الحكايات المستغربة والنوادر المضحكة»، والمثبت من: ب، ط، خ.

(2) جحا: لجحا في الذاكرة العربية صورة شخصية لها ملامحها وقسماتها التي تدل عليها، ولا تعود شهرة هذا الاسم إلىٰ ما ينسب إلىٰ صاحبه من غريب القول وعجيب السلوك فحسب، وإنما تعود لكونه شخصية قومية عاصرت الشعب العربي قرونًا متطاولةً؛ فتطورت بتطوره وانتشرت بانتشاره، وكثيرًا ما يخلط بين شخصيتين قوميتين: بين جحا العربي الذي ينسب إلىٰ قبيلة فزازة، والذي قيل: إنه عاش في عصر هارون الرشيد، واشتهر بمواقف وتصرفات سجلت علىٰ أنها من النوادر والمُلح، وبين جحا الرومي الذي قيل: إن اسمه «نصر الدين خوجة»، وعاش في عصر السلاجقة، وحضر الصراع بين تيمورلنك وبايزيد التركي. للمزيد انظر: محمد الجوهري، موسوعة التراث الشعبي العربي، (سلسلة الدراسات الشعبية - القاهرة ٢٠١٢م)، ٤/١٥٨.

(3) زيادة من: خ.

(4) زيادة من: ط.

[ذِكْرُ مَا يُعزَىٰ إِلَيْهِ مِنَ الحِكَايَاتِ المُسْتَغْرَبَةِ والنَّوادِرِ المُضْحِكَةِ][1]

[مِنْهَا][2]

[الحِكَايَةُ الأُولَىٰ][3]

[الجَارِيَة البَيْضَاء][4]

جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ، لَهَا جَارِيَةٌ تُرْكِيَّةٌ بَيْضَاءُ، وقَالَتْ لَهُ: يَا وزِيرُ، إِنَّ هَذِهِ جَارِيَتِي قَدْ أَسَاءَتْ عَلَيَّ الأَدَبَ، فَأَدِّبْهَا[5]. فَنَظَرَ إِلىٰ بَيَاضِ الجَارِيَة التُّرْكِيَّةِ وسَوادِ المَرْأَةِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: أَوَ لَكِ خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ جَارِيَةً تُرْكِيَّةً بَيْضَاءَ، وأَنْتِ جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ؟! مَا يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا مَجْنُونٌ أَوْ مَدْهُوشٌ، أَفَلَا تَكُونُ هَذِهِ البَيْضَاءُ

---

[1] ليس في: ق، وفي خ: «ذكر ما يعزىٰ إليه من الحكايات»، والمثبت من: ب، ط.
وقال ابن تغري بردي: «قال ابن خلكان: والناس ينسبون إليه أحكامًا عجيبةً في ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين، حتىٰ إن الأسعد بن مماتي له فيه كتاب لطيف سماه: «الفاشوش في أحكام قراقوش»، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة؛ فإن صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه». انظر: النجوم الزاهرة، ١٧٨/٦.

[2] سقط من: ب، خ، وفي ق: «فمنها»، والمثبت من: ط.

[3] زيادة من: خ.

[4] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

[5] كان للجواري في العصر المملوكي شأن وكثرة، وقد جلبهن التجار بأعداد كبيرة للبيع بأسواق النخاسة التي عرضن بها علىٰ اختلاف ألوانهن وصورهن ومواطنهن، فمن بيضاء إلىٰ سمراء، ومن هندية إلىٰ رومية وتركية؛ مما يتيح للمشتري الحرية ومجال الاختيار حسب هوىٰ نفسه والمفاضلة بينهن، وكان الجمال التركي هو الغالب في الإقبال عليه، إلىٰ جانب الجمال البدوي والمصري، فامتلأ بهن المجتمع، واشتهر بعضهن بالحظوة، وقد أسهمن فيما غط فيه المجتمع من الفساد؛ فكان لهن مكانة وسيطرة علىٰ أهل الدولة بخفة دمهن ورشاقتهن، فكانت مؤهلاتهن للإيقاع بعشاق المماليك المراهقين، فما أن يبلغ السلطان عن إحداهن يطلبها، ولو كانت تحت أمير، ويبذل في ذلك المال، ويمتثل سيدها لأمر السلطان العاشق لينعم بها، وقد تصبح إحدىٰ زوجاته وأم أولاده مثل الجارية «طغاي» أم أنوك، زوج الناصر محمد بن قلاوون، اشتراها السلطان من الأمير تنكز، وولدت له ابنه أنوك (٧٢١-٧٤٩هـ)، الدرر الكامنة، ٢٢١/٢، فوزي أمين: المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي، ٣٠٧/١، ٣١٠.

جَارِيَةً لَكِ يَا سَوْدَاءُ، يَا غِلمَان، اجْعَلُوا هَذِهِ التُّرْكِيَّةَ البَيْضَاءَ سَيِّدَةً لِهَذِهِ السَّوْدَاءِ، والسَّوْدَاءَ جَارِيَةً لِلتُّرْكِيَّةِ، فَإِنْ أَرَادَتِ التُّرْكِيَّةُ بَيْعَكِ بَاعَتْكِ أَوْ أَعْتَقَتْكِ.

فَقَالَتِ السَّوْدَاءُ: مَا أَنْصَفْتَ يَا وَزِيرُ!

فَقَالَ: هَكَذَا يَكُونُ الإِنْصَافُ، مَا أَنَا مَجْنُونٌ ولا مَدْهُوشٌ، انْصَرِفي عَنِّي يَا سَوْدَاءُ يَا قَبِيحَةَ المَنْظَرِ، لَا خَيْرَ في الأَسْوَدِ ولَوْ كَانَ في المِسْكِ والعَسَلِ.

فَلَمَّا رَأَتِ السَّوْدَاءُ ذَلِكَ الحُكْمَ الَّذِي لَا مَفَرَّ عَنْهُ، أَخَذَتْ تَتَعَطَّفُ بِخَاطِرِ البَيْضَاءِ التُّرْكِيَّةِ وتَقُولُ لَهَا: أَعْتِقِينِي إلىٰ وجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ وأَنَا أُعْطِيكِ كَذَا وكَذَا، ولا أَشْتَكِيكِ أصلًا.

فَقَالَتْ لَهُ التُّرْكِيَّةُ: إِنِّي قَدْ أَعْتَقْتُ جَارِيَتِي السَّوْدَاءَ، فَقَالَ لَهَا: جَزَاكِ اللهُ خيرًا، انْصَرِفي عَنِّي بِجَارِيَتِكِ، ولا تَعُودِي ثَانِيًا.

[الحِكَايَةُ الثَّانِيَةُ][1]

[فِدَاءِ القَمِيصِ][2]

اتَّفقَ أَنَّهُ وضَعَ قَمِيصَهُ عَلَىٰ حَبْلٍ، فَوقَعَ القَمِيصُ عَلَىٰ الأَرْضِ؛ فَتَصَدَّقَ بِمِائَةِ دِينَارٍ، وقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي حَفِظَنِي مِنَ الضَّرَرِ؛ لَوْ كُنْتُ لَابِسًا لَهُ لَتَكَسَّرْتُ! وقَالَ: هَذَا فِدَاءٌ لِنَفْسِي مِنَ الضَّرَرِ[3]!

---

(1) زيادة من: خ.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية. وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(3) في ب، س: «منها أن البابا نشر قميصه، فوقع من علىٰ الحبل؛ فتصدق بألف درهم، وقال: لو كنت فيه تكسرت»، وفي ط: «منها أنه نشر قميصه، فوقع من علىٰ الحبل؛ فتصدق بألف درهم، وقال: لو كنت لابسه تكسرت». وفي ق: «ومنها أنه نشر قميصه بعد الغسل، فوقع من أعلىٰ الجبل؛ فتصدق بألف درهم، وقال: لو كنت فيه لتكسرت». والمثبت من: خ.
وهذه الحكاية أوردها محمد فهمي عبد اللطيف، منسوبةً لجحا في كتابه «مذكرات جحا»، وأوردها عبد الستار فراج في كتاب، أخبار جحا، ص٦٦، منسوبةً لجحا أيضًا، ووردت في أخبار الحمقى: «عن أبي الحسن، قال رجل لجحا: سمعت من داركم صراخًا، قال: سقط قميصي من فوق. قال: وإذا سقط من فوق، قال: يا أحمق، لو كنت فيه أليس كنت قد وقعت معه؟». انظر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، أخبار الحمقىٰ والمغفلين، شرحه عبد الأمير مهنا (ط١، دار الفكر اللبناني - بيروت ١٩٩٠)، ص٤٧.

[الحِكَايَةُ الثَّالِثَةُ](١)

[الأَرْمَلَة والكَفَن](٢)

كَانَ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَتَصَدَّقُ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ بمَالٍ جَزِيلٍ؛ فَفِي بَعْضِ السِّنِينِ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ وقَالَتْ لَهُ: إنَّ زَوْجِي قَدْ مَاتَ ولَا كَفَنَ لَهُ، ولَا مَالَ عِنْدِي أُكَفِّنُهُ مِنْهُ؛ فَأَعْطِنِي كَفَنَهُ أَوْ ثَمَنَهُ. فَقَالَ لَهَا: مَالُ الصَّدَقَةِ السَّنَوِيَّةِ قَدْ فَرَغَ، فَلَوْ جِئْتِ قَبْلَ فَرَاغِهِ كُنْتِ أَخَذْتِ كَفَنَهُ، فَإِذَا جَاءَ مِيعَادُ الصَّدَقَةِ في السَّنَةِ الآتِيَةِ، فَتَعَالَيْ نُعْطِيكِ كَفَنَهُ أَوْ ثَمَنَهُ، إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ!

فَقَالَتْ: وهَلْ يَقْعُدُ المَيِّتُ سَنَةً مِنْ غَيْرِ تَكْفِينٍ ولا تَغْفِينٍ؟! فَقَالَ لَهَا: المَيِّتُ زَوْجُكِ، والأَمْرُ لَكِ، فَإِنْ شِئْتِ فَادْفِنِيهِ، وإِنْ شِئْتِ فِي بَيْتِكِ خَلِّيهِ، فَإِنْ دَفَنْتِيهِ رَيَّحْتِيه، وإِنْ خَلِّيتِيهِ(٣) تُؤذِيه. فَقَالَتْ لَهُ: هَذَا شَيءٌ لَا يَجُوزُ. فَقَالَ لَهَا: وأَنَا مَا كَلَّفَنِي اللهُ بِإِعْطَاءِ صَدَقَةِ الزَّكَاةِ لِسَنَةٍ جَدِيدَةٍ لَمْ يَأْتِ مِيعَادُهَا ولَمْ يُوجَدْ عِنْدِي مَالُهَا. يَا غِلْمَان، أَخْرِجُوا هَذِهِ المَرْأَةَ؛ فَإِنَّهَا قَبِيحَة، وتُحِبُّ الفَضِيحَة، ولا تَقْبَلُ النَّصِيحَة، قُولُوا لَهَا تَدْفِنُهُ بِثِيَابِهِ، وعِنْدَ مَجِيءِ الوقْتِ الَّذِي تَعْرِفُ فيهِ الصَّدَقَة، تَأْخُذُ كَفَنَهُ، وتُكَفِّنُهُ بِهِ فِي قَبْرِهِ، أَوْ تَلْبَسُهُ هِيَ بَدَلًا عَنْهُ، وهَذَا آخِرُ الكَلَامِ، والسَّلَامُ(٤).

---

(١) زيادة من: خ.

(٢) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية. وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(٣) خليتيه: أبقيتي عليه وتركتيه.

(٤) في س: «ومنها أنه كان في كل سنة يتصدق بمال جزيل، فلما انتهت الصدقة أنهت إليه امرأة أن زوجها مات، ولا كفن له. فقال: أما الصدقة بتاع [كذا] هذه السنة فرغت، ولكن إذا كانت السنة الآتية، فتعالي نرسم لك بكفن إن شاء الله تعالىٰ، فتوجهت تتعجب من قوله»، وفي ط: «أنه كان في كل سنة يتصدق بمال كثير جزيل، فلما انتهت الصدقة، انتهت إليه امرأة أن زوجها مات، ولا كفن له، فقال: أما الصدقة السنة فنفدت، ولكن إذا كانت السنة الآتية، فتعالي نرسم له بكفن إن شاء الله تعالىٰ، فتوجهت متعجبةً من قوله». وفي ب، ق: «ومنها أنه في كل سنة يتصدق بمال جزيل، فلما انتهت الصدقة انتهت إليه امرأة أن زوجها مات، ولا كفن له، فارسم لي بكفن. فقال: أما صدقة السنة فنفدت، ولكن إذا جاءت السنة الثانية الآتية تعالي يرسم لك بكفن إن شاء الله تعالىٰ. فخرجت المرأة متعجبةً قوله». والمثبت من: خ.

[الحِكَايَةُ الرابعة][1]

[اجْلِدُوا الحِمَارَةَ][2]

رَأى كُرْدِيًّا[3] يُجَامِعُ حِمَارَةً، فَقَالَ: حُدُّوه! فَحَدُّوهُ، ثُمَّ قَالَ: حُدُّوا الحِمَارَةَ [هِيَ][4] الأُخْرَىٰ!.

فَقَالُوا: ومَا ذَنْبُهَا وهِيَ دَابَّةٌ لَا تَتَكَلَّمُ ولَا عَقْلَ لَهَا، ولَمْ يُوجَدْ في الشَّرْعِ حَدُّ الحَمِيرِ؟!.

فَقَالَ: وهَلْ وجَدتُّمْ في الشَّرْعِ أَحَدًا يُجَامِعُ الحَمِيرَ؟! حُدُّوهَا؛ لأَنَّهَا لوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا غَرَضٌ لَرَفَصَتْهُ بِرِجْلِهَا أَوْ عَضَّتْهُ بِفَمِهَا، كَمَا تُشَاهِدُونَ ذَلِكَ عِنْدَ قُرْبِ الحَمِيرِ لَهَا إذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا غَرَضٌ، فَلَمَّا وجَدَ مِنْهَا المَيْلَ لَهُ وظَنَّتْهُ حِمَارًا؛ وقَفَتْ لَهُ، وتَشَدَّقَتْ بِفَمِهَا كَمَا تَتَشَدَّقُ لِلحِمَارِ عِنْدَ جِمَاعِهَا، وقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِأَنَّكُمْ تَفْعَلُونَ بِكُلِّ مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَفْعَلُ بِحِمَارَةٍ أَوْ بَغْلَةٍ أَوْ غَيْرِهَا؛ لِئلَّا يَكْثُرَ الفَسَادُ في العِبَادِ، وتَقِلَّ ذُرِّيَّةُ الآدَمِيِّينَ، وتَكْثُرَ ذُرِّيَّةُ الحَمِيرِ وغَيْرُهَا، ولِئَلَّا يَنْفَتِحَ بَابٌ لِلعُصَاةِ العَازِبِينَ، ويَسْتَغْنُونَ بِهَا عَنِ الزَّواجِ لِيَوْمِ الدِّينِ[5].

ووردت هذه الحكاية في العقد الفريد، لابن عبد ربه (١٥٧/٦) منسوبةً لمعاوية بن مروان، علىٰ هذا النحو: «أقبل إلىٰ مروان بن مروان قوم من جيرانه فقالوا: مات جارك أبو فلان، فمر له بكفن، فقال: «ما عندنا اليوم شيء، ولكن عودوا إلينا».

[1] زيادة من: خ.

[2] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية. وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

[3] أظهر المؤلف قراقوش كأنه يمقت الأكراد بسبب كونه رومي الأصل، برغم أن سيده كردي الأصل، وقد يكون الأمر تلسيئًا من الراوي علىٰ الحاكم (صلاح الدين) نفسه، وتعريضًا به وغمزًا له.

[4] زيادة يقتضيها السياق.

[5] هذه الحكاية سقطت من ب، وفي س: «ومنها أنه وجد كردي [كذا] يعمل في حمارة، فقال حدوه، فحدوه، وقال حدوا الحمارة، فقيل له: إنها حمارة خرساء لا عقل لها، فقال حدوها؛ لأن لها الغرض، لو اشتهت رفصته برجلها، أو عضته بفمها، أو هربت منه، حدوها، لا تطمع فيها الزناة، فحدوها، فتعجبت الناس من فعله». وفي ط: «ومنها أنه وجد كرديا يعمل في حمارة، فقال: حدوه، فحده. وقال: حدوا الحمارة، فقيل له: إنها حمارة خرساء لا عقل لها، فحدوها؛ لأن لها الغرض، لو اشتهت رفسته برجلها أو عضته

[الحِكَايَةُ الخَامِسَةُ][1]

[جَزَاء اللُّوطِيّ][2]

جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ تَشْكِي زَوْجَهَا لَهُ بِأَنَّهُ يَأْتِيهَا مِنْ دُبُرِهَا، فَقَالَ لَهَا: جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا، حَيْثُ أَتْعَبَ نَفْسَهُ في نَفْعِكِ مِنَ الجِهَتَيْنِ. فَقَالَتْ: لَا أُحِبُّ ذَلِكَ.

فقَالَ: يَا غِلْمَانُ، أَحْضِرُوا زَوْجَهَا اللُّوطِيَّ[3]، البَاقِي مِنْ قَوْمِ لُوطٍ. فَلَمَّا أَحْضَرُوهُ وسَأَلَهُ، قَالَ: هِيَ زَوْجَتِي، وأَفْعَلُ فيهَا كَيْفَ أَشَاءُ. فَقَالَ: يَا غِلْمَان،

بفمها، أو هربت منه، حدوها، لا يطمع فيها الزناة، فحدوها». وفي ق: «ومنها أنه وجد كردي [كذا] يعمل في حمارة، فقال: حدوه، فحدوه. ثم قال: حدوا الحمارة. فقيل له: إنها حمارة خرساء، لا عقل لها. فقال: حدوها لأن لها الغرض، لولا اشتهت رفصته برجلها، أو عضته بفمها، أو هربت منه. لا تطمع فيها الزناة، فحدوها»، والمثبت من: خ. وفي تحفة المجالس، للسيوطي (طبعة السعادة ١٩٠٨م)، ص٣٥١ نقلًا عن إبراهيم شعلان: النوادر الشعبية ص٣٣٩، نجد نادرةً قريبةً علىٰ هذه الصورة: تقوم جماعة إلىٰ قراقوش، وكان عاملًا علىٰ مصر من جهة السلطان صلاح الدين أيوب، ومعهم رجل قتيل وثور ورجل مكتوف، فقال: أيها الأمير، إن هذا الثور مال علىٰ هذا الرجل فقتله، وهذا مالكه، وهو العلاقة؛ ففكر ساعةً، ثم أمر بالثور أن يشنق ويطلق صاحبه، فقالوا: ما هذا حكم الشريعة، فقال: لو جرىٰ هذا في زمن فرعون ما فعل غير هذا، فلا بد من شنق الثور، وهو القاتل، ولا أن أقتل غير القاتل.

(1) زيادة من: خ.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية. وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(3) اللوطي هو الشاذ جنسيًّا، وهي علاقة متفق علىٰ شذوذها واستنكارها، وهي الجنسية مع المثل، أي ممارسة الجنس مع نفس النوع، الذكر مع الذكر، وهو ما يعرف باللواط، والأنثىٰ مع الأنثىٰ، وتسميه العرب «المساحقة»، وهو فعل جنسي مخالف للصيغة التي يتم بها تكاثر الأنواع. وهو عند علماء النفس يوجد بمجرد الاشتهاء، وليس بالضرورة إتيان فعل معين، ولا حتىٰ وقوع الاتصال أو المصارحة، إنما مجرد الاشتهاء الجنسي لشخص من نفس النوع، يعني وجود حالة شذوذ جنسي وابتلي المجتمع كذلك في عصر سلاطين المماليك بتفشي الشذوذ الجنسي وعبر المقريزي تعبيرًا صريحًا عن انتشار هذا المرض بين المماليك بمصر، فقال: «فشا في أهل الدولة محبة الذكران» حتىٰ عمدت النساء إلىٰ التشبه بالذكور في ملبسهم ليستملن قلوب الرجال. للمزيد انظر: المقريزي: الخطط ١٦٩/٣؛ وآدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١٦٠/٢؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري، ص٢٥٠.

لَبِّسُوا هَذَا الرَّجُلَ القَبِيحَ خَلَقَةً[1] قَدِيمَةً وطَرْطُورًا[2]، وامْشُوا بِهِ حَافيًا، وزُفُّوهُ بِطَبْلٍ ومِزْمَارٍ، وطُوفُوا بِهِ فِي شَوارِعِ المَدِينَةِ، وقُولُوا[3]: هَذَا جَزَاءُ مَنْ قَنِعَ بِثُقْبِ زَوْجَتِهِ عَنْ ثُقْبِ أَوْلادِ النَّاسِ[4]، وقُولُوا لَهُ: أَنْتَ لِلآنَ مَا سَدَدتَ الشَّارِعَ القَدِيمَ الطَّوِيلَ العَرِيضَ، فَكَيْفَ تَفْتَحُ شَارِعًا ضَيِّقًا جَدِيدًا مُلَوَّثًا بِالقَاذُورَاتِ؟ تُرِيدُ أَنْ تُجَدِّدَ عَلَيْنَا فِعْلَ قَوْمِ لُوطٍ الَّذِينَ قَطَعَ اللهُ دَابِرَهُمْ، وأَرَاحَ مِنْهُمُ العِبَادَ والبِلَادَ؟

---

[1] الخلقة: الخرقة، وهي القطعة من الثوب الممزق، والجمع: خرق. لسان العرب، مادة (خ.ر.ق) ٢٨٩/١١.

[2] الطرطور: القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس، والجمع: طراطير. لسان العرب، مادة (ط.ر.ط.ر) ٥٠١/٤.

[3] الحكاية تشير إلىٰ عقوبة «التجريس»، وهو اشتهار الرجل في البلد علىٰ غير صورة لائقة، ويسمىٰ أيضًا: التشهير، والتنديد، وأصله أن يركب المذنب دابةً ووجهه إلىٰ ذنبها، وفي عنقه جرس. وفي بعض المعتقدات الشعبية أن الذي ينجب أولادًا ولم يعيشوا يقول لامرأته: «جرسي هذا الصغير»، فيدهنون وجه الولد سلاقونا، ويلبسونه طرطورًا من ورق أخضر وأحمر وفيه ريش الفراخ، ويركبونه حمارًا بالمقلوب، ويدورون به البلد، والصبيان خلفه تزعق: «يا أبو الريش إن شا الله تعيش». وربما كان ذلك في الظهر الأحمر. وفي العصر المملوكي كان التجريس أحد أنواع العقوبات، فكان يطاف بالشخص علىٰ حمار أو ثور، ويضرب الجرس علىٰ رأسه، و«المشاعلية» (المنادون) تنادي عليه ليجتمع الناس حوله، وأحيانًا تزفه المغاني (يوضع في عنقه ماشة وهون)، وفي نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقابًا له علىٰ ذنبه. انظر: ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ص١٩٨، القول المقتضب، ص٦٢، سعد الخادم: الفن الشعبي والمعتقدات الشعبية، سلسلة الألف كتاب، العدد (٤٨٨)، ص٢٠. سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، (القاهرة ١٩٩٢م) ص١١٠.

[4] اشتهر مصطلح «أولاد الناس» في العصر المملوكي، وقد أطلق علىٰ أبناء المماليك الذين ولدوا علي أرض مصر، ولم يجلبوا إليها مع النخاسين أو بيعوا في الأسواق، فهم فئة خرجت من قلب طبقة المماليك لتصبح فئة من فئات الشعب المصري في العصر المملوكي، وكانوا يحتلون مكانة أدنىٰ من مكانة المماليك ذاتهم، فقد كانوا ينصرفون تمامًا عن الحياة العسكرية والسياسية التي يعيش آباؤهم تحت ظلالها ومعهم غيرهم من المماليك، ورغم اختيارهم للعيش في سلام ودعة، إلا أن البعض منهم أسهم في الحياة الثقافية في تلك الآونة، وقد بزغ من نجومهم الكثير من المؤرخين ذوي الشأن الكبير في الحياة المصرية. انظر: نهلة أنيس محمد مصطفىٰ، أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين المماليك، دورية كان التاريخية، العدد الخامس، سبتمبر ٢٠٠٩، ص ٩٣-١٠٣.

قَطَعَ اللهُ نَسْلَكَ ونَسْلَ مَنْ يَمْشِي فِي هَذَا الشَّارِعِ الجَدِيدِ مِثْلَكَ (وفِي أَثْنَاءِ المُنَادَاةِ[1] عَلَيْهِ، مَاتَ الرَّجُلُ مِنَ الوجَلِ، ومِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الخَجَلِ)[2].

---

[1] كانت المناداة وظيفة يقوم بها المنادون، وهم «المشاعلية» الذين يحملون مشعلًا يوقد بالنار بين يدي الأمراء ليلًا. وإذا أمر بشنق أحد أو تسميره أو النداء عليه تولوا ذلك، وتعد وظيفة «المشاعلية» من أهم الوظائف التي وقع عليها عبء تنفيذ العقوبات كالإعدام والجلد والتوسيط والتشهير وغيرها، ويبدو أن وظيفة المشاعلي تمثل في أذهان الناس صورةً بشعةً تدعو إلىٰ الفزع والخوف من مجرد رؤيته أو سماع اسمه، وهو ما تصوره لنا بابة ابن دانيال «عجيب وغريب» في كتابه (طيف الخيال). وقد ارتبطت المشاعلية فيما بعد بجماعات الغجر، وامتهنوا عددًا من الوظائف منها: المناداة، الترهيب والتجريس، تنفيذ أحكام الإعدام، تقدم المواكب السلطانية، كسح الأفنية وسلخ الماشية، هداية التائهين في جنح الليل، تجارة النيلة أو الحشيش. انظر: صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا، ١٤٦/٢؛ والمقريزي، الخطط، ٤٣٦/٢، تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص١٤٣؛ وعلاء طه، السجون والعقوبات في عصر سلاطين المماليك، ص١٦٤؛ ونجوىٰ كمال كيرة «المشاعلية وأثرهم في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي»، ضمن كتاب، المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، (تحرير عبادة كحيلة، المجلس الأعلىٰ للثقافة، القاهرة ٢٠٠٧م)، ص٩١.

[2] في س: «ومنها أن امرأةً شكت له زوجها أنه يأتيها من خلف، فقال: جزاه الله خيرًا، ثم ألبسه خلعة، وطاف به في شوارع المدينة، والمشاعلي ينادي عليه: هذا جزاء رجل قنع بثقب زوجته عن أولاد الناس، حتىٰ مات الرجل من الخجل». وفي ط: «ومنها أن امرأةً شكت له زوجها أنه يأتيها من خلف، فقال: جزاه الله خيرًا، ثم ألبسه حاجة، وطاف به شوارع المدينة، والمشاعلي ينادي عليه: هذا جزاء رجل قنع بثقب زوجته من أولاد الناس، حتىٰ مات الرجل من الخجل». وفي ق: «فمنها أن امرأةً شكت له زوجها أنه يأتيها من خلف، فقال: جزاه الله خيرًا، ثم ألبسه خلعة، وطاف به شوارع المدينة، والمنادي ينادي: هذا حرابة من قنع بثقب زوجته من أولاد الناس، حتىٰ مات الرجل من شدة الخجل». والمثبت من: ب، خ.

[الحِكَايَةُ السَّادِسَةُ][1]

[مَخْلُوقٌ بِلَا لِحْيَةٍ][2]

ذَاتَ يَوْمٍ جَاءَهُ رَجُلٌ أَجْرُودٌ[3]، نَتَفَ[4] بَعْضَ لِحْيَتَهُ رَجُلَانِ؛ فَضَرَبَهُمَا ومَزَّقَ ثِيَابَهُمَا؛ فَشَكَيَاهُ إِلَىٰ قَرَاقُوشَ[5]؛ فَلَمَّا رَآهُ مِنْ غَيْرِ لِحْيَةٍ، وكُلٌّ مِنْهُمَا بِلِحْيَةٍ كَبِيرَةٍ، فَقَالَ: لِمَا الظُّلْمُ مِنْكُمَا عَلَيْهِ ظَاهِرٌ، فَإِنَّكُمَا نَتَفْتُمَا لِحْيَتَهُ، وجَعَلْتُمَاهُ بِلَا لِحْيَةٍ كَالولَدِ الصَّغِيرِ؛ فَأَنْتُمَا تَعَدَّيْتُمَا عَلَيْهِ وتَشْتَكِيَاهُ! احْبِسُوهُمَا، ولَا تُخْرِجُوهُمَا مِنَ السِّجْنِ حَتَّىٰ تَصِيرَ لِحْيَتُهُ مِثْلَ لِحْيَتِهِمَا. فَقَالَا: إِنَّه أَجْرُودٌ، لَا لِحْيَةَ لَهُ. فَقَالَ: كُلُّ النَّاسِ لَهُمْ لِحْيَةٌ، وهَذَا يَكُونُ مَخْلُوقًا بِلَا لِحْيَةٍ! هَذَا شَيءٌ نَادِرٌ، والنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ، وإِنَّمَا الحُكْمُ لِلغَالِبِ، وغَالِبُ النَّاسِ بِلِحْيَةٍ، فَإِنَّمَا نَتَفْتُمَا لِحْيَتَهُ.

فَلَمَّا أَيْقَنَا بِالسَّجْنِ، تَعَطَّفَا بِخَاطِرِ الأَجْرُودِ حَتَّىٰ قَالَ لَهُ: تَرَكْتُ أَجْرِي عَلَىٰ اللهِ. فَأَطْلَقَهُمَا وقَالَ: انْصَرِفَا عَنِّي. انْقَطَعَ الكَلَامُ، والسَّلَامُ[6].

---

(1) زيادة من: خ.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

(3) الأجرود: الذي خلا جسمه من الشعر، فهو أجرد، وفي الحديث: «أهل الجنة جرد مرد متكحلون». لسان العرب، مادة (ج.ر.د) ١١٦/٣.

(4) نتف: انتتف الشعر ونحوه، انتزعه، يقال: نتفه فانتتف، والشعر نتفه. لسان العرب، مادة (ن.ت.ف) ١٠١/٧.

(5) هنا يقدم المشهد الشخصيات تباعًا بحسب ظهورها على مسرح الأحداث؛ ليضع المتلقي في الموقف مباشرة؛ للإيهام بالواقع وتقوية أثره في الحكاية .

(6) في س: «ومنها أن رجلين اشتكيا رجلًا كوسجًا بلا لحية أنه ضربهما، ونتف لحاهما، فرآه وهو لا لحية له، وهما كبيرا اللحية، فقال: بل أنتما نتفتما لحيته، ورسم بحبسهما حتىٰ تطلع لحيته، فسألا فضل الرجل وصالحاه، حتىٰ دخل الرجل له، وقال: تركت أجري علىٰ الله؛ فأطلقهما». وفي ط: «ومنها أن رجلين اشتكيا رجلًا كوسجًا، أنه مر بهما ونتف لحياهما، فرآه وهو لا لحية له، وهما كبيرا اللحية، فقال: بل أنتما نتفتما لحيته، ورسم بحبسهما حتىٰ تطلع لحيته، فسألا فضل الرجل وصالحاه، حتىٰ دخل الرجل، وقال: تركت أجري علىٰ الله؛ فأطلقهما». وفي ق: «ومنها أن رجلين اشتكيا رجلًا كوسجًا بلا لحية أنه ضربهما، ونتف لحاهما، فرأىٰ إليه وهو لا لحية له، ولحيتهما كبيرة، فقال: بل أنتما نتفتما لحيته، وأمر بحبسهما حتىٰ تطلع لحيته، فسألا فضل الرجل وصالحوه حتىٰ قال: يا مولاي، أنا تركت أجري علىٰ الله تعالىٰ؛ فأطلقهما»، والمثبت من: ب، خ.

[الحِكَايَةُ السَّابِعَةُ](1)

[لا تُخْبِر الفَرَس](2)

تَسَابَقَ هُو مَعَ رَجُلٍ كُرْدِيٍّ عَلَىٰ فَرَسِهِ، فسَبَقَهُ الكُرْدِيُّ بِفَرَسِهِ. فَقَالَ لِخَادِمِهِ: واللهِ لَا نُطْعِمُ فَرَسَنَا شَيئًا فِي هَذَا الأُسْبُوعِ مُجَازَاةً لَهَا عَلَىٰ تَأْخِيرِهَا، فَقَالَ لَهُ: تَمُوتُ جُوعًا. فَقَالَ لَهُ ثَانِيًا: عَلِّقْ(3) عَلَيْهَا، وَلَا تَقُلْ لَهَا: إِنِّي قُلْتُ لَكَ ذَلِكَ؛ حَتَّىٰ لَا يُقَالَ: إِنِّي حَلَفْتُ كَذِبًا(4)!

[الحِكَايَةُ الثَّامِنَةُ](5)

[البيع لِلكَسْلَان](6)

وهِيَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ، فَلَمْ يَقُمْ أَيْرُه(7)، فَلَمَّا حَصَلَ لَهُ الخَجَلُ مِنْهَا، أَظْهَرَ أَنَّهُ غَضْبَانُ عَلَىٰ أَيْرِهِ، فَقَالَ لَهَا: واللهِ لأَبِيعَنَّ هَذَا النَّذْلَ الكَسْلَانَ، وأَشْتَرِي لَكِ بَدَلَهُ يَكُونُ عِنْدَهُ نَشَاطٌ دَائِمًا(8).

---

(1) زيادة من: خ.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

(3) يعني: ضع لها العليقة، وهي العلف الذي يقدم للدابة.

(4) في س، ط: «ومنها أنه تسابق مع كردي علىٰ فرس نفسه، فسبقه الكردي، فغضب علىٰ فرسه، وقال للراكبدار: لا تطعمه شيئًا في هذا الأسبوع، ثم قال ثانيًا: علق عليه ولا تقل له إننىٰ قلت لك علىٰ ذلك حتىٰ لا يبقي يظن أنني حلفت باطلًا». وفي ب: «ومنها أنه تسابق مع كردي علىٰ فرس له، فسبقه الكردي، فغضب علىٰ فرسه، وقال للراكبدار: لا تطعمه شيئًا في هذا الأسبوع، فقال له الراكبدار: إن لم أعلق عليه يموت، فقال: إن كان ولا بد، فعلق عليه، ولا تعلمه أني قلت لك حتىٰ لا يعود لمثلها»، والمثبت من: ق، خ.

(5) زيادة من: خ.

(6) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(7) أي: ذكره، والمراد أنه لم ينتصب. انظر المعجم الوسيط، مادة (أ.ي.ر) ٣٤/١.

(8) تعكس هذه الحكاية كيف أن المسألة الجنسية كانت تشغل حيزًا لا يستهان به من تفكير الوجدان الشعبي المصري ونشاطه، وتتحكم، إلىٰ حد ما، في تصرفاته، بل ومواقفه وطقوسه، وتكشف لنا أهمية تتبع أصول المسألة الجنسية كونها تعكس - من ناحية - مفاهيم المجتمع وأخلاقياته، كما أنها علىٰ الصعيد الفردي تشغل جانبًا شديد الأهمية من

فَقَالَتْ لَهُ مَنْعًا لِخَجَلِهِ: لَا تَبِيعُه؛ لأَنَّنَا عَرَفْنَاهُ، ونَذْلٌ نَعْرِفُهُ خَيْرٌ مِنْ جَيِّدٍ لَا نَعْرِفُهُ، ولَرُبَّمَا اشْتَرَيْتَ واحِدًا أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الكَسَلِ، لَا يُوفِّقُنِي فِي العَمَلِ، فَقَالَ لَهَا: طَاوعْتُكِ، وإِنْ عَادَ لِمِثْلِهَا ثَانِي مَرَّةٍ بِعْتُهُ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ. ونَامَ مَكْسُوفًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ[1].

[الحِكَايَةُ التَّاسِعَةُ][2]

[خُذْهَا عِنْدَكَ][3]

وهِيَ أَنَّ جُنْدِيًّا نَزَلَ فِي مَرْكِبٍ، وكَانَ فيها رَجُلٌ فَلَّاحٌ مَعَهُ زَوْجَتُهُ، فَغَمَزَ الجُنْدِيُّ زَوْجَةَ الفَلَّاحِ[4]؛ فَشَتَمَتْهُ؛ فَضَرَبَهَا، وكَانَتْ حَامِلًا؛ فَسَقَّطَتِ ابْنَ تِسْعَةِ

حياة الإنسان، كما تحكم نظرته للإنسان الآخر أو الجنس الآخر؛ مما دفعه لاختلاق طقوس وعادات شعبية غرضها خدمة هذه الناحية الجنسية، ومنها ما خصصه صاحب كتاب (رجوع الشيخ إلىٰ صباه في القوة علىٰ أحكام الباه)، ولعل شخصية «علي كاكا» ونشاط عضوه الدائم، تلك الشخصية الغريبة الأطوار، يدل علىٰ ولوع المصريين بعلاقاتهم الجنسية؛ فهي شخصية رجل يلبس الحذاء، ويلبس في وسطه حزامًا تتدلىٰ منه قطعة علىٰ شكل «العضو التناسلي الذكوري» في أضخم أنواعها، وربما كانت حكاية قراقوش دفقةً من التيار التحتي للموروث الشعبي «المتعلق بالجنس والقوة الذكورية» الذي يسري في اللاوعي الجمعي لكثير من طبقات المصريين.

[1] في ب: «ومنها أنه أراد مجامعة زوجته، فلم ينتصب ذكره، فغضب، وقال: والله لأبيعن هذا، وأشتري ذكرًا غيره». وفي س، ط: «ومنها أنه أراد مجامعة جارية، فلم يقم ذكره عليه، فغضب، وقال: والله لأبيعن هذا، وأشتري غيره»، وفي ق: «منها أنه أراد مجامعة زوجته، فلم يقم ذكره عليه، فغضب، وقال لها: والله لأبيعن هذا، وأشتري ذكرًا غيره». والمثبت من: خ.

[2] زيادة من: خ.

[3] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

[4] من استقراء التاريخ المملوكي، فيما يتعلق بأحوالهم الاجتماعية، نجد أنهم كانوا في اقتراف الفساد أنماطًا مختلفةً، وكثيرًا ما رفعت إلىٰ السلطان في مجلسه البلاغات ضد الأمراء، أو اتهام أحدهم بإتيان الفاحشة أو اغتصاب النساء الحرائر، وعليه لم يكن لأهل الخلاعة من المماليك - وغيرهم - مرتادي الأماكن الخاصة بالفساد في مختلف المناسبات، من رادع، فيأتون أنواعًا من الرذائل، فاقتراب الزنىٰ واغتصاب النساء، وهتك أعراض بنات الناس جهرًا وقهرًا، كالبلاغ الذي قدم إلىٰ السلطان، ضد الأمير بكتمر الحجازي، باعتياده الفساد مع معاشريه وعصبته بالنيل، ومصاحبته النساء الفواحش بالمراكب والذهبيات، فأنذره السلطان إذا عاد لمثل ما نهىٰ عنه بالقتل.

أَشْهُرٍ؛ فَشَكَاهُ الفَلَّاحُ إِلىٰ قَرَاقُوشَ، فَقَالَ لِلجُنْدِيِّ: خُذْهَا عِنْدَكَ، وأَطْعِمْهَا واسْقِهَا، حَتَّىٰ تَصِيرَ في تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ رُدَّهَا لِزَوْجِهَا كما كانَتْ.

فَقَالَ الجُنْدِيُّ: سَمْعًا وطَاعَةً. فَقَالَ الفَلَّاحُ: يَا وزِيرُ، تَرَكْتُ أَجْرِي عَلَىٰ اللهِ، وأَخَذَ زَوْجَتَهُ ورَجَعَ إِلىٰ بَلَدِهِ. فَقَالَ لَهُ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، هَكَذَا تَكُونُ مُرُوءَةُ الفَلَّاحِينَ الحُرِّينَ[1].

[الحِكَايَةُ العَاشِرَةُ][2]

[احْبِسُوا صَاحِبَ الحَقِّ][3]

وهِيَ أَنَّ شَخْصًا شَكَا لَهُ مُمَاطَلَةَ مَدْيُونِهِ في حَقِّهِ، فَقَالَ المَدْيُونُ: يَا سَيِّدِي، أَنَا رَجُلٌ فَقِيرٌ، وكُنْتُ كُلَّمَا تَحَصَّلْتُ عَلَىٰ شَيءٍ آتِيهِ بِهِ؛ فَلَمْ أَجِدْهُ؛ فَأَصْرِفَهُ عَلَىٰ نَفْسِي وعِيَالِي، فَجَاءَنِي الآنَ وطَالَبَنِي ومَا مَعِي شيءٌ.

وبعضهم لم تكن تمر به امرأة حيث هو إلا وتقع في نفسه، ثم ليظفر بها في الحرام، برضاها أو غصبًا، الأمر الذي تضرر بسببه الفلاحون ونساؤهم، فلم يكونوا في منأىٰ من عبث المماليك بأعراضهم وأعراض زوجات عمال الملاحة البحرية؛ فتسلطوا علىٰ هؤلاء وأولئك، وعمدوا لإمساكهن واغتصابهن، بالعربدة والإجرام، وأضحوا أوابد في تلك الأمور. انظر: السلوك، جـ٢، ق ٢، ص٤٥٥، الدرر الكامنة، ١/٢٦٤.

[1] في ب، ق: «ومنها أن جنديا نزل في مركب وكان فيه فلاح وزوجته، فضربها الجندي فسقطت وكانت في تسعة أشهر فشكاه الفلاح لقراقوش فقال للجندي: خذها عندك، أطعمها واسقها، حتىٰ تحبل، فقال الفلاح: يا مولانا، تركت أجري علىٰ الله، فأخذ زوجته وذهب»، وفي س، ط: «ومنها أن جنديا نزل في مركب، وكان فيها فلاح وزوجته فضربها فسقطت وكانت في تسعة أشهر فشكاه الفلاح له فقال للجندي: خذها عندك، أطعمها واسقها، حتىٰ تصير في تسعة أشهر عدها لزوجها، فقال الفلاح: يا مولانا، تركت أجري علىٰ الله وأخذ زوجته وذهب»، والمثبت من: خ.

وذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد (٤٤٦/٦) حكاية مثل هذه، قال: «أتت جارية أبا ضمضم فقالت: إن هذا قبلني، قال لها: قبليه؛ فإن الله يقول: ﴿والجروح قصاص﴾»، وأورد نادرةً أخرىٰ، قال: «ارتفع رجلان إلىٰ أبي ضمضم، فقال أحدهما: أبقاك الله، إن هذا قتل ابني، قال: هل لابنك أم؟، قال: نعم، قال: ادفعها إليه حتىٰ يولدها لك ولدًا مثل ولدك ويربيه حتىٰ يبلغ مبلغ ولدك ويبرأ به إليك».

[2] زيادة من: خ.

[3] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

فَقَالَ قَرَاقُوشُ: احْبِسُوا صَاحِبَ الحَقِّ حَتَّىٰ إِنَّ المَدْيُونَ إِذَا تَحَصَّلَ عَلَىٰ شَيءٍ يَأْتِي بِهِ فِي الحَبْسِ فِي المَكَانِ المَعْلُومِ لِيَدْفَعَهُ لَهُ، وظَهَرَ صِدْقُ المَدْيُونِ مِنْ كَذِبِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ وجْهٌ فِي قَوْلِهِ لَمْ أَجِدْهُ.

فقال صَاحِبُ الحَقِّ: يَا حَضْرَةَ الوزِيرِ، تَرَكْتُ حَقِّي وأَجْرِي عَلَىٰ رَبِّي؛ حَيْثُ إِنِّي لَمْ أَجِدْ لِي نَصِيرًا، خَرَّبَ اللهُ بِكَ البِلَادَ، وأَذَلَّ عَلَىٰ يَدِكَ العِبَادَ. وتَرَكَهُ ومَضَىٰ مُمْتَثِلًا لِحُكْمِ القَضَا[1]!

[الحِكَايَةُ الحَادِيَةَ عَشرَةَ][2]

[أَغلِقُوا الأَبواب][3]

وهِيَ أَنَّهُ [كان][4] عِنْدَهُ بَازٌ[5] في قَفَصٍ مِثْلُ الدُّرَّةِ[6]، فَفَتَحَ القَفَصَ لِيَضَعَ لَهُ مَاءً وطَعَامًا؛ فَطَارَ البَازُ مِنَ القَفَصِ، فَقَالَ لِلغِلْمَانِ: أَغْلِقُوا بَابَ القَصْرِ

---

(1) في س: «ومنها أن شخصًا شكىٰ له مماطلة غريمه، فسأل الغريم، فقال: يا مولانا، أنا رجل فقير، وإذا حصلت شيئًا أردت أدفعه له لم أجده، فإذا ذهب من يدي جاء وطالبني، فأمر بحبس صاحب الدين ليصير المديون إذا حصل شيئًا يعرف محله فيدفعه إليه، فقال صاحب الدين: يا خوند، قد تركت أجري علىٰ الله، وأبرأته من حقي». وفي ط: «ومنها أن شخصًا شكىٰ إليه مماطلة غريمه، فقال: يا مولانا، إني رجل فقير، وإذا حصلت شيئًا آتيه، فلا أجده، فإذا صرفته جاء وطلبني. فقال قراقوش: احبسوا صاحب الحق؛ حتىٰ يصير المديون إذا حصل شيئًا يجد له موضعًا معلومًا يدفعه له فيه. فقال صاحب الحق: يا مولانا، تركت أجري علىٰ الله، ومضىٰ». وفي ق: «ومنها أن شخصًا شكىٰ إليه مماطلة غريمه، فقال الغريم: يا مولانا، إني رجل فقير، وإذا حصلت شيئًا وجئته به لم أجده، فإذا تصرفت فيه، جاءني وطالبني. فقال قراقوش: احبسوا صاحب الحق، حتىٰ يصير المديون إذا حصل شيئًا يجد له موضعًا معلومًا يدفعه له فيه. فقال صاحب الحق: يا مولانا، تركت وأجري علىٰ الله». والمثبت من: ب، خ.

(2) زيادة من: خ.

(3) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(4) زيادة يقتضيها السياق.

(5) الباز: ضرب من الصقور يستخدم في الصيد، والجمع أبواز وبيزان. لسان العرب ٧٢/١٤.

(6) الدُّرَّة: الببغاء الصغيرة.

وبَابَ زَوِيلَةَ[1] عَاجِلًا؛ فَإِنَّهُمَا إِذَا كَانَا مُغْلَقَيْنِ لَا يَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا غَيْرَهُمَا يَطِيرُ مِنْهُ[2]! فَقَالُوا: يَا حَضْرَةَ الوزِيرِ، إِلىٰ السَّمَاءِ يَطِيرُ. فَقَالَ: صَدَقْتُمْ، ولَكِنَّ بَابَ السَّمَاءِ لَا يحب لَغْيه[3]، فَإِنْ شَاءَ يَرُدُّهُ لَنَا في الصَّبَاحِ أَوْ في العَشِيَّةِ[4].

---

[1] زويلة: قبيلة بربرية جاءت بصحبة جوهر القائد الصقلي عند دخوله مصر، وبابا زويلة وضعهما جوهر الصقلي، وهما بابان متلاصقان بجوار المسجد المعروف بـ«مسجد سام ابن نوح»، فلما قدم الخليفة المعز لدين الله إلىٰ القاهرة سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م دخل من أحد هذين البابين، وهو الباب الملاصق للمسجد الذي بقي منه إلىٰ اليوم عقد يعرف بـ«باب القوس» فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه وهجروا الباب المجاور له حتىٰ جرىٰ علىٰ الألسن أنه من مر به لا يقضىٰ له حاجة. وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم. وموضع هذا الباب اليوم عند مسجد «ابن البناء» عند الحجارين ومسجد ابن البناء يعرف باسم «زاوية العقادين» بجوار سبيل العقادين بشارع المعز لدين الله (شارع المناخلية سابقًا). انظر: القلقشندي، صبح الأعشىٰ، ٣٩٧/٣؛ والمقريزي، الخطط، ٣٨١/١؛ والباشا، وآخرون، القاهرة تاريخها - فنونها - آثارها، ص٤٦٩-٤٧٠؛ وجومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، نقله عن الفرنسية أيمن فؤاد سيد، (مكتبة الخانجي، القاهرة د.ت)، ص٣٦١؛ وحسن، مصر في العصور الوسطىٰ، ص٤٤٩؛ ومبارك، الخطط التوفيقية، ٣٦/١.

[2] في ب، س، ق: «ومنها أنه طار له باز، فقال للبوابين: اقفلوا أبواب المدينة، باب النصر، وباب زويلة؛ فإن الباز لا يجد له موضعًا يطير منه»، في ط «ومنها أنه طار له باز، فقال: اقفلوا باب النصر وباب زويلة؛ فإن الباز لا يجد له موضعًا يطير منه». وفي ل: «ومنها أنه طار له صقر، فقال للبوابين: أغلقوا أبواب المدينة؛ فإن الصقر لا يجد موضعًا يطير منه»، والمثبت من: ط، خ.

وفي العقد الفريد ١٥٧/٦، يوجد مثل هذه الحكاية منسوبةً لمعاوية بن مروان: «ضاع له بازي، فقال: أغلقوا أبواب المدينة حتىٰ لا يخرج البازي».

[3] أي: كثرة كلامه وخاصة في غير المفيد وهو اللغو.

[4] العشية: الوقت من زوال الشمس إلىٰ المغرب، أو من صلاة المغرب إلىٰ العتمة، وصلاتا العشي الظهر والعصر. لسان العرب، مادة (ع.ش.ي) ٦٠/١٥.

[الحِكَايَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ][1]

[سَنَةٌ في يَومٍ][2]

وهِيَ أَنَّ امْرَأَةً اشْتَكَتْ لَهُ ولَدَهَا أَنَّهُ يُخَالِفُهَا ولا يُطِيعُهَا؛ فَحَبَسَهُ، وحَلَفَ أَلَّا يُطْلِقَهُ إِلَّا بَعْدَ سَنَةٍ؛ تَأْدِيبًا لَهُ، حَيْثُ خَالَفَ أُمَّهُ الَّتِي حَمَلَتْ بِهِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وأَرْضَعَتْهُ ثَدْيَهَا سَنَتَيْنِ، وغَسَلَتْ لَهُ ثِيَابَهُ، ومَسَحَتْ لَهُ أَوْسَاخَهُ، وسَهِرَتْ بِهِ اللَّيَالِيَ، وأَجَاعَتْ أَكْبَادَهَا، وأَتْعَبَتْ فُؤَادَهَا. فَمَا جَزَاؤُهُ إِلَّا الحَبْسُ والجُوع وعَدَمُ الهُجُوعِ سَنَةً كَامِلَةً؛ لِيَتُوبَ أَوْلَادُ الزَّانِيَاتِ عَنْ عُقُوقِ الوالِدَاتِ، وتَنْحَسِمَ مَادَّةُ الشَّكَاوِي، وتَنْدَفِعَ عَنَّا القَبَائِحُ[3] والبَلاوِي[4].

فَلَمَّا تَوجَّهَتِ المَرْأَةُ إِلىٰ بَيْتِهَا، عَسَرَ عَلَيْهَا أَمْرُ ولَدِهَا؛ فَجَاءَتْ إِلىٰ السَّجَّانِ بَعْدَ مُضِيِّ سِتَّةِ أَيَّامٍ، ودَفَعَتْ لَهُ بَعْضَ الدَّرَاهِمِ لِيُطْلِقَهُ لَهَا مِنَ السِّجْنِ[5]، فَقَالَ لَهَا: اكْتُبِي قِصَّتَهُ فِي قِرْطَاسٍ[6]، وقُولِي: إِنَّ السَّنَةَ قَدْ فَرَغَتْ وهُو مَحْبُوسٌ يَا سَيِّدَ النَّاسِ[7]، وأَنَا امْرَأَةٌ فَقِيرَةٌ، لَيْسَ عِنْدِي لَهُ مَصْرُوفٌ، وإِنْ كَذَّبْتَنِي فَاسْأَلِ النَّاسَ.

---

(1) زيادة من: خ.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

(3) القبائح: واحدها: القبيح، وهو ما نفر منه الذوق السوي، وما كره الشرع اقترافه، وما أباه العرف العام. لسان العرب، مادة (ق.ب.ح) ١٥/٣٤٦.

(4) البلاوي: لفظ عامي، ويقصد بها المحن تنزل بالمرء ليختبر بها، والغم والحزن والجهد الشديد في الأمر. لسان العرب، مادة (ب.ل.ي) ١٠/١١١.

(5) يقصد الرشوة، التي كانت أهم مظاهر الانحلال الخلقي في المجتمع، خاصةً في عصر سلاطين المماليك؛ إذ تفشت الرشوة (البراطيل) بين الحكام والمحكومين، وقد ذكر المقريزي أن أصل الفساد في عصره هو تحكم الرشوة في ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية كالوزارة والقضاء، وولاية الأقاليم، وولاية الحسبة، وسائر الأعمال. ومن الواضح أنها فشت في أواخر عصر سلاطين المماليك في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، وذلك علىٰ أيام المقريزي الذي عد هذه الظاهرة من أشد أنواع الظلم وأخطر أسباب تدهور الدولة. للمزيد انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٢٥٦-٢٥٨.

(6) القرطاس: الصحيفة، أو الورقة يكتب فيها.

(7) السيد في اللغة: المالك والزعيم، وقد أطلق لقبًا عاما علىٰ الأجلاء من الرجال وبعض الوزراء والولاة، وقد نعت بلقب «السيد». ولاة دمشق في القرنين الخامس والسادس

فَكَتَبْتُهَا وقَدَّمْتُهَا لَـهُ، فَقَالَ لَهَا بَعْدَ القِرَاءَةِ: كَذَبْتِ، وأَنَا لَسْتُ مَذْهُوشًا ولَا نَاسِيًا، قَدْ بَقِيَ مِنَ السَّنَةِ هَذَا اليَومُ، فَإِنْ أَطْلَقْتُهُ قَبْلَ المِيعَاد أَصِيرُ كَذَّابًا بَيْنَ العِبَادِ في البِلاد. فَقَالَتْ: يَا سَيِّدِي، اليَومُ طَوِيل. فَقَالَ لَهَا: اصْبِرِي، رَاحَ الكَثِير وبَقِيَ القَلِيل، فَإِنِّي حَلَفْتُ أَلَّا أُطْلِقَهُ إِلَّا بَعْدَ سَنَة، فَإِنْ لَمْ تَصْبِرِي [حَتَّىٰ][1] يَمْضِي اليَوْمُ؛ حَبَسْتُهُ سَنَةً أُخْرَىٰ، وحَبَسْتُكِ مَعَ المَجَانِينَ[2] أَنْتِ الأُخْرَىٰ.

فَرَجَعَتْ، وأَتَتْ لَهُ ثَانِيَ يَوْمٍ في الدِّيوانِ، فَلَمَّا رَآهَا قَالَ: مَنْ أَنْتِ مِنَ النِّسْوانِ؟ قَالَتْ: أَنَا أُمُّ الولَدِ المَحْبُوسِ، وقَدْ مَضَىٰ ذَلِكَ اليَومُ يَا وزِيرُ، ودَخَلْنَا فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ يَا أَمِيرُ. فَقَالَ لَهَا: خُذِيه، لَا تَعُودِي بِهِ إِلَيْنَا ثَانِي مَرَّة، ولَوْ كَسَّرَ عَلَىٰ رَاسِكِ الجَرَّة[3].

الهجريين، وانتقل اللقب إلىٰ مصر مع بدر الجمالي الذي ولي دمشق قبل قدومه إلىٰ مصر، وصار «السيد» لقبًا عامًّا علىٰ أصحاب السلطان الحقيقي في مصر، منذ بدر الجمالي حتىٰ نهاية عصر المماليك، ثم صار هذا اللقب ضمن ألقاب صلاح الدين، ومن خلفه من ملوك الأسرة الأيوبية. للمزيد انظر: حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص٣٧٤.

[1] زيادة يقتضيها السياق.

[2] شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير المارستان المخصص للمرضىٰ النفسيين، والذي عده من مفاخر صلاح الدين، وكان البيمارستان قاعةً بناها العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م، وقيل: إن القرآن مكتوب علىٰ حيطانها، ومن خواصها ألا يدخل نمل لطلسم بها، ولما قيل ذلك لصلاح يوسف بن أيوب قال: هذا يصلح أن يكون بيمارستان. وقد قسمت البيمارستانات أقسامًا متخصصةً للرجال، وأخرىٰ للنساء، وثالثة لذوي الاحتياجات الخاصة والعلاج النفسي. يقول ابن جبير: «... موضع مقتطع للنساء المرضىٰ ... وموضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، اتخذت مجالس للمجانين...»، وقد تحدث الرحالة الفرنسي Maillet عن مستشفىٰ المجانين، ونسب ميليه بناءها إلىٰ ابنه أحمد بن طولون، وكان سبب إنشائها إصابة إحدىٰ أميرات البيت الحاكم بالجنون؛ فتم تخصيص قصر لها للبقاء فيه وحراستها، وبعد اكتمال شفائها تم تخصيص القصر لمعالجة المجانين، وكان حول المستشفىٰ عدة مبانٍ للمجانين، وكان بها كميات كبيرة من الأدوية والأطباء، ويوجد مكان للفقراء من العامة، وكل مريض له طبيب معين. وكانت توجد شروط لاختيار الأطباء في القاهرة، وقد ذكر ابن جبير أن المجانين كان لهم من يتفقد في كل يوم أحوالهم، ويقابلها بما يصلح لها. للمزيد انظر: عمرو عبد العزيز منير، العمران المصري بين الرحلة والأسطورة، سلسلة تاريخ المصريين - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٢٠١١م»، ص٢٧٠، أحمد عيسىٰ إبراهيم، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨١، ص٧٨.

[3] الجرة: إناء من خزف أو فخار، والجمع: جر وجرار.

فَأَخَذَتِ ابْنَهَا ومَضَتْ، وقَالَتْ: هَذِهِ مَرَّة وانْقَضَتْ، وإنْ كَانَتْ لَكَ تَعُود، حُطّ في طِيزِهَا عُود[1].

[الحِكَايَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ][2]

[لَيسَ غاليًا][3]

وهِيَ أَنَّ ابْنَهُ اشْتَرَىٰ لِنَفْسِهِ بَغْلًا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، ثُمَّ عَرَضَهُ عَلَيْهِ وعَرَّفَهُ ثَمَنَهُ، فَقَالَ: هَذَا غَالٍ، فَرَآهُ بَعْضُ الحَاضِرِينَ، وعَرَفَ أَنَّ ابْنَهُ يَرْغَبُ البَغْلَ بِيَقِينٍ[4]؛ فَدَخَلُوا مَعَهُ لأَبِيهِ، وقَالُوا: لأَيِّ شَيءٍ تَرُدُّ هَذَا البَغْلَ الخَفِيفَ اللَّطِيفَ؟ فَقَالَ: لَا يُسَاوِي أَلْفَ دِرْهَمٍ. فَقَالُوا: يَا وزِيرُ، قَدِ اشْتَرَاهُ بِتِسْعِمِائَةٍ وتِسْعَةٍ وتِسْعِينَ دِرْهَمًا. فَقَالَ: إنْ كَانَ ثَمَنُهُ كَمَا قُلْتُمْ فَلَيْسَ غَالِيًا. يَا غِلْمَان، ادْفَعُوا لِصَاحِبِهِ ثَمَنَهُ، وأَعْطُوهُ الَّذِي اشْتَرَاهُ، وقُولُوا لَهُ: قَدْ سَامَحَكَ في هَذِهِ المَرَّةِ، ومِنَ الآنِ فَصَاعِدًا لَا تَشْتَرِ شَيْئًا حَتَّىٰ تُحْضِرَ البَائِعَ بِمَا يَبِيعُهُ عِنْدِي؛ لأَنَّكَ صَغِير، وعَقْلُكَ قَصِير، والنَّاسُ يَضْحَكُونَ عَلَيْك، ولَا يُشْفِقُونَ عَلَيْك؛ لِأَنَّ السُّوقِيَّةَ كِلَابٌ سَلُوقِيَّة[5]، لَا يَعْرِفُونَ للهِ بُكْرَةً ولَا عَشِيًّا[6].

---

[1] هذه الحكاية سقطت من: ق. وفي ب، س: «ومنها أن امرأة شكت له ولدها أنه يخالفها، فحبسه، وحلف أنه لا يطلقه إلا بعد سنة، فلما توجهت أمه لم يسهل عليها حبسه، فجاءته في اليوم الثاني، وسألت إطلاقه من المنفذين، فقالوا لها: اكتبي قصة، وأنهي فيها أن السنة قد فرغت، ونحن نساعدك، فلما قرأ القصة قال لها: تكذبي، بقي من السنة هذا اليوم خاصة، وفي غد نطلقه، فقالت المرأة: أمركم مطاع، وعادت في اليوم الثاني فأطلق لها». وفي ط: «ومنها أنه، أن امرأةً شكت له ولدها أنه يخالفها، فحبسه، وحلف أنه لا يطلقه إلا بعد سنة، فلما توجهت المرأة إلىٰ بيتها، عسر عليها ولدها، فجاءت ثاني يوم للحابس، وسألت إطلاقه، ودفعت له بعض مال. فقالوا: اكتبي قصته، وأنهي فيها أن السنة فرغت، ونحن نساعدك، ففعلت ذلك، فلما قرأها، قال: تكذبي، بقي من السنة اليوم خاصة، وفي غد نطلقه إن شاء الله تعالىٰ، فقالت: الأمر أمركم، وخرجت علىٰ ذلك». والمثبت من: خ.

[2] زيادة من: خ.

[3] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

[4] يقال: فلان يقن بالشيء، مولع به، وهي يقنة.

[5] الكلاب السلوقية: كلاب تتخذ للصيد، وتنسب إلىٰ «سلوق»، وهي مدينة تقع بجنوب بلاد اليمن، واشتهرت منذ القدم بصنع الدروع وبالصيد، وبتربية كلاب صيد جيدة، وخبرة واسعة بطبائع المصيدات، ونسبةً لمدينتهم نسبة هذه الكلاب لما لها من المكانة والأهمية عندهم؛ فسميت بذلك.

[6] في ب: «ومنها أن ولده اشترىٰ لنفسه بغلًا بألف درهم، وعرضه علىٰ أبيه، فقال: هذا غالي، وأمره برده. فخرج الولد يبكي، فرآه بعض المباشرين، فسأله عن سبب بكائه،

[الحِكَايَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ][1]

[اشْنُقُوا القَفَّاص][2]

أَحْضَرُوا لَهُ غُلَامًا مَقْتُولًا قَتَلَهُ الرَّاكِبْدَارُ[3]، فَنَظَرَ إِلَىٰ رَجُلٍ حَدَّادٍ فَقَالَ: اشْنُقُوهُ؛ فَإِنَّهُ أَوْجَعَ رَأْسَنَا مِنْ طَرْقِهِ الحَدِيدَ عَلَىٰ السِّنْدَالِ؛ ولئَلَّا يَعُودَ شَرَرُ النَّارِ

قراقوش للميت، وقال له: رح اندفن، بلا صقاعة دفن، لئلا يطمع فينا الموتى، وما يبقى ميت بعد اليوم يرجع يندفن. قال: فلما رأى الرجل ذلك التزم لغرماء ولده بدفع مالهم من الدين، وخلص نفسه من الدفن»، وفي س، ق: «أنه كان بمصر تاجر، وكان بخيلًا، وكان كبير السن، وكان ولده يقترض على موته كل يوم قدرًا معلومًا، فزاد الدين عليه ولم يمت والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفن والده حيا؛ فدخل هو والمداينون عليه وحملوه، وغسلوه وكفنوه ووضعوه على نعشه وهو يصيح فلا يغاث، وجاء حول تابوته بذكارين يصيحون حوله، فلما وصلوا للمصلى اتفق أن قراقوش كان مارا، فنزل فصلى عليه كما هو وظيفة الإمام. فلما سمع الميت بذلك قال: والحمد لله الذي جاء بالفرج، فجلس في التابوت وقال: يا مولانا السلطان، خلص حقي من ولدي؛ فإنه يريد يدفني في الحياة، قال: فكيف تدفن والدك وهو حي؟! فقال: كذب علي يا مولانا، ما غسلته وكفنته وحملته إلا وهو ميت، وهؤلاء الحاضرون يشهدون لي بذلك، فالتفت إلى الحاضرين وقال: ما تشهدون؟ قالوا: نشهد بما قاله الولد. فالتفت قراقوش إلى الميت، وقال: نحن جئنا نصدقك وحدك ونكذب الحاضرين؟! رح اندفن بلا صقاعة دفن، وما يبقي أحد يندفن بعد الآن، فحملوه، ودفنوه على ذمة قراقوش». والمثبت من: ط، خ.

[1] زيادة من: خ.

[2] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

[3] ركابدار (ركبدار): من «ركاب». أي: العربة، و«دار» بمعنى: الممسك والصاحب، أي: «ممسك الركاب». وفي الاصطلاح يدل في العهد المملوكي على أحد حملة الغاشية (سرج من جلد مخروز بالذهب)، وكذلك على من يتولى عدة الخيل في الركابخانه، أما «الركابدار» في العهد العثماني فهو رابع الخاص «أوده»، مهمته الحفاظ على نعال السلطان ولبسه إياها، كما يمسك بركاب فرس السلطان، ولا يفارقه في المواكب والحفلات وفي الزورق السلطاني، وإذا خرج من السراي عمل واليًا، أو في بعض الأحيان وزيرًا. انظر: حسان حلاق، عباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات المملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والمصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية، ط١، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٩م، ص١٠٢.

فَأَخَذَتِ ابْنَهَا ومَضَتْ، وقَالَتْ: هَذِهِ مَرَّة وانْقَضَتْ، وإنْ كَانَتْ لَكَ تَعُود، خُطّ في طِيزهَا عُود[1].

[الحِكَايَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ][2]

[لَيسَ غاليًا][3]

وهِيَ أَنَّ ابْنَهُ اشْتَرَىٰ لِنَفْسِهِ بَغْلًا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، ثُمَّ عَرَضَهُ عَلَيْهِ وعَرَّفَهُ ثَمَنَهُ، فَقَالَ: هَذَا غَالٍ، فَرَآهُ بَعْضُ الحَاضِرِينَ، وعَرَفَ أَنَّ ابْنَهُ يَرْغَبُ البَغْلَ بِيَقِينٍ[4]؛ فَدَخَلُوا مَعَهُ لأَبِيهِ، وقَالُوا: لأَيِّ شَيءٍ تَرُدُّ هَذَا البَغْلَ الخَفِيفَ اللَّطِيفَ؟ فَقَالَ: لَا يُسَاوِي أَلْفَ دِرْهَمٍ. فَقَالُوا: يَا وزِيرُ، قَدِ اشْتَرَاهُ بِتِسْعِمِائَةٍ وتِسْعَةٍ وتِسْعِينَ دِرْهَمًا. فَقَالَ: إنْ كَانَ ثَمَنُهُ كَمَا قُلْتُمْ فَلَيْسَ غَالِيًا. يَا غِلْمَان، ادْفَعُوا لِصَاحِبِهِ ثَمَنَهُ، وأَعْطُوهُ الَّذِي اشْتَرَاهُ، وقُولُوا لَهُ: قَدْ سَامَحَكَ في هَذِهِ المَرَّةِ، ومِنَ الآنِ فَصَاعِدًا لَا تَشْتَرِ شَيْئًا حَتَّىٰ تُحْضِرَ البَائِعَ بِمَا يَبِيعُهُ عِنْدِي؛ لأَنَّكَ صَغِير، وعَقْلُكَ قَصِير، والنَّاسُ يَضْحَكُونَ عَلَيْك، ولَا يُشْفِقُونَ عَلَيْك؛ لِأَنَّ السُّوقِيَّةَ كِلابٌ سَلُوقِيَّة[5]، لَا يَعْرِفُونَ للهِ بُكْرَةً ولَا عَشِيًّا[6].

---

(1) هذه الحكاية سقطت من: ق. وفي ب، س: «ومنها أن امرأة شكت له ولدها أنه يخالفها، فحبسه، وحلف أنه لا يطلقه إلا بعد سنة، فلما توجهت أمه لم يسهل عليها حبسه، فجاءته في اليوم الثاني، وسألت إطلاقه من المنفذين، فقالوا لها: اكتبي قصة، وأنهي فيها أن السنة قد فرغت، ونحن نساعدك، فلما قرأ القصة قال لها: تكذبي، بقي من السنة هذا اليوم خاصة، وفي غد نطلقه، فقالت المرأة: أمركم مطاع، وعادت في اليوم الثاني فأطلق لها».
وفي ط: «ومنها أنه، أن امرأةً شكت له ولدها أنه يخالفها، فحبسه، وحلف أنه لا يطلقه إلا بعد سنة، فلما توجهت المرأة إلىٰ بيتها، عسر عليها ولدها، فجاءت ثاني يوم للحابس، وسألت إطلاقه، ودفعت له بعض مال. فقالوا: اكتبي قصته، وأنهي فيها أن السنة فرغت، ونحن نساعدك، ففعلت ذلك، فلما قرأها، قال: تكذبي، بقي من السنة اليوم خاصة، وفي غد نطلقه إن شاء الله تعالىٰ، فقالت: الأمر أمركم، وخرجت علىٰ ذلك». والمثبت من: خ.

(2) زيادة من: خ.

(3) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(4) يقال: فلان يقن بالشيء، مولع به، وهي يقنة.

(5) الكلاب السلوقية: كلاب تتخذ للصيد، وتنسب إلىٰ «سلوق»، وهي مدينة تقع بجنوب بلاد اليمن، واشتهرت منذ القدم بصنع الدروع وبالصيد، وبتربية كلاب صيد جيدة، وخبرة واسعة بطبائع المصيدات، ونسبةً لمدينتهم نسبة هذه الكلاب لما لها من المكانة والأهمية عندهم؛ فسميت بذلك.

(6) في ب: «ومنها أن ولده اشترىٰ لنفسه بغلًا بألف درهم، وعرضه علىٰ أبيه، فقال: هذا غالي، وأمره برده. فخرج الولد يبكي، فرآه بعض المباشرين، فسأله عن سبب بكائه،

[الحِكَايَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ][1]

[المَيِّتُ الحَيُّ][2]

كَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ تَاجِرٌ غَنِيٌّ، وكَانَ بَخِيلًا عَلَىٰ عَائِلَتِهِ، فَكَانَ ولَدُهُ يَقْتَرِضُ مِنَ النَّاسِ مَا يَلْزَمُهُ لِمَصْرُوفِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، ويَعِدُ النَّاسَ أَنْ يَدْفَعَ لَهُمُ الدَّيْنَ بَعْدَ مَا يَصِيرُ المَالُ لَهُ عِنْدَ مَوْتِ أَبِيهِ، فَلَمَّا طَالَ الزَّمَنُ عَلَيْهِمْ ولَمْ يَمُتْ أَبُوهُ، اتَّفَقَ ولَدُهُ مَعَ الغُرَمَاءِ أَنْ يَدْفِنُوا والِدَهُ بِالحَيَاةِ؛ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وكَتَّفُوهُ، وغَسَّلُوهُ وكَفَّنُوهُ، ووَضَعُوهُ في النَّعْشِ قَهْرًا عَنْهُ، وهُو يَصِيحُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ فَلَا يُغَاثُ، وأَتَوْا بِالفُقَهَاءِ وأَوْلَادِ الكُتَّابِ يَرْفَعُونَ أَصْواتَهُمْ حَوْلَ نَعْشِهِ؛ لِئَلَّا يَسْمَعَ النَّاسُ صَوْتَهُ، واسْتَمَرُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ وصَلُوا إِلىٰ مَحِلِّ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ.

واتُّفِقَ أَنَّ قَرَاقُوشَ كَانَ مَارًّا فَنَزَلَ، وصَلَّىٰ عَلَيهِ؛ لأَنَّهَا وظِيفَةُ السُّلْطَانِ أَوْ تَابِعِهِ، فَلَمَّا عَرَفَ المَيِّتُ في نَفْسِهِ أَنَّهُ قَرَاقُوشُ فَرِحَ، وقَالَ: الحَمْدُ للهِ، جَاءَنِي الفَرَجُ، فَقَامَ وقَعَدَ في النَّعْشِ، وقَالَ: يَا وزِيرَ السُّلْطَانِ، أَنَا لَسْتُ بِمَيِّتٍ. وأَخْبَرَهُ بِقِصَّتِهِ، وقَالَ لَهُ: أَرْجُو خَلَاصِي مِنْ ولَدِي، ومُجَازَاتَهُ عَلَىٰ حَسْبِ مَا فَعَلَ مَعِي هَذَا الفِعْلَ الَّذِي لَا يُرْضِي اللهَ ولَا يُرضِي رَسُولَهُ، ولَا يُرْضِي السُّلْطَانَ ولَا يُرْضِي وزِيرَه، ولَا يُرْضِي المُسْلِمِينَ ولَا النَّاسَ أَجْمَعِينَ؛ فَإِنَّ ولَدِي يُرِيدُ دَفْنِي بِالحَيَاةِ؛ لِيَأْخُذَ مَالِي قَبْلَ مَمَاتِي[3].

فأخبره بالقصة، وأعلمه أن غرضه فيه. فدخل معه المباشر لأبيه، وقال: يا خوند، لأي شيء رسمت بردّ البغل؟ قال: لأنه غالي، بألف درهم، فقال له: يا مولانا، نحن ما اشتريناه إلا بتسعماية وتسعة وتسعين درهمًا. فقال: إن كان كذا فما هو غالي، وأمر بدفع ثمنه». وفي س: «ومنها لأن ولده اشترى لنفسه بغلًا بألف درهم، وعرضه عليه، وقال له: هذا غالي، فرآه بعض المباشرين، فعلم أن غرضه وقع فيه، فدخل معه لأبيه، فقال: يا خوند، لأي شيء رسمتم بردّ هذا البغل، فقال: لأنه غالي، بألف درهم، فقال: يا مولاي، فاشتريناه بتسعماية تسعة وتسعين. فقال: إن كان هكذا فما هو غالي»، والمثبت من: ط، ق، خ.

(1) زيادة من: خ.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(3) البداية السردية الطويلة نسبيًا في هذه الحكاية توجه تركيز القارئ إلى المشهد نفسه دون أن يصرفه عن ذلك التفكير في ملابسات ما قبله ، وإبراز دور بطلها قراقوش ليبدأ المشهد بظهوره. للمزيد: محمد مكي: السرد المشهدي ، ص ٣٤١.

عَلَىٰ الجَارِ فَتَحْرِقَ لَهُ الدَّارَ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا حَدَّادُكَ، يَصْنَعُ إِلَىٰ خَيْلِكَ الحَدَاوِي، ولَوْ شَنَقْتَهُ لَتَلِفَتْ أَرْجُلُ خَيْلِكَ مِنْ قِلَّةِ الحَدَّادِ الَّذِي يَعْمَلُ لَهَا الحَدَاوِي. فَتَرَكَهُ ونَظَرَ إِلَىٰ رَجُلٍ قَفَّاصٍ وقَالَ: لَا حَاجَةَ لِهَذَا القَفَّاصِ، اشْنُقُوهُ بَدَلَ الرَّاكِبْدَارِ والحَدَّادِ.

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، ومَا ذَنْبِي؟ فَقَالَ: ومَا ذَنْبُ الغُلَامِ؟ فَقَالَ: مَا قَتَلْتُهُ، فَاقْتُلْ مَنْ قَتَلَهُ. فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلَهُ نَافِع وأَنْتَ غَيْرُ نَافِع.

فَقَالَ: أَنَا نَافِع؛ أَصْنَعُ الأَقْفَاصَ لِلنَّاسِ، يَضَعُونَ فِيهَا الفِرَاخَ الصَّغِيرَةَ والكَبِيرَةَ والحَمَامَ، والأَسِرَّةَ لِلجُلُوسِ والنَّوْمِ عَلَيْهَا، وغَيْرَ ذَلِكَ.

فَقَالَ: دَعُوهُ، وفَتِّشُوا عَلَىٰ غَيْرِهِ يَكُونُ خالِيًا مِنَ المَنَافِعِ، واشْنُقُوهُ بَدَلَ الرَّاكِبْدَارِ.

فَقَالَ أَهْلُ الغُلَامِ: تَرَكْنَا أَجْرَنَا عَلَىٰ اللهِ، ولَا تَقْتُلِ النَّاسَ بَدَلَ ابْنِنَا مِنْ غَيْرِ ذَنْب، حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكِيلُ فِيمَنْ ظَلَمَنَا.

فَقَالَ: أَنَا مَا ظَلَمْتُكُمْ، الظَّالِمُ لَكُمْ مَنْ قَتَلَ ابْنَكُمْ، وهَلْ يَصِحُّ [أن][1] أُخَرِّبَ البَلَدَ بِقَتْلِ النَّاسِ النَّافِعِينَ بَدَلًا عَنِ ابْنِكُمْ يَا ظَالِمِينَ؟! انْصَرِفُوا عَنِّي بِعَقْلِكُمْ السَّخِيف، واسْكُنُوا الرِّيفَ[2].

[الحِكَايَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ][3]

[اللِّصُّ والقُمَاش][4]

أَتَوْهُ بِلِصٍّ مَعَهُ قُمَاشٌ قَدْ سَرَقَهُ مِنْ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا نَظَرَهُ قَالَ لَهُم: مَا لَكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَىٰ هَذَا الغَرِيبِ، انْفُوهُ بِمَا مَعَهُ مِنَ البِلَادِ، ولَا تَأْخُذُوا القُمَاشَ الَّذِي

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

(2) في ب: «ومنها أنه أحضر له رجل مقتول وقاتله، وقالوا له: هذا الرجل قتل هذا؛ فأمر بقتله فيه، فقال له أتباعه: هذا بيطار خيلك، وإن قتلته لم تجد من يقوم في خدمته، فأطرق ساعةً ورفع رأسه، وقال لهم: الرجل القفاص الذي عند باب القلعة، هل لكم به حاجة؟ قالوا: لا، فقال: اقتلوه عوض البيطار»، والمثبت من: س، ط، ق، خ.

(3) زيادة من: خ.

(4) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

مَعَهُ؛ فَإِنَّهُ مِنْ بِضَاعَتِهِ الَّتِي أَتَىٰ بِهَا لِيَبِيعَهَا عَلَيْكُمْ، فَاشْتَرُوهَا مِنْهُ، وإِلَّا انْفُوهُ مِنَ البَلَدِ، واقْطَعُوا دَابِرَ اللُّصُوصِ الأَغْرَابِ، وإِنْ تَابَ، يَغْفِرِ اللهُ لِمَنْ تَابَ، وأَكْرِمُوا الغَرِيبَ؛ يَصِير لَكُمْ ومِنْكُم قَرِيبَ.

[الحِكَايَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ][1]

[حكمُ فرعونَ][2]

تَوَقَّفَ النِّيلُ أَيَّامًا، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ النَّاسُ بِذَلِكَ تَوجَّهَ إِلىٰ النِّيلِ، فَرَأىٰ البَلَالِيصَ[3] والطُّشُوتَ[4]، والحَمِيرَ والجِمَالَ والبِغَالَ عَلَيْهَا القِرَبُ مَمْلُوءَةً مِنَ النِّيلِ، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ وقَالَ: إِنَّمَا تَوَقَّفَ النِّيلُ مِنْ هَذِهِ الآفَاتِ، فَلَوِ امْتَنَعَتْ هَذِهِ الأَشْيَاءُ كُلُّهَا لَطَلَعَ النِّيلُ. يَا غِلْمَان، نَادُوا فِي المَدِينَةِ، وقُولُوا: قَدْ أَمَرَ قَرَاقُوشُ بِأَنَّهُ لَا يَمْلَا أَحَدٌ مِنَ النِّيلِ إِلَّا جَمَلًا واحِدًا[5]، وإِنْ رَأى أَزْيَدَ مِنْ ذَلِكَ شَنَقَ مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ.

---

[1] زيادة من: خ.

[2] ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

[3] البلاليص، أو البلاصي: جمع بلاص، وهو جرة ذات عروتين، تستعمل في نقل الماء وغيره بمصر، كأنه منسوب إلىٰ «البلاصي»، وهو بلد بصعيد مصر، وقد يخفف بحذف الياء فيقال «بلاص» المعجم الوسيط، مادة (ب.ل.ص) ٦٩/١.

[4] الطشوت: جمع طشت، وهو إناء كبير مستدير من نحاس أو نحوه يغسل فيه. المعجم الوسيط، مادة (ط.ش.ت) ٥٥٧/٢.

[5] نلمس في هذه الحكاية ظلال القلق مما كانت تعانيه العاصمة المصرية من صراع ملموس بين الرغبة في الاقتراب من النهر، وبين الانجذاب نحو الهضبة، ولم يكن يتهيأ لسكان القاهرة من مصدر للمياه سوى النيل رغم ما كان يعانيه النيل من تراجع نحو الغرب بسبب نشاط ترسب الطمي بدرجة غير عادية، في القرون (السادس والسابع والثامن) للهجرة، وأصبحت المقس - وهي التي كانت لا تزال واقعة علىٰ شاطئ النيل في فترة حكم الأيوبيين - ممتلئة تمامًا بالرمال، ولم تعد تلعب دورها كميناء، وفي بعض الأحيان كان هذا الترسب التدريجي المتواصل للطمي يحدث بسرعة ملحوظة كافية لإزعاج السلطات الحاكمة، التي كان يقلقها أمر إمداد المدينة بالمياه الصالحة، والذي كان تقهقر النيل يجعل منه مهمة تتزايد صعوبتها. ففي عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م وجد سكان القاهرة أنفسهم من جديد مضطرين للجوء إلىٰ فرع الجيزة، وفي عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م شعر الملك الكامل بالقلق عندما لحظ أن المياه لم تصل تقريبًا من جهة الروضة - مصر القديمة حتىٰ

فَفَعَلُوا ذَلِكَ مُمْتَثِلِينَ لأَمْرِهِ؛ فَطَلَعَ النِّيلُ عَلَىٰ الأَرْضِ، فَقَالَ لَهُمْ: الوَيْلُ لَكُمْ إِذَا عَدِمْتُمُونِي، انْظُرُوا كَيْفَ رَأَيْتُمْ رَأْيِي فيكُمْ؟ فَمَا هُو إِلَّا رَأْيٌ مُبَارَك.

قَالَ أَهْلُ الفِطْنَةِ: إِنْ صَحَّ هَذَا كَانَ اسْتِدْرَاجًا، فَهِيَ نَظِيرُ مَا وقَعَ مِنْ فِرْعَوْنَ[1] مِنْ قِصَّتِهِ المَشْهُورَةِ، حَيْثُ تَوَقَّفَ النِّيلُ عَنْ طُلُوعِهِ عَلَىٰ الأَرْضِ.

في وقت الفيضان - لذلك أمر بإعادة حفر هذا الفرع، وقد أسهم الناس جميعًا في هذا العمل المتصل بصالح الجميع، وإلىٰ جانب ما تحمله الحكاية من قلق من نقص مياه النيل فقد عكست أيضًا ما دونه الرحالة عن طرق جلب المياه من النيل، وكثرة أعداد (الجمال) في شوارع القاهرة، وقد لحظ آدم ميتز أن طريقة إمداد الناس بالماء في قصبة القطر المصري طريقة لا أثر فيها للرقي قط، فكان أهل مصر يشربون ماء النيل الذي يحمله الحمالون في الروايا ويصعدون الدور كل طبقة بنصف دانق، ويحكىٰ ناصر خسرو في عام ٤٤٠هـ أنه كان بمصر والقاهرة اثنان وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب في هاتين المدينتين، واعتمد المصريون علىٰ مياه النيل في الشرب؛ لعدم وجود دورات المياه والحمامات في المنازل، وكان السقاءون هم الذين يقومون بأداء هذه الخدمة في المدن المصرية لقاء أجر معلوم، وكانوا يحملون قرب المياه علىٰ ظهور جمالهم وحميرهم أو علىٰ أكتافهم ويسيرون في طرقات المدينة وهم يصيحون بالصلاة علىٰ النبي، حتىٰ يفسح الناس لهم الطريق، ولفت نظر الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك كثرة عدد السقائين الذين قدر البلوي المغربي (زار مصر في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) أنهم يمتلكون مائتي ألف جمل، وقد ذكر الرحالة الغربي بالرن الذي زار مصر سنة ١٦٠٦م، أنه لما كان سكان القاهرة يعتمدون علىٰ النيل في الشرب فإن المياه تصل إلىٰ المنازل بواسطة السقائين، وكذلك ذكر ابن بطوطة أن «بمصر من السقائين علىٰ الجمال اثني عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مُكارٍ، أي عربجي لحمل المياه. (ابن بطوطة: عبدالله ابن محمد اللواتي: مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار»، (تهذيب: أحمد العوامري وآخرون، الجزء الأول، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٣م)، ص٢٦؛ وانظر قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي: عصر سلاطين المماليك، (دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٣م)، ص٣٢٩؛ وانظر أيضًا:

Paleme, Jean: Le Voyage en Egypt 1581. Le Caire. 1970. p. 42.

(1) لفظ «فرعون» رمز في الذاكرة الشعبية للناس للجبروت والقوة والتعالي، فيصفون من يتخذ هذه الصفات بأنه «متفرعن»، ويفسرون تفرعنه هذا بخنوع الآخرين تجاهه، وعدم رده وصده بقوة أكبر. انظر: ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص٨٩؛ والزمخشري، أساس البلاغة، مادة (ف.ر.ع.ن)؛ وسليم عرفات المبيض، ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية، (مكتبة الأسرة - القاهرة ٢٠٠٦م)، ص٧١، ٧٢؛ وعمرو عبد العزيز منير، مصر في الأساطير العربية، (المجلس الأعلىٰ للثقافة القاهرة ٢٠١٥م)، ص٢٤٥.

[الحِكَايَةُ الثامنة عَشْرَةَ][1]

[حكمُ اللِّئام][2]

جَاءَ شَابٌّ مَضْرُوبٌ يَشْتَكِي مَنْ ضَرَبَهُ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ مَنْ يُحْضِرُ الضَّارِبَ. فَلَمَّا وصَلَ الخَبَرُ إِلىٰ الضَّارِبِ بَادَرَ ووقَفَ بِجَانِبِ قَرَاقُوشَ، فَلَمَّا أَتَىٰ المَضْرُوبُ مَعَ المُرْسَلِ مِنْ طَرْفِ قَرَاقُوشَ قَالَ الضَّارِبُ: هَذَا هُو الَّذِي ضَرَبَنِي حَتَّىٰ أَشْرَفْتُ عَلَىٰ المَوْتِ، فَقَالَ: احْبِسُوا هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي جَاءَنِي أَوَّلًا، فَإِنَّ الَّذِي تَشْتَكِيهِ قَدْ سَبَقَ لِي بِالشِّكَايَةِ، وقَدْ تَأَخَّرْتَ مَعَ المُرْسَلِ مَعَكَ فِي حُضُورِهِ، فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، كُنَّا نُدَوِّرُ عَلَيْهِ فَمَا وجَدْنَاهُ، واسْأَلْ رَسُولَكَ.

فَقَالَ: لَا وجْهَ لَكَ فِي الشِّكَايَةِ، الكَفُّ لِمَنْ سَبَقَ، فَلَا أَسْمَعُ قَوْلَكَ؛ فَإِنَّكَ لَمَّا تَأَخَّرْتَ سَقَطَ حَقُّكَ. فَقَالَ النَّاسُ: لَا نَقْعُدُ فِي البَلَدِ مَا دُمْتَ حَاكِمًا فِيهَا فَقَالَ: أَنْتُمْ لِئَام، ولَا يُنَاسِبُكُم إِلَّا هَذَا الحُكْمُ، والسَّلَام؛ فَإِنْ قَعَدتُّمْ أَوْ رَحَلْتُمْ تَسْتَرِيحُ مِنكُمُ الحُكَّام، يَا لِئَامُ، انْصَرِفُوا عَنِّي بِلَا كَلَام.

[الحِكَايَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ][3]

[دَارُ أبي][4]

أَتَاهُ شَيْخٌ وصَبِيٌّ أَمْرَدُ[5]، يَخْتَصِمَانِ فِي دَارٍ، وكُلٌّ مِنْهُمَا يَقُولُ: هِيَ دَارِي.

---

(1) زيادة من: خ.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي، وهي الحكاية (الثامنة عشرة) عند السيوطي.

(3) زيادة من: خ.

(4) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

(5) الأمرد: الشاب الذي بلغ خروج لحيته وطر شاربه ولم تبد لحيته؛ لخلو وجهه من الشعر، وقد تُغزل بهم وشُبب بهم، بل وعُشقوا أيضًا، وسجل الشعر العربي ذلك منذ العصر العباسي. وفي عصر سلاطين المماليك اعتنىٰ هؤلاء بأنفسهم، فلبسوا الثياب الخلابة وتزينوا وتجملوا وعطروا أجسامهم، كأنهم من النساء لكسب رضا السادة، ففتنوا الناس بجمالهم، وحلوا مكان المرأة بالفسق، واشتهاء بني جنسهم لهم، وقد رضي المردان بتلك العلائق الجنسية مع أسيادهم برغبتهم في المكانة والحظوة والاستحواذ علىٰ مخدوميهم وحبهم بقدر ما يعطونهم جنسيًّا من الفسق بهم وتقبيلهم، وقد تناهت الرغبة فيهم، فربما

فَقَالَ لِلصَّبِيِّ: هَلْ مَعَكَ كِتَابٌ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّ الدَّارَ حَقُّكَ دُونَ ذَلِكَ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ: لَا؛ لأَنَّهَا دَارُ أَبِي، وأَنَا مَوْلُودٌ فيهَا، ومَاتَ أَبِي وتَرَكَهَا لَنَا. فَقَالَ: إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَكَ كِتَابٌ يَشْهَدُ لَكَ بِهَا، فَهِيَ لِلشَّيخِ الكَبِيرِ، فَإِذَا صَارَ عُمْرُكَ مِثْلَ عُمْرِ هَذَا الرَّجُلِ الكَبِيرِ؛ نَدْفَعُ لَكَ الدَّارَ. انْصَرِفُوا عَنِّي، فَقَدْ حَكَمْتُ بَيْنَكُمَا، والسَّلَام.

[الحِكَايَةُ العِشْرُونَ](١)

[دِيكُ الغُلَام](٢)

جَاءَهُ غُلَامٌ ومَعَهُ دِيكٌ، فَلَمَّا أَحْضَرُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ الوَلَدُ: هَذَا دِيكِي أَلْعَبُ بِهِ. فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ تُعَذِّبُهُ ولَا تُطْعِمُه؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ لَوْ غَضِبَ عَلَيْكَ مِنْ جُوعِهِ وعَطَشِهِ وحَبْسِهِ في يَدِكَ نَقَرَكَ في عَيْنَيْكَ وقَلَعَهَا، أَفَكُنْتَ تَشْتَكِي الدِّيكَ؟ يَا غِلْمَانُ، خُذُوا مِنْهُ دِيَةَ عَيْنِه؛ فَإِنَّنَا قَدْ نَصَحْنَاهُ وحَفِظْنَاهَا لَهُ مِنْ فَقْعِ الدِّيكِ لَهَا.

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، عَيْنِي سَلِيمَةٌ، ولَا مَالَ لِي أَدْفَعُهُ في دِيَةِ عَينِي.

فَقَالَ: خُذُوهَا مِنْ أَبِيهِ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ تَرْبِيَتَهُ.

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، ومَا ذَنْبُ أَبِي؟ قَدْ تُبْتُ مِنْ هَذِهِ النَّوبَةِ، أَنَا أَرُوحُ أَذْبَحُ الدِّيكَ وآكُلُه، فَقَالَ: كَأَنِّي أَنَا قَطَعْتُ أَجَلَ الدِّيكِ. فَضَرَبُوهُ عِشْرِينَ جَلْدَةً قِيمَةَ ثَمَنِ الدِّيكِ، وإِنِّي عَفَوْتُ عَنْكَ، واللهُ يجَازِيك.

رأوا في ميل الرجل للرجل قيمًا نبيلة، وأن عشق الصبية أرفع من حب المرأة، واستولت شهوة المردان الملاح علىٰ قلوب الكثير من المماليك، ولا يعدو أن يكون مرجع انتشاره بينهم إلىٰ حديث نفوسهم المريضة، ونظم حياتهم، بطول مكثهم مع الغلمان من الخدم ليلًا ونهارًا، وما تقتضيه طبيعة عملهم من قيام الغلمان من الشباب والأحداث عليهم بالخدمة، وفي مخادعهم، حتىٰ أوقات نومهم بالتناوب، وملازمتهم عند اللباس والتستر، وفي مجالسهم وخروجاتهم إلىٰ الصيد والتنزه، وما تقع عليه أبصار السادة من عورات الغلمان الصبية وقوامهم، بالقياس لما تملكه المرأة، وبصورة الإيحاء النفسي، من تطلع إلىٰ الفاحشة بهم. انظر: لسان العرب، مادة (م.ر.د) ٣/ ٤٠١؛ والسبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص٧٢، الحريري: مقامات الحريري، ص٢٧٧، سعيد عاشور، المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك، ص٢٢٨.

(١) زيادة من: خ.

(٢) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات المشتركة بين نسختي ابن مماتي والسيوطي.

[الحِكَايَةُ الحَادِيَةَ والعِشْرُونَ][1]

[عَضَّ أُذُنَ نَفسِهِ][2]

[ومِنْهَا أَنَّ شَخْصًا ادَّعَىٰ عَلَىٰ آخَرَ أَنَّهُ عَضَّ أُذُنَـهُ، فَسَأَلَهُ قَرَاقُوشُ، فَقَالَ: يَا خُوَنْدُ[3]، هُو كَاذِبٌ، بَلْ هُو عَضَّ أُذُنَ نَفْسِهِ. فَقَامَ قَرَاقُوشُ مِنْ مَجْلِسِهِ، ودَخَلَ البَيْتَ، وجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ، والْتَفَتَ إِلىٰ أُذُنِهِ لِيَعُضَّهَا بِفَمِهِ، فَمَا قَدَرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وانْفَركَ[4] بِهِ الكُرْسِيُّ؛ فَسَقَطَ عَلَىٰ يَدِهِ فَانْكَسَرَتْ، فَخَرَجَ وهُو بِهَذِهِ الحَالَةِ، وأَمَرَ بِضَرْبِ المُدَّعَىٰ عَلَيْهِ، وقَالَ: أَنْتَ الَّذِي عَضّيتَ هَذَا، وكَسَرْتَ ذِرَاعِي زِيَادَةً عَلَىٰ ذَلِكَ][5].

[الحِكَايَةُ الثَّانِيَةُ والعِشْرُونَ][6]

[ازْرَعُوا الصُّوفَ][7]

[ومِنْهَا أَنَّ الفَلَّاحِينَ وقَفُوا لَهُ، وأَنْهَوْا أَنَّ القُطْنَ تَلِفَ مِنَ البَرْدِ، وسَأَلُوهُ وضْعَ الخَرَاجِ عَنْهُمْ، فَقَالَ: واللهِ لَا تَدفَعُ أَحُطُّ عَنكُمُ الخَرَاجَ إِلَّا إِنْ حَلَفْتُمْ أَنَّكُمْ مِنَ السَّنَةِ

---

(1) ما بين المعكوفتين أثبته مواكبة للعدّ.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(3) خوند: لفظ فارسي عرفته كذلك اللغة التركية؛ وأصله «خدا وند»، ومعناه: السيد الأمير، ويخاطب به الذكور والإناث. وقد غلب استعماله في العالم الإسلامي كلقب عام بمعنىٰ السيدة أو الأميرة؛ وربما كان يحتفظ في هذه الحالة بصيغته الفارسية «خوند»، وقد استعمل هذا اللقب في عصر المماليك كلقب من ألقاب النساء التي تتفرع علىٰ الأصول المؤنثة تأنيثًا حقيقيًّا. وقد ورد في كثير من النقوش المملوكية. انظر: حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، (الدار الفنية للنشر، القاهرة ١٩٨٩م)، ص٢٨٠؛ وقتيبة الشهابي: معجم أرباب السلطان في الدول الإسلامية من العصر الراشدي حتىٰ بدايات القرن العشرين، (منشورات وزارة الثقافة السورية - دمشق ١٩٩٥م)، ص٣٩.

(4) انفرك الشيء: تفتت وتساقط مما هو عليه.

(5) ليس في س، ط خ، والمثبت من: ب، ق.

(6) ما بين المعكوفتين أثبته مواكبة للعد.

(7) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

الآتِيَةِ تَزْرَعُونَ مَعَ القُطْنِ صُوفًا حَتَّىٰ تَبْقي حَرَارَةُ هَذِهِ تَدْفَعُ بُرُودَةَ هَذَا. فَقَالُوا: بِسْمِ اللهِ يَا مَولَانَا! فَوضَعَ عَنْهُم الخَرَاجَ][1].

[الحِكَايَةُ الثَّالِثَةُ والعِشْرُونَ][2]

[جُبْن وزَيتُون][3]

[ومِنْهَا أَنَّ الفَلَّاحِينَ وقَفُوا لَهُ، وأَنْهَوْا أَنَّ الزَّيْتُونَ تَلِفَ، وسَأَلُوا أَنْ يَحُطَّ عَنْهُمُ الخَرَاجَ، فَقَالَ: لَا أَحُطُّ عَنكُمْ حَتَّىٰ تَشْهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنَّكُمْ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ تَزْرَعُونَ مَعَ الزَّيْتُونِ جُبْنَ حَالُوم، ولَا تُخَالِفُوا المَرْسُوم. فَقَالُوا: بِسْمِ اللهِ يَا مَوْلَانَا][4].

[الحِكَايَةُ الرَّابِعَةُ والعِشْرُونَ][5]

[الأَعورُ والجارُ الأَعمَىٰ][6]

[ومِنْهَا أَنَّ رَجُلًا قَلَعَ عَيْنَ آخَرَ، فَأَمَرَ بِقَلْعِ عَيْنِهِ، فَقَالَ: إِنَّنِي رَجُلٌ أَعْوَرُ، لَمْ أَسْتَغْنِ بِعَيْنٍ واحدَةٍ، ولَكِنْ لِي جَارٌ أَعْمَىٰ، لَمْ تَلْزَمْهُ عَيْنُهُ الواحِدَةُ. فَأَحْضَرَ الأَعْمَىٰ، وأَمَرَ بِقَلْعِ عَيْنِهِ][7].

---

(1) ما بين المعكوفتين ليس في ط. والمثبت من: س، ق، خ.

(2) ما بين المعكوفتين أثبته مواكبة للعد.

(3) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(4) ما بين المعكوفتين ليس في ط. وفي س: «ومنها أن الفلاحين أشكو له أن الزيتون قد تلف، فأمرهم بأن يضعوا عليه زيتًا وحالوم، وسامحهم عن الخراج، وأوصاهم علىٰ ذلك». والمثبت من: ب، ق، خ.

(5) ما بين المعكوفتين أثبته مواكبة للعد.

(6) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(7) سقط من: س، ط، ق. والمثبت من: ب.

[الحِكَايَةُ الخَامِسَةُ والعِشْرُونَ][1]

[زمنُ فرعونَ][2]

[ومِنْهَا أَنَّ جَمَاعَةً حَضَرُوا لَهُ، ومَعَهُمْ قَتِيلٌ وثَوْرٌ ورَجُلٌ مَكْتُوفٌ، فَقَالُوا: أَيُّهَا الأَمِيرُ، إنَّ هَذَا الثَّوْرَ صَالَ عَلَىٰ هَذَا الرَّجُلِ؛ فَقَتَلَهُ، وهَذَا صَاحِبُهُ. فَفَكَّرَ سَاعَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِالثَّوْرِ أَنْ يُشْنَقَ، ويُطْلَقَ صَاحِبُهُ. فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا حُكْمُ اللهِ! فَقَالَ: لَوْ جَرَىٰ هَذَا فِي زَمَنِ فِرْعَوْنَ[3] فَمَا فَعَلَ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّهُ القَاتِلُ، ولَا يَحِلُّ أَنْ أَقْتُلَ غَيْرَهُ][4].

[الحِكَايَةُ السَّادِسَةُ والعِشْرُونَ][5]

[عَلَىٰ رَاسه رِيشَةَ][6]

[ومِنْهَا أَنَّهُ سُرِقَتْ عُمْلَةٌ[7] فِي زَمَنِهِ، فَقَالَ لأَصْحَابِ العُمْلَةِ: الحَارَة بتَاعِتْكُم[8] لَهَا دَرْب؟[9] فَقَالُوا: نَعَمْ. فَقَالَ: اذْهَبُوا وائْتُونِي بِهِ، فَفَعَلُوا، وجَاءُوا

---

(1) ما بين المعكوفتين أثبته مواكبة للعد.

(2) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط.

(3) «فرعون»: لم يستعمل هذا اللقب الذي يوحي بعظمة الشخصية إلا في الألف سنة ق.م، كلقب للملك، ويعني باللغة المصرية القديمة: «البيت العالي» أو « العظيم»، وقد أشار المصريون بها منذ عصور الدولة القديمة إلىٰ قصور فراعنتهم، ثم صار اللقب يطلق علىٰ الملوك أنفسهم، غير أن لقب «فرعون» لم يستعمل في أي وقت من التاريخ كلقب حقيقي رسمي للملك. انظر: چورچ بوزنر وآخرين: معجم الحضارة المصرية القديمة، ص٢٥٤، ٢٥٥؛ وألن رونر: مصر الفراعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل، الطبعة الأولىٰ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م، ص٧١.

(4) سقط من جميع النسخ، وأثبته من: ب.

(5) ما بين المعكوفتين أثبته مواكبة للعد.

(6) ما بين المعكوفتين زيادة تناسب مضمون الحكاية، وهذه الحكاية من الحكايات التي وردت في نسخة السيوطي فقط. ونلمح سمة قدرة مؤلف الحكاية على الارتفاع بوتيرة الأحداث في الحكاية وتقديمها (الحبْكة)، ومن ثَمَّ دفعها إلى الأمام باتجاه (العقدة) أو حلها، وتأتي المشاهد المتتالية لتكشف عن تلك العقدة، وهي البحث عن اللص، ثم تصل إلى (الحل) واكتشاف السارق. انظر: مكي: السرد، ص ٣٤٨.

(7) أي: نقودًا.

(8) أي: ملككم وحقكم. انظر: معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، ١٠٩/٢؛ وكنز الفوائد في الموائد، ص٧٤.

(9) يعني: طريقًا مسلوكًا، أي: بابًا.

بِالدَّرْبِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مُدُّوه[1]. فَقَالُوا لَهُ جَمَاعَتُهُ: يَا مَوْلَانَا، هَذَا خَشَبٌ لَا يَعْقِل. فَقَالَ لَهُمْ: افْعَلُوا مَا آمُرُكُمْ بِهِ. فَمَدُّوهُ وضَرَبُوهُ. ونَزَلَ إِلَيْهِ قَرَاقُوشُ، ووضَعَ أُذُنَهُ بِجَانِبِهِ، وجَعَلَ يُوشْوِشُهُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لَهُمْ: اجْمَعُوا لِي بَاقِيَ أَهْلِ الحَارَةِ والدَّرْب. فَلَمَّا حَضَرُوا، قَالَ لَهُمْ: الدَّرْبُ يُخْبِرُنِي أَنَّ الَّذِي سَرَقَ العُمْلَةَ عَلَىٰ رَأْسِهِ رِيشَةٌ. فَكَانَ صَاحِبُ[2] العُمْلَةِ واقِفًا[3] بِجُمْلَةِ النَّاسِ؛ فَتَوهَّمَ، ورَفَعَ يَدَهُ إِلَىٰ رَأْسِهِ، فَرَآهُ قَرَاقُوشُ، فَأَمَرَ بِهِ، وقَرَّرَهُ بِالضَّرْبِ فَأَقَرَّ، وأَحْضَرَ العُمْلَةَ ودَفَعَهَا إِلَىٰ أَصْحَابِهَا][4].

[انْتَهَىٰ مَا وجَدتُّهُ مِنْ كِتَابِ «أَخْبَارِ قَرَاقُوش»، والحَمْدُ للهِ وحْدَهُ، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ عَلَىٰ مَن لَا نَبِيَّ بَعْدَه، تَم][5].

وهذا ألطفُ ما ورَد عنه، وقد ورَد عنه غيرُ ذلك؛ تركناه مخافةَ السآمةِ،

والحمد لله وحده، وصلىٰ الله عليه وسلم مَن لا نبيَّ بعده.

تمَّ يومَ الأربعاء ٥ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٠١١هـ،

علىٰ يدِ أحقرِ العبادِ السيد محمد.

---

[1] أي: اجعلوه مهيأً للضرب.

[2] يقصد: سارقها.

[3] في الأصل: «واقف».

[4] سقط من: ب، خ، ط، ق، والمثبت من: س.

[5] سقط من: ط، وبعده في س: «نسأل الله العظيم أن يعفو عنا، وأن يغفر لنا ويرحمنا بمنه وكرمه؛ إنه قريب مجيب، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا». وبعده في خ: «تمت حكايات قراقوش، وعددها عشرون حكاية». والمثبت من: ق.



الكشافات

- كشاف الأعلام.
- كشاف الفِرَق والجماعات والطوائف وما في حكمها.
- كشاف الأماكن والمواضع والبلدان.
- كشاف المصطلحات النوعية.
- كشاف الأمثال والحِكَم والقواعد والأقوال وما في حكمها.
- كشاف الكتب الواردة في المتن.



كشاف الأعلام

(*) كذا ورد، وهو «جمال الدين أبو المحاسن يوسف».

(**) كذا ورد، وهو «جمال الدين أبو المحاسن يوسف».

كشاف
الفِرَق والجماعات والطوائف وما في حكمها

كشاف

الأماكن والمواضع والبلدان

كشاف

المصطلحات النوعية

كشاف

الأمثال والحِكَم والقواعد والأقوال وما في حكمها

كشاف
الكتب الواردة في المتن



قائمة المصادر والمراجع

أولًا- المصادر العربية:

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م.
- ــــــــــ: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩م.
- الإسفراييني، أبو المظفر (ت٤٧١هـ): التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية من الفرق الهالكين، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، القاهرة ١٩٤٠م.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٣٢٤هـ): مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، القاهرة ١٣٨٩هـ.
- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ): خريدة القصر وجريدة أهل العصر - قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس، القاهرة ١٩٥١م.
- الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري: أسرار العربية، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ــــــــــ: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط٢، مصر ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- ابن أيبك، أبو بكر بن عبد الله الدواداري (ت٧٣٦هـ أو ٧٤٥هـ): كنز الدرر وجامع الغرر، المعروف بـ «الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب»، الجزء السابع، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللَّواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ): مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، تهذيب: أحمد العوامري وآخرون، الجزء الأول، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٣٣م.
- البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني (ت١٣٣٩هـ): هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف بمطبعتها البهية بإستانبول ١٩٥١م، وأعادت دار إحياء التراث العربي، بيروت، طباعته بالأوفست.
- التستري، أبو الحسن سعد بن إبراهيم البغدادي الكاتب (ت٣٦١هـ): المذكر والمؤنث، تحقيق أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي - القاهرة، دار الرفاعي - الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٢٩-١٩٧٢م.
- ــــــــــ: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠م.
- ــــــــــ: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٦م.
- الجبرتي، عبد الرحمٰن بن حسن (ت١٢٢٧هـ): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني (ت٦١٤هـ): رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.

- الجرجاني، الشريف علي بن محمد (ت٨١٦هـ): التعريفات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٣، ١٩٨٨.
- ابن جماعة، بدر الدين الكناني (٣٧٧هـ): تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق ودراسة: فؤاد عبد المنعم أحمد، قطر ١٩٨٥م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن علي (ت٥٩٧هـ): أخبار الحمقىٰ والمغفلين، شرحه: عبد الأمير مهنا، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٠م.
- ــــــــــ: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ــــــــــ: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر، بيروت، د.ت.
- حاجي خليفة، مصطفىٰ بن عبد الله القسطنطيني، كاتب چلبي (ت١٠٦٧هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنىٰ، بغداد، ١٩٤١، وصورت عنها دار إحياء التراث العربي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر الكناني (ت٨٥٢هـ): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- الحنبلي، عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم بن نصر الله (ت٨٧٦هـ): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، سلسلة كتب التراث (٦٥)، بغداد ١٩٨٧م.
- ابن الخطيب الغرناطي، لسان الدين (ت٧٧٦هـ): أعمال الأعلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكناني، دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٦٤م.
- ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد (ت٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون المسمىٰ «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، تحقيق: سهيل زكار، ط٢، دار الفكر، بيروت ١٩٨١م.

- ابن خلكان، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ): وفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
- ـــــــــــ: وفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧١-١٩٩٤م.
- الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الكاتب (ت٣٨٧هـ): مفاتيح العلوم، ط١، المطبعة المنيرية، مصر ١٩٧٢م.
- ابن دريد، محمد بن الحسين الأزدي (ت٣٢١هـ): جمهرة اللغة، ط١، حيدر آباد ١٣٤٥هـ.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م
- ـــــــــــ: العبر في خبر مَن غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الرازي، أبو حاتم أحمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي (ت٢٧٥هـ): الزينة في الكلمات الإسلامية، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة المتحف العراقي برقم (١٣٠٦).
- الزركلي، خير الدين محمود بن محمد بن علي الدمشقي (ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م): الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، ط١٥، بيروت ٢٠٠٢م
- ابن الساعي، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله (ت٦٧٤هـ): الدر الثمين في أسماء المصنفين، تحقيق: أحمد شوقي بنبين، محمد سعيد حنشي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي التركي (ت٦٥٤هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٥١م.
- السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت٧٧١هـ): معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار وآخرين، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، مصر ١٣٦٣هـ/١٩٤٨م.
- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر (ت٩٠٢هـ): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (ت٤٥٨هـ): المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ـــــــــــ: المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن أبي بكر الشافعي (ت٩١١هـ): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، الجزء الأول، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مكتبة عيسىٰ البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧م.
- ـــــــــــ: قطوف الأدب من مسامرات العرب، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، ط١، القاهرة ١٩٨٨.
- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمٰن المقدسي (ت٦٦٠هـ): الذيل علىٰ الروضتين، عناية محمد زاهد الكوثري، نشر: عزت العطار الحسيني، دار الجيل، ط٢، بيروت١٩٧٤م.
- ـــــــــــ: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: محمد حلمي أحمد، المؤسسة المصرية للتأليف والطباعة، القاهرة ١٩٦٢م.
- ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي (ت٦١٧هـ): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٥.

- ابن شاهين الملطي، عبد الباسط بن خليل (ت٩٢٠هـ): نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٧٥م.

- ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع الأَسَدِي (ت٦٣٢هـ): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤م.

- الشيرازي، محمد الموسوي: الفرقة الناجية، تعريب وتحقيق: فاضل الفراتي، ط١، مكتبة الأمين، القاهرة ٢٠٠٢م.

- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله (ت٧٧٤هـ): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بت أيبك بن عبد الله (ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

- الطباخ، محمد راغب بن محمود هاشم الحلبي (ت١٩٥١م): إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق: محمد كمال، دار القلم العربي، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- ابن عبد ربه، شهاب الدين أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ): العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٤هـ.

- ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري (ت٦٩٢هـ): الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م.

- العليمي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد المقدسي الحنبلي (ت٩٢٨هـ): التاريخ المعتبر في أنباء مَن غبر، تحقيق: لجنة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، دمشق ١٤٣١هـ/٢٠١١م.

- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي (ت١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي (ت نحو ٧٧٠هـ): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- القرشي، محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد بن نصر الله الحنفي (ت٧٧٢هـ): الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتبخانه، كراتشي، باكستان، د.ت.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ): إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة، المكتبة العصرية، ط١، بيروت ١٤٢٤هـ.
- القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ): صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الفكر، دمشق ١٩٨٧.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت٧٧٤هـ): البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية، دار هجر للطباعة والنشر، مصر ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ــــــــــ: البداية والنهاية، دار المعرفة، ط ٦، بيروت ٢٠٠١م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (٤٥٠هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٦م.
- مجهول: كنز الفوائد في تنويع الموائد، تحقيق مانويلا مارين وديفيد واينر، فرانتز ستاينر، شتوتجارت، ط ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (ت٨٤٥هـ): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، الجزء الثالث، تحقيق: محمد حلمي أحمد، القاهرة ١٩٧٣م.

- ــــــــــــــ: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٦م.
- ــــــــــــــ: المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- ــــــــــــــ: الخطط المقريزية «المواعظ والوصف بذكر الخطط والآثار»، سلسلة الذخائر، مصوَّرة عن طبعة بولاق، الأعداد (٥١-٥٤)، القاهرة ١٩٩٩م.
- ابن المقفع، ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، تحقيق: عزيز سوريال وآخرين، القاهرة ١٩٤٨م.
- الملك الأشرف الغساني، إسماعيل بن العباس (ت٨٠٣هـ): العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، دار البيان، بغداد، دار التراث الإسلامي، بيروت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- ابن مَمَّاتي، الأسعد بن مَمَّاتي الوزير الأيوبي (ت٦٠٦هـ): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م.
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
- ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله محمد (ت٦٩٧هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ١، تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٧م.
- ــــــــــــــ: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥٣م.
- ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن مظفر (ت٧٥٠هـ): تتمة المختصر في تاريخ البشر، المطبعة الوهابية، القاهرة ١٩٦٥م.
- ابن الوكيل، أبو الحجاج يوسف بن محمد الملواني (ت١١٣١هـ): تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق: محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٩م.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (ت٦٢٦هـ): إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب (معجم البلدان)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

ثانيًا- المراجع العربية:

- إبراهيم، أحمد عيسىٰ: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨١م.
- الأعظمي، محمد حسن: عبقرية الفاطميين، أضواء علىٰ الفكر والتاريخ الفاطمي، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٠م.
- الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر، القاهرة ١٩٨٩م.
- الباشا، حسن وآخرون: القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها، القاهرة ١٩٧٠م.
- بلوط، علي الرضا قرَّة، أحمد طوران قرَّة: معجم التاريخ (التراث الإسلامي في مكتبات العالم)، دار العقبة، قيصرى، تركيا ٢٠٠٦م.
- تيمور، أحمد: معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب والوثائق، القاهرة ٢٠٠١م.
- ثامر، أحمد خزعل: الإدارة في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) في مصر وبلاد الشام واليمن والجزيرة الفراتية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد ٢٠٠٤م.
- الجابي، بسام عبد الوهاب: قراقوش، دار ابن حزم، بيروت ١٩٩٩م.
- الحجي، حياة ناصر: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم السلاطين المماليك البحرية دراسة تاريخية وثائقية في وقائع الممارسات المختلفة السلطانية والأميرية، لجنة التأليف والتعريب، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت ١٩٩٧م.
- حريب، طارق: شخصيات بين الأسطورة والخيال، دمشق ٢٠٠٥م.

- حلاق، حسان وآخر: المعجم الجامع في المصطلحات المملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والمصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية، ط١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٩م.
- حمزة، عبد اللطيف: أدب الحروب الصليبية، مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٤٩.
- ـــــــــــ: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، الطبعة الثامنة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٨م.
- ـــــــــــ: الفاشوش في حكم قراقوش لابن مَمَّاتي، كتاب اليوم، مطابع أخبار اليوم، القاهرة د.ت.
- الجميلي، رشيد عبد الله: دراسات في تاريخ الخلافة العباسية، ط١، مطبعة المعارف، الرباط ١٩٨٤م.
- الخادم، سعد: الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، سلسلة الألف كتاب، العدد (٤٨٨)، القاهرة ١٩٥٨م.
- الخليل، أحمد محمود: صورة الكُرْد في مصادر التراث الإسلامي، دار أراس للطباعة، أربيل ٢٠١٢م.
- الدجيلي، خولة شاكر: بيت المال نشأته وتطوره، مطبعة وزارة الأوقاف، بغداد ١٩٧٦.
- دي سوسيور، فرديناند: علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، آفاق عربية، بغداد ١٩٨٥م.
- ربيع، حسنين محمد: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة ١٩٦٤.
- رضوان، محمد: طرائف العرب ونوادرهم، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠م.
- رونر، ألن: مصر الفراعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م.

- زكي، عبد الرحمن: بناة القاهرة في ألف عام، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م.
- ــــــــــ: القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، الدار المصرية للتأليف، القاهرة ١٩٦٦م.
- ــــــــــ: قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٧١م.
- زهيري، كامل: الفاشوش في حكم قراقوش، مجلة الهلال، القاهرة ١٩٦٦م.
- سركيس، يوسف إليان بن موسى (ت١٩٣١): معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس، القاهرة ١٩٢٨م.
- الشال، أحمد خليل: حكم قراقوش، الدار الذهبية، القاهرة ٢٠٠٠م.
- شعلان، إبراهيم: النوادر الشعبية المصرية دراسة تاريخية اجتماعية أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠م.
- الشيال، جمال الدين، مجموعة الوثائق الفاطمية، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٥م.
- صبرة، عفاف سيد: بهاء الدين قراقوش الوزير المفترى عليه، مجلة الدارة، مج ١٣، عدد (٢)، الرياض ١٩٨٧م.
- ضيف، شوقي (ت٢٠٠٥): تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر ١٩٦٠-١٩٩٥م.
- ــــــــــ: في الشعر والفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٥م.
- طرخان، إبراهيم: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٨م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٠م.

- ـــــــ: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تار
العصور الوسطىٰ، الجزء الأول، الطبعة الأولىٰ، مكتب
القاهرة ١٩٦٣م.
- ـــــــ: المجتمع المصري في عصر سلاطين المم
العربية، القاهرة ١٩٩٢م.
- العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولىٰ في م
النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٩م.
- عبد الحسين، رياض: أسعد بن مَمَّاتي وكتابه قوانين الد
ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد ٩٩٧
- ـــــــ: الفاشوش في حكم قراقوش؛ الدوافع والأغراض
التربية، جامعة واسط العراق ٢٠٠١م.
- عبد الرازق، أحمد: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك در
الرشوة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩م.
- عبد العال، جمعة جمال: الثورات الشعبية في الدولة الأيوبية
٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية
جامعة الزقازيق، مصر ١٩٩٦م.
- عبد العزيز، محمد رفعت: الأمثال مصدرًا لدراسة التاريخ، دار
للدراسات، القاهرة ٢٠٠٣م.
- عزام، عبد الرحمن: صلاح الدين الأيوبي وإعادة إحياء المذهب السُّن
ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري، قطر ٢٠١٢م.
- العلي، صالح أحمد: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في
القرن الأول الهجري، بغداد ١٩٥٣م.
- عوض الله، الشيخ الأمين: الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي، ط١، دار
المجمع العلمي، جدة ١٩٧٩م.

- فرنان، جان بيار، وآخر: أوديب وأساطيره، ترجمة: سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٩م.
- فهيم، حسين: قصة الأنثروبولوچيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٥م.
- فهيم، حسين: أدب الرحلات، عالم المعرفة، العدد (١٣٨)، الكويت ١٩٨٩م.
- قاسم، قاسم عبده: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، دار عين، القاهرة ٢٠٠٩م.
- القلماوي، سهير: القصص الشعبي، مجلة عالم الفكر، المجلد٣، العدد الأول، الكويت ١٩٧٢م.
- كازانوفا، بول: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة: أحمد دراج، القاهرة ١٩٧٤م.
- الكرملي، أنستاس: النقود العربية والإسلامية وعلم النميات، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٧م.
- لاين، إدوارد وليم: عادات المصريين المحْدَثين وتقاليدهم، ترجمة: سهير دسوم، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٩م.
- المبيض، سليم عرفات: ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م.
- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، وضعه أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، دار الدعوة، مصر، د.ت.
- محمود، سلام شافعي: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٧٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.
- ــــــــــ: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م.

- مرجونة، إبراهيم محمد: تاريخ الأكراد دراسة؛ تاريخية حضارية في ظل الخلافة العباسية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ٢٠١٠م.
- منير، عمرو عبد العزيز: قصة فتوح البهنسا الغراء، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٢م.
- منير، عمرو عبد العزيز: ثورات مصر الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٥م.
- منير، عمرو عبد العزيز: الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش، للأسعد بن مَمَّاتي (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، برواية الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، دار عين، القاهرة٢٠١٦م.
- يقطين، سعيد: الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت ١٩٩٧م.

ثالثًا- المراجع الأجنبية:

- Charles S. Peirce: collected papers, The Belknap press of Harvard University press, Cambridge, Massachusetts, 1965.
- DOZZY.R. Supplement aux Dictionnaires Arabes. 2Vols. Paris 1927.
- Ehrenkreutz A.E. Saladine, New York 1972.
- John Locke: An essay concerning human understanding, abridged and edited by A.S. Pringle-Pattison,The Harvester press, NewJersey,1978.
- Karl Buhler: the key principle: the sign - character of language, in: Robert E. Innis (ed.) :semiotics an introductory anthology, Indiana University press. Bloomington, 1985.
- Setton. "K" M, A history of the crusades., III Vol. Wisconsin 1969-1975.

الفهرس

القسم الثاني

محقق النص في سطور

- **د. عمرو عبد العزيز منير.**
- كاتب وأستاذ جامعي متخصص في العلاقة بين التاريخ والفولكلور.
- **حائز على عدد من الجوائز العلمية والثقافية ومنها:**
- الجائزة العربية للإبداع الثقافي فرع التراث والدراسات التاريخية (ALECSO) ٢٠١٤م.
- جائزة ابن بطوطة الدولية في أدب الرحلات ٢٠٠٩م.
- جائزة تحقيق التراث الأولى من وزراة الثقافة المصرية عن تحقيق كتاب (فتوح البهنسا الغراء على أيدى الصحابة والشهداء)، القاهرة ٢٠١٢م.
- جائزة كتاب الجمهورية ٢٠١٢ الأولى (مصر).
- جائزة سعاد الصباح في أدب الرحلات، الكويت ٢٠٠٨م.
- جائزة تحقيق التراث القصصي الأولى من وزراة الثقافة المصرية عن تحقيق كتاب (فتوح مصر المحروسة)، القاهرة ٢٠١٦م.
- **من أبرز مؤلفاته.**
- كتاب "أقدم رحلة شنقيطية مدونة رحلة الحاج محمد البشير بن أبي بكر البُرْتُلِّي الولاتي إلى الحرمين الشريفين" (لايدن - BRILL - هولندا ٢٠٢١).
- كتاب "الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين" ٢٠٠٨م.
- كتاب "أهل الحيل والألعاب السحرية عصري الأيوبيين والمماليك" ٢٠١٩م.
- تحقيق ودراسة "كتاب ذِكْرُ الأَقَالِيم" للشَّيخِ إِسْحَاقَ بْنِ الحَسَنِ الزياتِ، دبي ٢٠١٩م.
- كتاب أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا (الشارقة ٢٠١٧م).
- كتاب فتوح مصر المحروسة على يد سيدي عمرو بن العاص (دراسة وتحقيق، سلسلة الجوائز، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٦م).
- تحقيق "سيرة القس نصير الإسكندراني وابنه مرقس (سيرة شعبية قبطية ق١٨م).
- تحقيق كتاب "التُّحْفة الزَّكية في سياحتَي مصر والأزبَكيَّة" تأليف الشيخ أحمد عاشور سليمان الخضري الأزهريّ.
- تحقيق كتاب السيرة الشعبية للحاكم بأمر الله (قيد الإنجاز)
- تحقيق كتاب سيرة الملك البدر نار بن النهروان بن طيبوش بن قيبوش (في اثنى عشر جزءًا).



صدر من سلسلة التراث الحضاري

١ـ الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، لابن ظهيرة.
٢ـ منامات الوهراني، للوهراني.
٣ـ رسالة آداب السفرة، للسمناني.
٤ـ الأدوار في الموسيقى، للأرموي.
٥ـ جالينوس: فرق الطب للمتعلمين، نقل (أبي زيد حنين بن إسحق العبادي المتطبب).
٦ـ الجواهر وصفاتها، ليحيى بن ماسويه.
٧ـ التحفة السنية، لابن الجيعان.
٨ـ كاتب الشونة، جمعها وكتبها/ أحمد بن الحاج أبو علي.
٩ـ هذه رسالة جليلة في توجيه النصب في بعض كلمات نحو:ـ فضلًا وخلافًا ولغة وأيضًا وهلم جرا لابن هشام المصري، تحقيق د./ إيمان حسين السيد حسين، دراسة/ محمد حسين السيد حسين.
١٠ـ كتاب الأنساب/ للحمداني، جمع ودراسة وتحقيق د. أسامة السعدوني جميل.
١١ـ رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك في السياسة وتدبير المملكة، تحقيق وشرح دكتور محمد سليم سالم.
١٢ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تأليف أبو الوليد بن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨م).
١٣ـ كتاب الجبر والمقابلة، لمحمد بن موسى الخوارزم، قام بتقديمه والتعليق عليه علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد.

١٤- من نصوص كتاب المتين للمؤرخ القرطبي الكبير أبي مروان بن حيان، جمعها من مطبوع ومخطوطات الذخيرة لابن بسام ودرسها، وحققها وقارنها بنصوص المصادر الأخرى، العربي منها والأوروبي د. عبد الله محمد جمال الدين.

١٥- كتاب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لمحمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة، تقديم ودراسة د. يسري أحمد زيدان.

١٦- رسالة في توجيه قراءة ابن محيصن في الإستبرق، لعبد القادر البغدادي - تحقيق ودراسة د. محمد جمعة الدِّربيّ.

١٧- الأنوار والمراقب، الجزء الأول، نسخةُ من المخطوط ليون نيموي، تحقيق: د. حسين عبد البديع حسين، مراجعة ودراسة: د. أحمد محمود هويدي.

١٨- جامع التواريخ، ترجمة عن الفارسية لمقدمة رشيد الدين لجامع التواريخ وتاريخ هولاكو، ترجمة: محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة: يحيى الخشاب.

١٩- عيون الحكمة، تصنيف الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا، تحقيق د. إلهام مصطفى محمد، مراجعة: أ.د. مصطفى لبيب.

٢٠- الشكوك على بطليموس، للحسن بن الهيثم، تحقيق: د. عبد الحميد صبرة، د. نبيل الشهابي، تصدير: د. إبراهيم مذكور. دراسة: د. أحمد فؤاد باشا.

٢١- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي"، لبدر الدين العيني، حققه وقدم له: فهيم محمد شلتوت، راجعه: د. محمد مصطفى زيادة، دراسة اقتصادية: د. أسامة السعدوني جميل.

٢٢- كتاب مَا لا يَسْتَغْنِي عَنْهُ الإنْسَانُ مِنْ مُلَحِ اللِّسَانِ، تأليف: أبي الحسنِ إبْرَاهِيمَ ابْنِ عُمَرَ بنِ حسنِ الرُّبَاطِ بنِ علي بن أبي بكرٍ الْبِقَاعِيِّ الشَّافِعِيِّ، (٨٠٩هـ - ٨٨٥هـ) (١٤٠٦م - ١٤٨٠م)، دراسةُ وتحقيقُ: مُحَمَّد حُسَيْن السَّيِّد حُسَيْن.

٢٣- كتاب التبصر بالتجارة، في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة، والأعلاق النفيسة، والجواهر الثمينة. تأليف: أبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري، إعداد: إكرامي عشري.

٢٤- ابن باجة، تعليقات في كتاب باري أرمينياس، ومن كتاب العبارة لأبي نصر الفارابي. تحقيق: د. محمد سليم سالم، دراسة: د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور.

٢٥- كتاب أخبار سيبويه المصري، تأليف: الحسن بن زولاق، نشره لأول مرة محمد إبراهيم سعد وحسين الديب (سنة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م)، دراسة: د. نهلة أنيس محمد مصطفى.

٢٦- علم الساعات والعمل بها، تأليف: رضوان بن محمد الساعاتي مع مجموع في الميكانيك الإسلامي، تحقيق: محمد أحمد دهمان، تقديم العلامة: د. شاكر الفحام، توطئة: سلوى بكر.

٢٧- مؤنس الوحدة، ضياء الدين بن الأثير الجزري، (٥٥٨ - ٦٣٧هـ)، دراسة وتحقيق: أحمد مهدلي.

٢٨- كتاب جالينوس إلى غلوقن في التأتي لشفاء الأمراض، مقالتان شرح وتلخيص: حنين بن إسحق المتطبب، تحقيق وتعليق: د. محمد سليم سالم.

٢٩- أَحْكَام النُقود وغَيرهَا مِن الموزونَاتِ والمِكْيَلات، وهو الكتاب السابع من كتاب تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف، تأليف: زين الدين عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، ت: ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م، تحقيق: د. محمد جمال الشوربجي، د. أسامة السعدوني جميل، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

٣٠- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تأليف: بدر الدين محمود بن أحمد العيني، تحقيق: د. محمد جمال حامد الشوربجي.

٣١- كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تأليف: أحمد بن يوسف التفاشي، حققه وعلق عليه وشرحه: د. محمد يوسف حسن، د. محمود بسيوني خفاجي.

٣٢- المُفضّل على المُفصّل (المُشْتَرك)، تأليف: محمد بن حسام الهرويّ، المتوفى بعد سنة (٧٥١ هـ)، تحقيق: مهتدي فتحي عبد الصمد.

٣٣- المسائل لأبي علي يحيى بن غالب بن محمد البغدادي المنجم المعروف بالخياط، تلميذ المنجم اليهودي ماشاء الله بن أثري، توفى بين عامي (٢١٠ - ٢٣٠هـ) (٨٢٥- ٨٤٥م)، المقالات على الأحكام البسيطة مما ذكره الحكماء ورسالة في دلائل القمر، تحقيق: نهى عبدالرازق الحفناوي.

٣٤- الأمانات والاعتقادات، تأليف: سعيد بن يوسف، المعروف بسعديا الفيومي، تحقيق: أ.د. شريف حامد سالم، مراجعة ودراسة: أ.د. أحمد محمود هويدي.

٣٥- العيون وعلاجها عند قدماء المصريين نقلًا عن قراطيسهم، ترجمة الفقير: أحمد بك كمال، دراسة: محمد سيد كمال.

وضمن السلسلة أيضًا:

- الفاشُوشُ في حُكْمِ قَراقُوشَ، للأسعد ابن مَمَّاتي، ت (٦٠٦هـ - ١٢٠٩م)، وما جمعه جلال الدين السيوطي، ت (٩١١هـ - ١٥٠٥م).
- رسالةٌ في عِلْم الكِتابَةِ والأخْبارِ لمصنِّفٍ مصْريٍّ مَجهُولٍ منْ العَصرِ العُثْمَاني، تحقيق ودراسة: د.أحمد جمعة عبد الحميد، د. حسن علي عبيد، د. يحيى زكريا سرور.
- تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، تأليف: محمد بن خلف بن المَرْزُبان، ت (٣٠٩هـ)، تحقيق ودراسة: د. محمد زكريا يوسف، د. السيد أحمد إبراهيم.

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب



مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠
٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤
٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

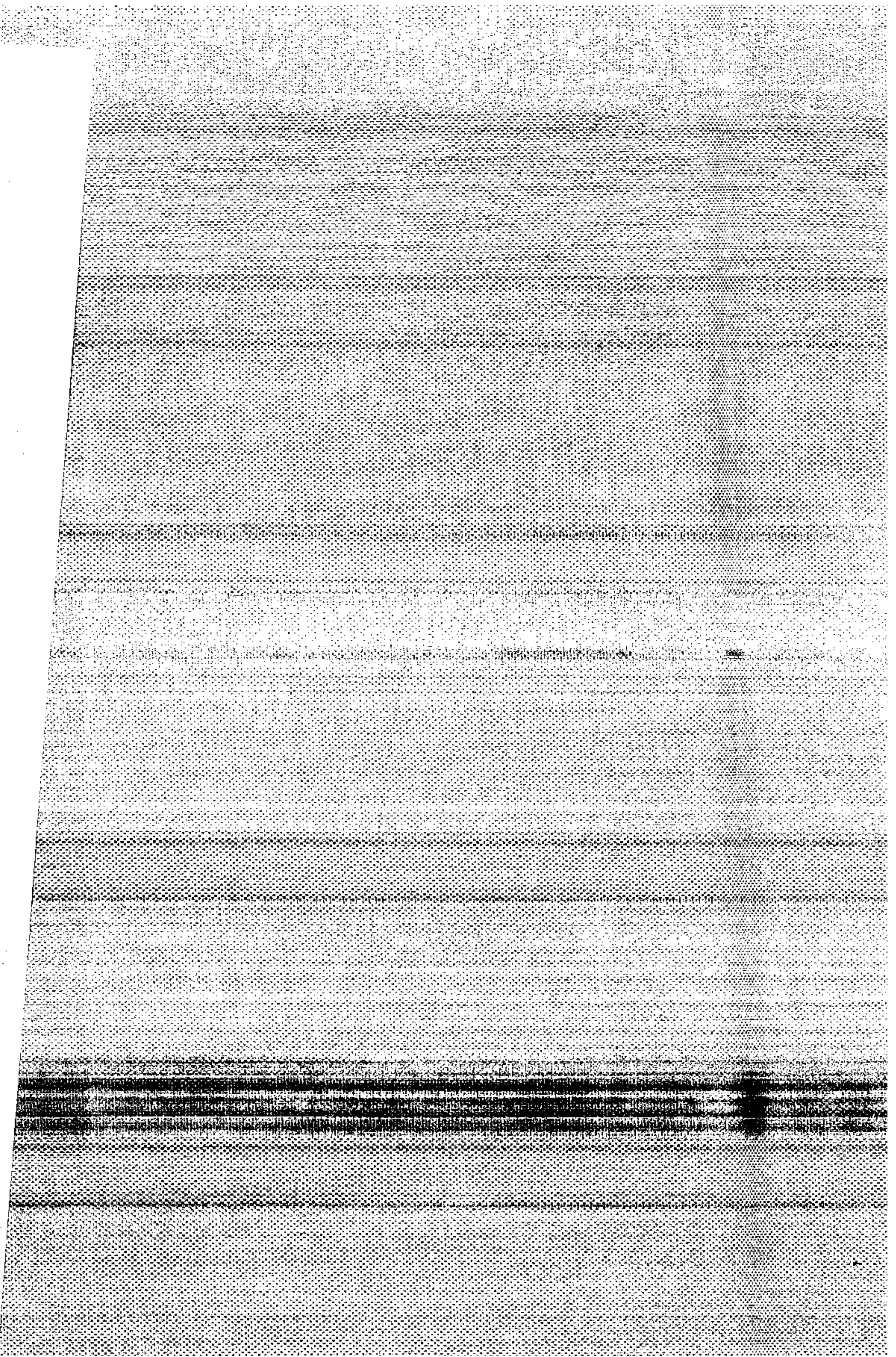
خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس






مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب